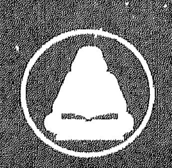
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات أدبية

دراسات أدبية

السخرية في أدب المازني

د. حامد عبده الهوال





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

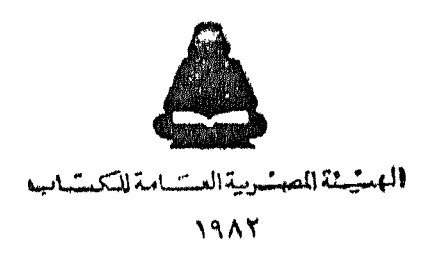


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات
أدبية

السخرية في أدب المازني

د. حامد عبده الهوّال



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٢


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

١

تعتبر السخرية من أهم الظواهر البارزة فى أسلوب المازنى ككاتب وشاعر يقدر الحياة من حوله ويتأثر بها .

ذلك لأنها تتخلل أدبه كله وتكون أدق أنسجته ، وتشمله من السطح الى الأعماق ، بحيث يمكن أن نراها كل شيء فى هذا الأدب ، أو نراه فى جملته يقوم عليها ، ويتخذها منهجا فكريا ولغويا يؤثر فى مضمونه وفى أسلوبه على السواء .

وقراءة أدب المازنى فى هذا الاطار تعنى أن نسبح سباحة عامة وشاملة فى انتاجه الأدبى على اختلاف أنواعه ، ونستشف منه روحه ومعالم شخصيته ، وندرك مدى تأثره بالأحداث ، ومدى فاعليته أمام هذه المؤثرات .

وفى نفس الوقت نتيح لأنفسنا قدرا من المتعة الروحية والعقلية قد لا يتوفر لنا فى انتاج أديب آخر لا يقل عن المازنى عبقرية وقدرة أو قد يزيد .

وتبدو أهمية دراسة أدب المازنى من خلال هذه الظاهرة ، لأنها تعنى التركيز على ما كان يشغل تفكيره ويثير اهتمامه ، ويحرك فيه الرغبة فى الكتابة أو الرد على قول أو فعل بما يراه مناسبا له ٠

كأننا منذ البداية ، ومن خلال اهتمامنا بأسلوب الأديب – كظاهرة فنية لها امتيازها الخاص – نضع أيدينا دائما على الموضوع الرئيسى والمثير الذى يدور فيه أدب الكاتب وشعره ٠

وبالنسبة لاهتمامى الشخصى بهذا البحث فانه يرجع الى عهد بعيد يقرب من عشرين عاما حينما كنت طالبا فى الدراسات العليا ، وربما أتاح لى ذلك أن أقرأ كل ما كتب المازنى من نثر أو شعر ، وأن أتابع ما ينشر عنه من أبحاث أو مقالات ، وأن أعايش هذه الظاهرة الفريدة وأصادقها ، وأقوى صلتى بها ، وألاحظ أبعادها الخاصة ، والمعين الواسع العميق الذى كانت ترتوى منه فى أدبنا العربى وفى الآداب الأخرى مما كان يتاح لى التعرف عليه ٠

وكان من نتائج ذلك أن اكتسب البحث النظرة الشاملة والتفصيلية معا ، واستفاد من المعاودة والمراجعة من آن لآخر ، واتسع لأن يجمع بين الأسلوب العلمى للبحث وبين التناول الحر الذى يسمح للكاتب أن يتحرر قليلا من سلطان الموضوع عليه وينطلق فى بعض الأحيان ليقول ما يراه ٠

ومن الحق أن أتحدث عن المتعة الكبيرة التى أحسستها دائما وأنا مشغول بهذا البحث أو وأنا أعاود النظر فيه لأضيف بعض الأفكار ، فكم كان يسعدنى أن أراجع المواقف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المختلفة التى دار حولها البحث ، وأتأملها من جديد ، وكنت أتخيل المازنى معى بروحه وطابعه حتى فى الفصول التمهيدية التى لا تدور أصلا حول شخصيته أو أدبه .

عناصر البحث

تحددت فى ذهنى منذ البداية عناصر ثلاثة تجمع أطراف البحث وتكون مادته الرئيسية :

الأول : السخرية نفسها ، ماذا تعنى ، وما خصائصها ، وما مكانها من الفكاهة بوجه عام ، وأساليبها ؟ وقد استدعى ذلك الرجوع الى الدلالات اللغوية والنفسية للكلمة واستعراض صورها المختلفة فى أدبنا العربى .

العنصر الثانى : السخرية فى مصر وبواعثها التاريخية والطبيعية على أساس أن الشعب المصرى شعب مرح وساخر ، وأن المازنى يمثل شخصية الشعب فى تفاعله مع الحياة واستجابته الساخرة للمؤثرات . والتاريخ المصرى حافل بالأحداث السياسية والظواهر الاجتماعية البارزة التى يمكن أن نجد لها صلات وثيقة بما لدينا من صور ساخرة فى مختلف العصور .

وهى تكون لدينا تراثا يؤثر فى أدبنا بالقدر الذى يترك انطباعات على شخصياتنا كمصريين وعلى شخصيات الأدباء بصفة خاصة ، ومن أبرزهم المازنى .

العنصر الثالث : سخرية المازنى ، وهو نقطة الارتكاز الرئيسية ، وموضوع البحث ، وعلى أساسها نقيم دراسة شاملة لشخصية المازنى وأدبه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد حاولنا أن نلقى نظرة على حياته وعلى انتاجه الأدبى المتنـوع لنتأكد من أصـالة السخرية عنـده ، ونتعرف على بواعثها من نفسه ومن ظروف البيئة المحيطة ، وكان كل شيء فيه يغرينـا بالبحث ويؤكد أهميتـه ، ويساعد على ابراز القيمة الحقيقية لأسلوبه السـاخر والآثار التى أضفاها على أدبه بصفة عامة ٠

وكان التركيز فى البداية على مقالات المازنى وقصصه وكتاباته النثرية عمـوما ، وربما كان السبب فى ذلك أن شهرته ككاتب تسبق شهرته شاعرا ، أو أن انتاجه فى معظمه نثرى ، واشـتغاله بالصحافة جعله يخصص وقته واهتمامه للنثر ، وللمقـالة بصفة خاصـة ومجرد اهتمـام البـاحث بالسخرية فى أدب ما يصرف الذهن غالبا الى النثر لطواعيته أكثر لهذا الفن واتساع آفاقه لمختلف الموضوعات الاجتماعية التى يهتم بها العقل الناقد ؛ اذ أن السخرية نوع من النقد أو هى فى حقيقتها نزعة نقدية ٠

ودراسة كهذه تحتاج الى نظرة مقارنة فى مجالها تقدم ايضاحات مساعدة للبحث عموما وتنوع الصور أمام القارىء ، وخصوصا اذا أتيح لنا أن نتعرف على بعض الشخصيات التى قدمت للأدب صورا ساخرة تعلق على جوانب الحياة المختلفة فى عصرهم ٠

ولكن الدراسة لا تكتمل الا اذا كان انتاج الأديب كله فى متناول اليد ، فأفردنا للشعر قسما خاصا من البحث يعرضه فى نفس الاطار ، ويلاحظ ما يتميز به من خواص ، وما يلتقى فيه مع النثر أو يفترق ٠٠

ونرجو أن تكون النتائج التى وصلنا اليها من هذه الدراسة قد أضافت شيئا ، أو تساعد على فهم جديد لسخرية الأديب .

٢

لا أحب أن أختم هذه المقدمة قبل أن أشير الى خاطر عنيد راودنى أثناء الدراسة وان كان عابرا ، ولكنه ملح ، ورغم أنه قد يشتت الذهن قليلا الا أنه لصلته الوثيقة بالبحث قد يكون ضروريا أن أذكره ، وقد يرجى من ذكره أن يزيل ملابسات حول البحث تعيد الصورة فى النهاية الى طبيعتها الأدبية الخالصة وتلم أطرافها .

وقد يكون ذكر هذا الخاطر أجدى من الاسترسال فى التمهيد له ، وبمناسبة أنه سيريحنى من عناء البحث فى جدوى الاشارة اليه ، ويغلب جانب الاهتمام به على اهماله ، تقديرا للقارىء من ناحية ، وارضاء لحرية البحث من ناحية أخرى .

ذلك أن الحديث عن السخرية فى الأدب قد يصرف ذهن القارىء الى موضوع السخرية عموما ومن وجهة نظر الدين اليه ، اذ تضمن القرآن الكريم توجيها صريحا الى المؤمنين بألا يسخر بعضهم من بعض فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » ..

(الحجرات ١١)

والآية على هذه الصورة تنهى عن السخرية نهيا مباشرا . ولكن النظرة المتأنية اليها يمكن أن تلاحظ أن السخرية المقصودة هى ذات الطابع الجماعى الذى يهدم المجتمع

الاسلامى ويزعزع وحدته ، وهى السخرية التى تسيطر عليها دوافع خبيثة بهدف الاساءة الى الغير وهى عادة تكون محملة بالحقد والكراهية ، أما السخرية الأدبية التى نحن بصدد دراستها فهى أسلوب نقدى له ميزاته الفنية ، ويعتبر فى واقعه بناء للحياة وحارسا للمثل العليا ٠

وقد يتعمد الأسلوب الأدبى الساخر أحيانا أن يوقع بعض الأشخاص أو الجماعات أو بعض الأنظمة السياسية والاجتماعية فى حرج مقصود ، ولكن ليدفع بذلك حرجا أكبر عن الجماهير ويرد خطرا قائما على المجتمع أو متوقعا ، مما يعتبر عملا انسانيا شريفا وساميا ، ويمثل بذلك الرأى العام للأمة فى حدود ما تسمح به ظروف مرحلة من مراحل النضال الوطنى ٠

وغالبا ما نجد صورا عديدة للسخرية — فى مثل هذه الحالات — تنتشر على نطاق واسع وتغشى مجالس الخاصة والعامة ، وتنفذ الى أجهزة الرأى والثقافة من شخصيات أو كتب أو صحف وغيرها ، ولا نتصور أن هذه الأساليب تدخل ضمن ما هو منهى عنه بمنطوق الآية الكريمة ٠

ولقد حاولنا أن نستزيد الآية الكريمة وضوحا ، أو نستزيد فهما للمقصود منها عن طريق البحث فى الآيات المشابهة أى التى وردت فيها احدى صور السخرية ، فتبين لنا أن الصور كلها ترمز الى عدوان الكفر على الايمان والشر على الخير ٠

ويمكن أن نصنفها الى النماذج الأربعة التالية :

١ — سخرية الكافرين من أنبيائهم المرسلين اليهم بدافع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحقـد والعناد ، والتشبث بالباطل ، والعمل على تشـويه صورة الرسول حتى لا تنتشر دعوته ولا يقبل عليه الناس ، وحتى يشغلوه بأمر نفسه عن أمور دعوته .

تصور ذلك آية كريمة تحـكى موقف نوح عليه السلام وهو يستعد للطوفان ، وينفذ أمر ربه فى ثقة وحكمة خفى أمرها على قومه : « ويصـنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » ..
(هود ٣٨ ، ٣٩)

وهذا مثل من كثير أجملته الآية الكريمـة فى خطابها للرسول الكريم ، لتبين له أن ما تعرض له من استهزاء وسخر ومضايقات من قومه هو صـورة لما حـدث لاخوته الأنبياء والرسل من قبله ، وهو حلقة فى سلسلة الجهاد الطويل الشاق الذى قامت به الديانات العظيمة ضد باطل الانسان ، يقول الله تعالى فى مخاطبة رسولنا الكريم : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .
(الأنعـام ١٠)

وواضح أن الآيتين الكريمتين قابلتا السخرية بسخرية مثلها ، ولا شـك أن احداهما لا تدخل فى السـخرية المنهى عنها ، لأنهـا رد على الباطل بالحق ، ولأنها شريفة الباعث وهادفة ، وكانت نوعا من التـوعد للسـاخرين من أجـل الباطل .

ولقد انتهى أمرهم بالهزيمة ، ولم يحقق سلاحهم غرضه، وكان من أسلحة النصر سلاح السخرية كما تبين ، ويعتبر ذكر العذاب فى الآية الأولى وارتداد الموقف على أصحابه فى

الآية الثانية ابرازا لهم فى صورة أولى بها أن تكون موضعا للسخرية والاستهزاء •

٢ ـ سخرية الكافرين من المؤمنين ، فى قوله تعالى : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب » •• (البقرة ٢١٢)

السخرية هنا ممن يجهل حقيقة أمره ، ويظن نفسه أرقى من غيره ، وهو مغرور موهوم لأن هذا الغير خير منه وأفضل وأحسن عاقبة ، وان لم يكن حظه فى الدنيا سعيدا ، لأن حياة أغنى وأبقى فى انتظاره يوم القيامة ، ولأن منزلته فى الآخرة فوق هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا وزينت لهم ما هم فيه فاستحبوا العمى على الهدى ، فليست سعة رزقهم دليلا على تفوقهم وعلو شأنهم ، لأن الرزق لا يرتبط بصلاح الانسان أو فساده ، ولا يحسب لذلك حسابا •

٣ ـ سخرية الكافرين (أيضا) من آيات الله تعالى فى قوله : « بل عجبت ويسخرون واذا ذكروا لا يذكرون ، واذا رأوا آية يستسخرون » •• (الصافات ١٢ ، ١٣ ، ١٤)

الساخرون هنا قوم مغلقو الفكر لا يتذكرون ولا يستجيبون لصوت الهداية ، معاندون ، يواجهون ضعفهم أمام آيات الله بالسخرية منها ، يخشون ان لم يسخروا أن ينهاروا ويستسلموا كهؤلاء الذين كان يسحرهم القرآن ، ويملك ألبابهم ، ولكنهم يهربون من صوت الايمان ويخشونه ، ويعودون الى جحودهم وعنادهم ••• صورة من صور الضعف الانسانى ينفر القرآن منها ، لأن الانسان السوى لا يكابر الحق ولا يعانده •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ سخرية المنافقين الذين يدعون الايمان ويسلكون أنفسهم فى صفوف المؤمنين الخيرين ولكنهم يسخرون من المتطوعين فى سبيل الخير ، يكشفون ذلك بأنفسهم ويسجلون عليها حقيقتها ، ويؤكدون أن الانسان لا يستطيع أن يخفى نفسه مهما ادعى ولبس رداء غيره .

يقول الله تعالى عن هؤلاء : « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » .. (التوبة ٧٩)

لذلك كان جزاؤهم من نوع ذنبهم سخرية الله منهم ، وشتان بين السخريتين ، ولا وجه للمقارنة هنا بين سخرية تافهة حاقدة وبين سخرية خيرة مدافعة عن الحق والخير .

لذلك فاننا لا نعتبر السخرية على عمومها تقع فى دائرة التحريم والا لما أسندها الله الى ذاته فى الآيات الكريمة بل ان اسنادها الى ذاته يعطى الاباحة على اطلاقها فى اطار الخدمة العامة والتوجيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى القرآن الكريم صور مشابهة لبعض الصفات التى لا يمنعها الدين على اطلاقها ، بل يجيزها فى مواقف الدفاع عن الدين وعن الحق ، فى مثل قوله تعالى « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ، فاسناد المكر الى الله تعالى يخرجه عن دائرة التحريم « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » .

بهذا العرض الذى أراه سريعا رغم ما يبدو من استفاضته ، أرجو أن أكون أوضحت رأيى فى التعريف المبدئى بالسخرية الأدبية التى نحن بصدد الحديث عنها وفصلتها عن السخرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الممنوعة ، وقارنت بين السخرية ذات الطابع الفنى العالى وبين غيرها مما يعتبر مرضا اجتماعيا تعمل السخرية فى الواقع على تطهير المجتمع منه ومن أمثاله من التناقضات ٠

المؤلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

السخرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السخرية

أولا ينبغى أن نعرف السخرية التى نحن بصدد الحديث عنها ، ما هى ؟ ما خصائصها ؟ ما أساليبها ؟ ما بواعثها ؟

لقد كانت السخرية وما زالت من العناصر التى تلفت نظر الباحثين والنقاد فى الأساليب الأدبية لبعض الكتاب . فاذا أريد وصف أديب بما يعنى خفة الظل ، وبقربه الى نفوس القراء قيل عنه انه يستخدم السخرية فى كتاباته ، أو هو أديب ساخر ، وقد يوصف الأسلوب بأنه أسلوب ساخر ، أو العبارة بقولنا : عبارة ساخرة .

هل هى نوع من الفكاهة ؟ أو هى الفكاهة ذاتها ، أو هى الفكاهة حين لا تكون على اطلاقها ، وحين لا تكون لمجرد الفكاهة والتسلية بقصد شغل الفراغ أو تمضية الوقت ؟

لا شك أن السخرية اذا قصد بها هذا النوع من الفكاهة المجردة كانت أشبه بالعبث والهزل ، والأدب لا يكون هزلا .

واذا وقفت السخرية عند حد التسلية الفارغة كمادة لشغل الوقت الضائع كانت مضيعة أكثر ، والأدب من هذا

النوع لا يثير اهتمام القراء والباحثين ، ولا يحظى بأى تقدير ٠

اننا نحس من الاستعمال العام للكلمة قبل أن نبحث فى مادتها أنها ظاهرة خفيفة الظل ، سهلة الوقع جذابة ، فضفاضة ، تشيع السحر فى الأسلوب الأدبى ، وتتخلله كالحياة نفسها وهى تسرى فى الكائن الحى ٠

انها ترقى بالفكاهة الى المستوى الأكثر ذكاء ولباقة ، فتجعل لها معنى ، وتعطيها قدرة خاصة على أن يكون لها هدف ، وأن تخدم هذا الهدف ، وأن تحتال لتحقيقه ، وأن تكون لها امكانية التأثير وهى لذلك تتخذ مادتها من العيوب والنقائص التى لا تطيق لها وجودا ، ولا ترضى بأن تتركها تعيش فى سلام وأمان ، دون أن تدق عليها دقا خفيفا أو ثقيلا ، حتى تنبه اليها أو تنبه فيها عوامل المقاومة وتثير الرغبة فى الانتصار عليها ٠

لذلك يمكننا أن نتصور السخرية وهى تعنى الضحك والاستهزاء والتهكم وهو الاستخفاف بالشىء والعبث الهادف به ٠

انها تثير الضحك فى هزل أو غير هزل ، لأنها كثيرا ما توحى الجدية رغم ظاهرها الضاحك ــ فتوجه اهتماما خاصا الى عيب ما ، تجسم هذا العيب ، وتبالغ فيه ، وتسعى الى ابرازه بوسائل عديدة ٠

وهى نوع من الضحك الكلامى أو التصويرى الذى يعتمد على العبارة البسيطة ، أو على الصورة الكلامية مع التركيز على النقاط المثيرة فيها ٠ وتحاول السخرية أن تتخلص من

الانفعال فى الظاهر ، فتبدو كأنها لا تنبعث عن عاطفة ما عند قائلها لأنها تخاطب العقل ، وتسعى الى أن يكون الجو حولها مشبعا بالادراك والوعى ، حتى تستطيع أن تثير الضحك السريع ، لتسلط ضوءا أكثر سرعة على الأشياء التى لا تناسب الحياة ، والتى يمكن أن نصفها بأنها لا تليق بالفرد أو الجماعة ، وهى عندما تسلط هذا الضوء السريع تخدم فكرة عميقة ، ولكنها تريد لها أن تكون عابرة ، حتى يمضى كل شىء فى خفة ونشاط .

والسخرية كفكاهة تعتبر أرقى أنواع الفكاهة ، لأنها تحتاج الى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر . ولذلك اتخذ منها الفلاسفة والأدباء أداة يستخدمونها فى دقة لبيان رأيهم فى الخرافات السائدة أو المذاهب التى يختلفون معها ويهزءون بها . كما لجأ اليها رجال السياسة فى التندر بخصومهم ، وما يمثلون من أفكار أو مبادىء ، وهى فى هذه الحالة تكون أشبه باللذع الخالص الذى يكون جارحا أحيانا . ومن هذا اللون ما نطلق عليه التهكم ، وقد يكون الهجاء مع فظاظته وخشونته نوعا من السخرية ، وعلى الرغم مما يبعثه أحيانا فى نفس المهجو من الضيق والألم فانه يثير الضحك عن طريق ابراز العيوب وتجسيمها والمبالغة فى تصويرها الى الدرجة التى تجعل المهجو غير ملائم للصورة الطبيعية التى يجب أن يكون عليها الكائن .

وقد تكون السخرية نادرة أو خبرا موحيا فى مناسبته ، أو أقصوصة صغيرة ترمز الى عيب من العيوب أو تصوره سواء كان منصبا على فرد أو طائفة أو عادة اجتماعية معينة ، أو ظاهرة خلقية ثابتة أو طارئة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد لا تعتمد السخرية على الكلمة بل تعتمد على ألوان وخطوط وظلال وأضواء كما في فن الرسم الساخر (الكاريكاتير) الذى عرفته الصحافة وآمنت بجدواه ، ولا تكاد تخلو صحيفة منه وهو ليس جديدا علينا في الواقع فقد كان لنا منه حظ كبير في العصور القديمة ، وفي الفن السكندرى على وجه الخصوص ،وانتشر في أوروبا في القرنين الأخيرين (١) ، ونقلناه عنها بعد ذلك ـ كما نقلنا عنها كثيرا من ألوان الأدب والفن ، التي كانت قد أخذتها عنا من قبل ٠

والكاريكاتير يقوم على تكبير جوانب الضعف أو القبح في شيء ما فيبالغ فيها بقصد استغلال الطبيعة في بيان عنصر التشويه فتكون باعثا على الضحك في الوقت الذى تؤدى فيه غرضا اجتماعيا وانسانيا عظيما ٠ وقد تطور فن الرسم هذا تطورا كبيرا اليوم بفضل تطور الفنون نفسها وتطور الانسان نفسه في تناول الأمور ومناقشتها والاستفادة من الأحداث ٠

وتكون السخرية كذلك اشارة دالة على معنى أو حركة غامزة ، لا يخفى مدلولها ولها مناسباتها الداعية لها ، ويستخدمها المسرح التمثيلى كفن ساخر قائم بذاته أو كعامل مساعد يؤكد الفكرة ويدعمها ٠

وتثير السخرية بالكلام وطريقة تركيبه ضحكا أو ابتساما كما تثير ذلك بالألوان والصور والرسوم والحركات وحين تسخر فانما تصور وتنقد تصلبا شاذا ، أو ذهولا عن الحياة وما فيها من نظم وأساليب ، أو تنافرا مع قوانين الطبيعة ، وتبرزه بطريقة خاصة كاللعب بالألفاظ ، أو

المبالغة ، أو المقارنة بين عامل ما ونتيجة له لم تكن متوقعة أو غير ذلك ، وحين نسخر بهذه الطريقة الفكهة التى نجدها كثيرا عند المصريين ، فاننا بذلك نرسم صورة مضحكة فيها لذع ، وفيها تهكم شديد أو ضعيف .

يتعين اذن أن تكون الصورة التى نرسمها مشتملة على كل الشروط الأساسية والأمور الجوهرية التى تتوفر فى الشىء المضحك ، كأن تكون الصورة انسانية وسريعة الحركة ، واضحة التقاطيع ، لا تبدو متراكبة أو متداخلة ، ومهما يكن عمق دلالتها تظل قريبة الى السطح ، ولا يجب أن تثير العواطف الكامنة ، انما تتجه الى العقل مباشرة لأن مصدرها الذكاء والحس المرهف والادراك الحاد ، فلا تحس مشاعر الشفقة أو الحب أو العطف أو الحزن واذا مستها فبرفق ومن غير تركيز ، على أن الأمثل أن تبتعد عنها ما استطاعت الى ذلك سبيلا . لأنها ان قصدت الى هذه المشاعر أو مستها . فستولد فى النفس تأثيرات عميقة تتفاعل مع ما فيها من عواطف وانفعالات ، وقد توقظ ذكريات بعيدة ، بعضها يكون أليما أو محزنا ، وبحكم المشاركة الوجدانية والتجاوب النفسى سيتحول الانسان الى حالة شعورية معينة قد لا تتفق مع الجو الذى تقصد السخرية أن تشيعه ، فلا تستجيب للضحك الذى تثيره ولا تبدى ادراكا واعيا باللفتة التى تنبه اليها .

واذا لجأ الساخر الى النكتة فعليه أن يوقف كل صراع بين أفكاره وعواطفه ، ولا يشعر الا بعقله وحده — ان صح هذا التعبير — ليستطيع فى حدود النكتة — أن يصور المشاهد الهزلية فى سرعة وخفاء بحيث ينتهى كل شىء فورا فلا تكون

المسافة بين البداية والنهاية كبيرة ، ولا تزدحم بالتناقضات ، وبحيث لا يقع فى فخ الانسياق وراء الهزل الفارغ ، ولا يزحم عقل القارىء أو السامع فى نفس الوقت بما يفقد النكتة أثرها المطلوب •

ولكننا قد نجد أحيانا سخرية غير مشبعة بجو الضحك، وجانب المرح فيها خفيف وهادىء ، ونستطيع أن نستشف منها أن الكاتب لا يعمد الى النكتة ولا يريد الاضحاك ، وأنه فى نفس الوقت ربما يعانى احساسا بالمرارة لم يتوقف به عند حافة الحزن ، والألم ، ولكنه ثار عليه ، وتعالى على السكينة تحت ضغطه ، وأخذ يصوغه فى ثوب جديد ، قد يكون رمزيا وقد يكون صريحا ، يحمل كل مظاهر الاستخفاف والتعالى الساخر الذى يعنى الانتصار على الأحداث ، أو تخطى الحواجز التى قد يعجز عن تخطيها الآخرون ، والقارىء يرى نفسه مستجيبا للكاتب متوافقا معه ، متعاطفا مع ما يثيره فى الأفكار وبين السطور وقد يكتسب الكاتب هنا مستوى معينا من تقدير القارىء وانجذابه واحساسه بالموقف بكل أبعاده • ومن هذا النوع سخرية المازنى من الدنيا واستخفافه بها ، وعدم تقديره لها « لانت أو قست ، ضحكت أو عبست » ، هذا النوع من السخرية لا يجرده من روح الفكاهة ، وان لم يضحك ، حتى وان لم يبعث أحيانا على الابتسام ، لأن طابع الاستخفاف واضح فيه ، مؤثر عليه ، ولكن فى أسلوب لا يخفى الجبرية التى تكمن وراءه ، وتدفعه كما لو كان فى عصبية •

هذا الاستخفاف ، وما يصاحبه من احساس بالمرارة أو الحزن أحيانا يقومان فى صياغة السخرية مقام أشد الضحكات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقعا ، ولولا هــذا لكانت السخرية مضحكة . فهى سخرية فعلا رغم جديتها ، ورغم ما تنبىء عنه أحيانا من أن الكاتب لم يتجرد كلية من عواطفه لأنه لم يتجرد فى الواقع من ذاته .

وليس فى الأمــر ما يوقعنــا فى توهم التنــاقض ، لأن المسألة تتعلق بنوع خاص من الســخرية صادر من أعماق النفس المتألمة ، فالكاتب وهو يتناول مصادر الألم أو أشباهها أو مثيراتها لم يتغلب على ألمه بعد ، ولعله ما زال فى صراع معه وأحد ألوان الصراع هو السخرية ، التى تتفق — فى خفة وقعها وسلاسة دخولها الى النفس ومنهج تكوينها — مع الفكاهة ، وان كانت غير مضحكة .

ربما كان هذا النوع من السخرية منبعثا أصلا من رغبة التعبير عن النفس ، ومناقشتها فى نفس الضوء الذى تسطع فيه الفكاهة الساخرة وجوها العام ، ولا يقلل هذا من أن يكون الباعث العام أيضا هو الرغبة فى الاصلاح وهو تطهير الحياة والمجتمع .

حتى لو كانت الرغبة من قبيل التمنى ، وشبيهة بالدعاء . ان هذا الباعث الايجابى والانسانى واقع أساسى للسخرية بكل أنواعها ، ولذلك فقد ســوى « أناتول فرانس » بين التهكم — وهو من صورها — وبين الشفقة — والتى نعتبرها عاطفة انسانية محضة — باعتبار أن كلا منها يخدم المجتمع ، ويتوجه أصلا اليه ، ويعتقد أنه يحبب الينا الحياة بابتسامته كما تقدر الشفقة الحياة بدموعها ، وهو الوسيلة للسخرية من الحمقى والأشرار ، هذه السخرية التى تخفف من غيظنا منهم وتحد من كراهيتنا لهم .

ومن الواضح أن التهكم بهذه الصورة أخف من التأنيب واللوم والتقريع ، وان كان أفعل فى تحقيق الغرض الانسانى منها لأن هذه الأخيرة تشعر بالاهانة التى يتجاوزها التهكم بطابعه المرح الانسيابى الخفيف حتى وان بدا فى بعض الأحيان قاسيا ، لأنه بمرحه ، وبما يثيره من الضحك غالبا يخفف من أثر الشعور بالقسوة على نفس المتلقى ، وهو ما يقصد اليه الأسلوب الساخر عادة ويتميز به (٢) .

وقد تكون الدعابة أحيانا من السخرية ، حيث يسرى بها عن النفس ويجلب بها السرور ، وتتخذ مادتها من نقاط الضعف فى الأصدقاء ، ومن الصفات الشائعة عنهم ، والبارزة فيهم ، أو فى مسقط رأسهم أو جماعتهم ، وهى لا تعنى اهانة ولا ايلاما ، وقد تكون بسيطة جدا فلا يكون وراءها دافع ملح ، ولا باعث شديد ولا تجرى وراء هدف مبلور يتعلق بالشخصية نفسها ، وان كانت لا تخلو من تأثير معين بهذه المادة التى أسهمت فى خلقها وتعطى الى جانب الرغبة فى التسلية ايماء بالمنطق العام الذى يسود الفكر أو النموذج المثالى الذى يتطلع اليه الانسان جادا أو هازلا أو مازحا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لماذا نسخر ؟

اننا نعيش واقعنا ، وندركه على ما هو عليه ، وعلى النحو الذى استطاعت نفوسنا أن تتأثر به ، ومهما كان اختلافنا في طبيعة ودرجة هذا الادراك ، فان كل واحد منا يتمتع بقدر منه ، يمكنه أن يكون عنده رصيدا للحياة ماضيها وحاضرها ، وعلى أساس هذا الرصيد نستطيع أن نلمح المستقبل ونحس ظروفه ولو كان فى غموض ٠

ان فى نفوسنا ــ على نحو ما تعمل العقول الحاسبة ــ أساسا من الخبرات والتجارب ، وقد ترك تعاملنا مع الأحداث خيوطا فى أعماقنا تزداد مع الأيام تعقيدا ، وكأن كل واحد قد أصبح بصورة ما انعكاسا للحياة كما هى فى الواقع ، بالاضافة الى النتيجة الخاصة التى يصل اليها من تفاعله هو بمكوناته ومواهبه مع حياته الواسعة ٠

وربما كان هذا هو مصدر حساسيتنا نحو الحياة ، وسرعة ادراكنا لتطورات الواقع ، بحيث نستطيع أن نلمح مدى انسجام ظاهرة ما مع هذا الواقع أو عدم انسجامها ٠

ان هذا يصدق على كل شىء يعترى الواقع أو يجد عليه ، مقاييس الجمال ، صور من الفن ، مناظر طبيعية أو صناعية ،

شخصية لها صلة بالسياسة أو المجتمع أو الفن ، الشكل أو السلوك الانسانى ، الملابس وتوافقها أو عدم توافقها مع الشكل أو العمل أو الزمن •

كل ما يتعرض له الواقع أو كل مكوناته اليومية أصبح يمس أوتارا معينة فى نفوسنا حساسة ، وشديدة الحساسية، وعاقلة جدا ولديها امكانية التأثر والاضطراب لأدق الخواطر وأقلها تأثيرا ، وأرهفها فى جانب الايجاب أو السلب •

ان الانسان بما أصبح له من امكانيات كبيرة على فهم الواقع أو التنبؤ له ، وبما اكتسب من حب لهذا الواقع وحرص عليه ، ليس كما هو بطريقة عشوائية ، وكيفما يكون ، ولكن فى الصورة التى ترضى وتنفع ولا تشكل عبئا على الناس ، ان الانسان بكل هذا لا يريد أن يترك الواقع تحت رحمة عوامل التشويه أو العبث فتحيله الى مصدر لعذاب الانسان أو ألمه أو ضيقه •

ولهذا فكلما قويت صلة الانسان بالواقع كان أقدر على الاحساس به ، وأحرص عليه ، وأشد اهتماما بأن يكون منسجما ومقبولا •

فكل شىء يمس هذا الواقع ، ويعاكسه يصبح فى نظر الانسان هدفا للحرب أو المقاومة ، وعلى قدر خطورة هذا الشىء من ناحية وقدرة الانسان من ناحية أخرى يكون أسلوبه فى المقاومة ، فقد يكون حربا طاحنة تقدم فيها الأرواح نفسها فى سبيل المحافظة على الحياة فى جوهرها ، وقد يكون صراعا طويلا مريرا يقضى على عوامل التخريب للواقع ، ويصان من الدمار ، ولكن بوسائل لا يكون العنف المادى أحد أسلحتها •

وقد لا يصل الأمر الى هذا الحد فتعالجه طبيعة الانسان الفنيـة ، بوسائلها الرقيقة الهـادئة التى تستخدم الذكاء الانسانى الموروث فى تحقيق أهدافها ٠

ومن هنا نبدأ الاجابة ، ومن هنا نضع أيدينا على أول الطريق ، فاننا بهـذه الانسـانية ، وبوحى هـذا الرصيد نستخدم أسلوب السخرية فى الحفاظ على الواقع الذى طالت صحبتنا له وتعلقنا به ٠

لذلك فاننا حين نسخر نقابل بين الواقع باعتبار ما فيه من نقص عرفناه بطول الصحبة أو وقعنا عليه فى حينه ، وبين صورة الكمال التى تمثلناها من ممارستنا الطويلة ، والتى نعتبرها أسمى الحالات لما ينبغى أن يكون عليه هذا الواقع ٠

وقد لا تكون صورة الكمال هذه واضحة فى الذهن محددة فى الخيـال ، ولكن الأديب يحسها فينقلها الى القـارىء أو السامع كما هى ليتيح له أن يحسها كما أحسها ، والشىء فى حد ذاته ومنفصلا عن غيره لا يثير فى النفس نفورا أو تقززا ولكنه يملك القـدرة على الاثارة اذا قيس الى المثل العليـا وقورن بها ٠

ومما يثير السـخرية ما يبـدو فى الحيـاة أحيانا من مفارقات ، وهى مع الأسف كثيرة ، ومتنوعة ، نراها فى كل يوم ، ونتأثر بها ، ونحس نحوها بمشاعر خاصة ، وكثيرا ما نقابلها بتصرفات أو حركات أو عبارات هى من السخرية أو رمز لها ، وحياتنا اليومية مليئة بهذه التناقضات ، حين نرى نتائج الأفعال على غير هوى مقدماتها ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قرأت منذ سنوات فى احدى القصص المنشورة فى الصحف على ما أذكر حادثة ملفتة وقف بصرى عندها ، ورأيت فيها مثالا لهذا اللون من التناقض ، وأعتقد أنه نشر فى هذا السياق أيضا ، وخلاصته أن سيدة تستدعى أحد الكوالين ليصلح لها قفل البـــاب ، فيبذل الرجل محـــاولات مضـــنية ليحفظ لها الباب سليما ، ودون أن يضطر الى كسره وتشويه منظره ، ويتكلف كثيرا من العناء والجهد ليدخل الشقة المقفلة من شباك المنور ، ويتعرض فى سبيل ذلك للخطر ، وكان من الطبيعى أن تكون النتيجة ثناء عليه وتقديرا لجهده وزيادة فى أجره • ولكن الســيدة بدلا من ذلك تشك فى ذكائه ، وترتاب فى أمره وتفترض أنه يمكن أن يكون لصا •

وأمثال هذا الموقف كثيرة ، وبعضها يثير الدهشة لغرابته وشدة مجانبته لمنطق التعامل الانسانى ، وقد يقع لأحدنا أن يصنع معروفا فى شخص ما وقد يكون قريبا أو صديقا وقد لا يكون العمل مصحوبا بانتظار نوع من رد الفعل يحل محل الأجر ، وحتى الشكر قد لا يكون محسوبا لقوة العلاقة بين الاثنين ، ولكن يحدث ما لم يكن متوقعا ، وما لم يخطر على البال ، اذ تأتى النتيجة أشبه بالتنكر للعمل والتمرد عليه ، عند ذلك تتنبه أحاسيس المقارنة بين العمل وبين نتيجته وبين ما كان يجب أن يكون ، فيبدو الموقف مثيرا للسخرية لانه عجز عن التوافق مع الخصال الانسانية المعقولة أو مع المثل العليا •

وكثيرا ما نعلق الآمال على احدى الشخصيات نرى فيها أهلا لتحمل مسئوليات معينة سواء كانت عامة أو خاصـــة ، وفى سبيل ذلك نمنحها الثقـــة التى تدعم موقفها وتناسب آمالنا ، ثم بعد مضى وقت نفاجأ بأن هذه الشخصية أبعـــد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما تكون عن مستوى المسئولية ، وآخر من يحرص عليهـا ، كأنما هى فى حقيقتها على النقيض من قوة الأمل التى علقت بها ، وعلى الوجه الآخر المقابل للثقة ٠

لو أننا استسلمنا لهول المفاجأة لكانت النتيجة خطيرة ، ويمكن أن تقضى على ثقتنا فى الآخرين ، لذلك تشعر النفوس بحاجتها الى أن تتعالى على الموقف وأن تستخف به ، وكأنها بذلك تنزل الشخصية التى خيبت آمالها الى مكانها الطبيعى ، وتعدل عن موقفها الأول وتحاول أن تمحوه ، وتتجاهل وجوده كأنه لم يكن ، وقد تتصالح مع النتيجة كأنها جاءت منطقية بالنسبة الى صاحبها ، وهكذا تصبح هـذه الشخصية مثارا لأساليب السـخرية بكل أنواعها وتندرات فى كل مكان على المستوى الضيق الخاص أو على المسـتوى الجماهيرى بحسب ظروف الموقف وبيئته وحجم البيئة ومستواها ٠

ومن هذا النوع ما نسمعه كثيرا من تندرات على بعض الطوائف التى تفرض مهنتها أسـلوبا معينا من السـلوك ، وتتطلب عادات أو أخلاقا ذات صفات خاصة ، ثم لا يلتزم أحد أفراد هذه الطوائف بما يوجبه الانتماء الى طائفته ٠

والمجتمع من هذه الناحية يقظ ومتنبه الى حـد القسوة أحيانا ، حتى أنه صاغ من القصص الساخرة ما أخذت شكل المثل السائر ، وأصبحت معروفة لدى الجماهير تحمل شحنات من الماضى ، وتذكر من يتصل بهم الأمر حتى لا يقعوا تحت طائلة المثل ٠

كما سمعنا عن رجل الدين الذى لا تدل أقواله وأفعاله على الانصاف والاتزان بل على موقف مهتز من الحق والعدل٠ فانه لا يلتزم بهمـا اذا كانا ضـد مصلحته أو اذا كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مراعاتهما تحمله بعض العبء فاذا كان الأمر خارج دائرته بدا متشددا الى حد المبالغة (٣) ٠

وقد يصل المجتمع الى أقصى من ذلك فيحمل الطائفة أحيانا وزر الفرد من غير أن تكون هناك علاقة ما بين العمل الفردى وبين متطلبات الجماعة التى ينتمى اليها ٠

ومن هنا نشأت الرغبة لدى الجماعات فى أن يتحلى أفرادها ما استطاعوا بالأخلاق العامة ، وبالمثل العليا للجماعة ٠ حتى لا يسىء انحراف الفرد الى الجماعة وسمعتها ٠

وأشير هنا الى موقف المجتمع من العجوز المتصابية مثلا التى تسرف فى التبرج ، فتخرج بذلك عن العرف العـــام لمثيلاتها الطاعنات فى السن ، رغم عجزها ــ فى نفس الوقت ــ عن الايفاء بالمطالب الجسمية والنفسية والشكلية لزينتها ٠

هناك مفارقات كثيرة نقع عليها فى كل لحظة من حياتنا ، ونعالجها نفســيا بموقف معـــين ، قد يتطور الى شىء خارج الاطار النفسى ، وقد تعبر النفس عن شـــعورها نحـــوه فى صمت ، وقد يبقى بعيدا عن أغوارها كشىء ينبغى أن يقاوم أو يعدل ، وبمرور الزمن تشـــكل هذه المواقف اطارا عاما للسلوك الطبيعى يصبح جزءا من المعرفة الانسانية التلقائية ، بحيث يسهل على الفرد الذى يملك أداة من أدوات التعبير الفنى أن يجـــد المادة جاهزة ، وتحت يده يأخذ منها عندما يريد ، أو عندما تحركه تجربة ما ٠

وقد تثير تناقضات الحياة بعض المرارة ، فتكون السخرية مرة أيضا دون أن تفسد المرارة جوها المألوف ومن هذا النوع بعض مواقف السخرية من النفس ، فانها لا تكون دائمـــا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مشبعة بروح الفكاهة ، وأذكر هنا مثالا من قصة « ميلاد جديد » لشكرى عياد (على ما أظن) على لسان الراوى بطل القصة حين يقول : « ولابد أن أعترف بأن هناك عيونا جميلة ، ولكن هذه العيون قلما تنظر الى ، واذا وقعت على وجهى بطريق المصادفة فهى تنزل عنى بسرعة ، وكأنها تخشى أن يعلق شىء من دائرة منظرى بصفاء بريقها الجميل » .

اننا نسخر من الغير اذا وجدنا فيه مغايرة لطبيعة المجتمع وشذوذا عن واقع الحياة ، فالحياة تحب أن ترى أثرها فى الأحياء ، من نشاط وحيوية ، وحركة ، فاذا وجدت غير ذلك ثارت عليه ، ومن ثورتها السخرية والضحك والتهكم ، يهتدى اليها محبو الحياة الذين يشعرون بمسئولية خاصة نحوها ، والذين اختارتهم ليكونوا حفاظا عليها ، حتى دون أن يدركوا أسرار هذا الاختيار .

وتقصد الحياة عن طريق هؤلاء المفكرين والموهوبين الى انزال نوع من العقاب ، تلطفه الفكاهة ، وتخفف النكتة الساخرة منه ، ولكن الى الحد الذى يضمن قوة الاحساس بالعقاب ، ويمكن له من تحقيق آثاره .

وقد يكون من بين هذه الآثار الخجل ، أو الشعور بقوة النقد وصدق مرماه وسلامة أهدافه ، أو يكون أى شىء . المهم أن تحدث استجابة ما ، واستعداد للتغيير ، وهنا تكون السخرية قد أدت دورها ، وساعدت على العودة الى قانون الحياة الطبيعية والبسيطة والواعية .

والمجتمع يتطلب من أفراده المرونة واليقظة والتجاوب .

وانعدام هذه الصفات يعني أن عضوا من أعضاء المجتمع قد أصيب بالتصلب فلا يستطيع أن ينجح فى مواقف اللين ، ولا يمكنه أن يتكيف مع الأحداث ، أو اعتراه الذهول فتمر الحياة من حوله وهو لا يكاد يعى • وتفوت عليه و بسببه مواقف يفشل في فهمها أو توجيهها بما يحقق حاجاته وحاجات الآخرين • أو يدركه النفور فلا يعرف مواطن الجذب فى حياته ، ويعيش بعيدا عنها كالغريب الضال ، وقد ينفر من نفسه اذا رأى أن النفور يطارده فى كل المواقف •

ان حرص المجتمع على كيانه يثير فيه روح المقاومة والدفاع عن النفس ليرجع الخارجين على قواعد المجتمع الى حظيرته ، وتعود أشخاصا سوية •

فالسخرية محاولة لطيفة مهذبة الغرض منها تطهير الحياة والمجتمع من الظواهر السلبية التى تجانب التطور وتناهض الحركة نحو المستقبل ، فاذا ما وقعت على احدى هذه الظواهر كالبلادة أو الخمول أو الغفلة ، أو كل ما يهدد الحياة بالتوقف أو البطء ، أو كل ما تحس أن فيه اعراضا عن الحياة أو عجزا عن التلاؤم معها ، أخذت نفسها ضده ، وجمعت أسلحتها لتنقض عليه اذا لم يكن بد من أن تكون قاسية معه •

لهذا فان السخرية عمل انسانى محض ، ولا يستطيعها الا الانسان لأنها توأم الضحك ، وان لم تبعث عليه أحيانا ، ونستطيع أن نقول : ان الانسان حيوان ساخر لأن السخرية جماع النطق والضحك والعقل •

وحين يسخر الانسان فهو يستخدم مواهبه الأساسية للحفاظ على المجتمع ومناصرة الحياة ، ويلبى نداء عميقا

آزليا فى نفسه وفى كل حواسه ليبقى على كل ما هو جميل وصادق وبناء • فاذا سخر من غفلة بعض الناس ، فانه يعبر فى نفس الوقت عن محبته لهم ، واهتمامه بأمرهم ، حتى لو اختلط الأمر أحيانا ، وغطت عليه سحابات عارضة وسطحية ، فلم يفهم على حقيقته ، انه يريد أن ينبه الغافل ليتخلص من غفلته ويعود الى رشده وانتباهه لأن هذا أولا فى صالحه ، ولأنه سبيله للتوافق مع النظام الاجتماعى ، والقانون الطبيعى للحياة الذى يستلزم الانتباه والتوتر ، ولا يقبل من الانسان الغفلة والاسترخاء فى كل وقت حتى لو احتاج اليهما أحيانا •

اذا سخر الانسان من مفارقات يراها أمامه ، فانه يأبى على الحياة أن تعود الى الوراء ، أو تقف عن التقدم ، فيتجمد معها الأحياء ، انه يحس بالخطأ الذى يقع فيه التناقض فيواجهه بالضحك عليه والسخرية منه ، ويتخذ من ذلك مادته لنقده ، وقد يكون نقدا لاذعا ، ولكنه بخفته الساخرة قادر على ألا يثير رد فعل مضاد ، فينتصر الانسان على التناقضات ويقضى على الخطأ •

السخرية على هذا النحو عمل ايجابى بناء ، تبعث عليه الحياة ، ودوافعها الكامنة فى ذات الانسان •

والانسان الساخر انسان نشيط وعبقرى ، ومعتز بحياته ، وأخ للأحياء أمثاله ، وهذا الانتماء الواعى يكسبه قوة كبيرة ، وقدرة خلاقة على منح الحياة كل اهتماماته ، وكل امكانياته على النقد والمعارضة والمقاومة والكفاح ، فهو انسان ثورى التكوين فى الواقع ، وان لم يستخدم أسلحة الحرب التقليدية المعروفة ، فان سلاحه الموهبة والقدرة الخلاقة

على مواجهـة النقائض والنقائص ، والتعرف عـلى عناصر الانحراف فيهـا ، وعلى صـياغة الأساليب المناسبة لكشفها وابرازها ووضعها فى الضوء العام لتكون هدفا لأكثر من عين ، ونقطة التقاء كل اهتمام ٠

انه حارس أمين لا تغيب عنه شاردة أو واردة ، ولا تخفى عليه حركة أو همسة لانه يحرس الحياة نفسها ، ويحرسها بحواسه ومواطن ادراكه ، ومواهبه ٠ وسلاحه الخاص الذى هو جزء منه يرد به فى سرعة وخفة ٠ وهو فى بعض صوره الساخرة كأنه « موصل كهربائى » لصدمات الحياة (٤) التى توجهها الى الخارجين عليها أو المتخلفين عن ركبها ٠

وقد يسخر الانسان من نفسـه لينجو من حملة المجتمع عليه ، وذلك حـين يتنبه الى عيب فيه ، أو حـين يشعر أن المجتمع متنبه لهذا العيب ، وقد يسخر من نفسه حين يأتى بعمل يثير ضـحكا أو يبعث الآخـرين على السخرية منه ، فلا يشـاء أن ينتظر حتى يحـدث ذلك بل يبادر بسرعة الى السخرية من نفسه ليمنع نفسـه من أن يكون هدفا للغير ، فكأنه يقول : « بيدى لا بيد عمرو (٥) » وفى نفس الوقت يوحى الى المجتمع بأنه قد تسـامى على عيبـه عن طـريق الاستخفاف به ٠

على أن سخرية الانسان من نفسه بهذا المعنى لا تخرج عن كونها دفاعا عن المجتمع ، عن الصورة المثالية التى يجب أن تتحقق له دائما ، وأى مخالفة لها حتى لو كان الشخص نفسه هو المسئول عنها بارادته أو رغم تلك الارادة ، فانها يجب أن تكون هدفا للسخرية وموضوعا لها ٠ فحين يقارن الانسان بين واقعه وبين هـذه الصـورة ، ويرى فى واقعه

خروجا على النموذج السوى فانه لا يتردد في اعتباره تناقضا ولا يحاول أن يخفى أو يكابر ، أو يغالط لانه حريص على الحياة فى صورتها المثلى قبل كل شىء ، ومتعلق بهذه الصورة لايمنعه من ذلك أن يكون لديه عائق لها ، بل ربما زاده هذا العائق تعلقا بالصورة وحبا لها وأمانة عليها ·

وهو فى نفس الوقت حريص على نفسه يود أن يحفظ عليها توازنها أمام الشعور بتناقضات الأشياء من حولها ، ويمنعها من الوقوع تحت التأثير السلبى لهذا الشعور ·

وليس هذا الا محاولة رشيدة ، بل حرص واع على أن يكون الانسان شخصا سويا ملائما للحياة ، وخاليا من العيب، أو أقوى منه ، وأمنع من الاذعان له ، قريبا من الصورة المثلى ولو كان ذلك عن طريق الوهم والخيال ·

ان سخرية الانسـان من نفسـه عمل اجتماعى ونفسى يحقق التوازن المفروض أن يكون بين الانسان وبين مجتمعه، وبينه وبين نفسـه فتتيح الراحة والسعادة للفرد وتطمئن المجتمع على بقائه ، وعلى شدة اهتمام أفراده بهذا البقاء ·

والسخرية بديل مقبول للعقاب ، فالانحراف عن قوانين الحياة ، ومعارضتها ، والخروج عليها ، وتهديد الحياة بالتوقف أو التخلف ، وأى محاولة لقطع الصلة بين الحياة وبين آمال الأفراد فى الوصول بها الى أحسن صورة ممكنة ··· فى هذا التمرد على الحياة أو التصلب معها أو النفور منها ما يستوجب المقاومة والرد السريع ·

وقد لا يكون فى القـانون ما يوجب عقابا ماديا على هذه الانحرافات أو الأخطاء المقصودة أو غير المقصودة فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جانب الحيـــاة ، لأن بعضها قد لا يكون خطأ ماديا يمكن أن نرد عليه بعقاب مادى من جنسه ٠

فكيف تقاوم الحياة كل هذا ، وليس هناك ما يعطيها الحق فى عقوبات مادية مقننـــة بحكم التـــاريخ الطويل للصراع الانســـانى ؟

ليس هناك ما يغنى الحيـــاة عن الوقوع فى خطأ أشـــد الا باستخدام هـــذا الأســـلوب النقـــدى المعبر البليغ وهـــو السخرية ٠

ان الألوان الأخرى من العقاب قد تثير أحقادا وضغائن ، وتخلف رواسب ترزح تحتها الحياة زمنا طويلا ، وتحملها من العنـــاء فوق ما تحملهـــا اياه بعض التناقضات التى أشرنا اليها ٠ بينما لديها هذا اللون من العقاب الذى قد لا يقل صرامة عن الألوان الأخرى ، بل ربما زاد عنها تأثيرا وفعالية دون أن يترك فى معظم الحالات على الأقل أى آثار هدامة ، واذا ترك فانما يترك حركة عامة يتـــأثر بها الفكر والفن والأخلاق ، ويشغل بها المجتمع فنزيده ثراء روحيا كبيرا ٠

وقد تكون العيوب التى تثير التهكم والسخرية خطيرة ، ولكنها فى حماية السلطات ٠ ومن بيدهم الأمر وقد يعرض نقدها الى عقاب ، ولكن من الخطر الكبير أن تترك هكذا دون مقاومة حتى تكون لها السيادة والكلمة العليا على المجتمع ، فلابد من مقاومتها ، والوقوف ضد تيارها ، والتضييق عليها حتى تسقط فى النهاية ٠

ان الأدب يتعقب هذه الظواهر التى تعيش تحت الحماية، ويوجه اليها أسلحته التى عرف بخبرته وطول معاناته أنها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجدى وأفعل في المقاومة • وليس هناك أحيانا أحد من سلاح السخرية ، انها السلاح الرهيب الفتاك الذى يصل الى هدفه . السلاح الذى يخاطب النفوس والعقول ويكشف الحقائق . وان أبقاها مغلفة بغلاف جديد ، شفاف ، لا يخفى ما بداخله •

ان السخرية من خلال هذه المفاهيم هى فن ابراز الحقائق المتناقضة والأفكار السلبية فى صور تغرى بمقاومتها ، والرد عليها وايقاف مفعولها ، من غير أن يلجأ الى الهجوم المباشر . أو يبدو فى موقف يكون فيه هدفا للانتقام •

وهى الدعوة الى الثورة من غير هتافات عدائية ومن غير تنظيمات يدان أصحابها ، فكأنها تهيىء النفوس للثورة على الظلم وعلى الانحراف ، وتفتح العيون على النقائص التى يحاول اصحابها أن يبعدوها عن مواطن الضوء •

وما تتمتع به السخرية من جدية فكهة يعطيها امكانية السرعة فى النفاذ الى العقول والتأثر بها ، ويتيح لها الوقت الكافى لتنتشر ، وتتصل بالرأى العام ، وبأفكار الجماهير ، وتصبح من المكونات الأساسية للوعى القومى ، وللسخرية دورها فى تجديد النشاط النفسى ، والترويح الجماعى ، فتنشر التفاؤل ، وتثرى الايمان بالمستقبل ، وتقوى طاقات الانسان بالثقة ، ولعلها تقف وراء عناصر الصبر ، والاحتمال وطول النفس التى نجدها عند بعض الشعوب خاصة شعبنا العظيم •

ومن حسن الحظ أن ارتباط السخرية بهذه الأهداف ليس دائما عن ارادة حاضرة متمثلة فى كل وقت ، ولكنه أصبح

ارتباطا لا اراديا يجعل السخرية فن المواجهة الانسانية للأحداث والظواهر ، وهى مواجهة طبيعية تلقائية لا تكلف فيها ، وتعتمد فقط على حسن التوصيل ودقة الوعى والقدرة على التجاوب السريع ٠

والسخرية تعمل بذكاء لتحويل الشىء أو المنظر الذى ترصده الى صورة دميمة ، لتسقطه فى النهاية من عالم المثل ومن حسابات الجمال الذى قد يكون فى كثير من الأحيان واقعا تحت وهم الاتصاف بها ، فيبدو مثيرا للضحك ، أو يمكن أن نعتبر ذلك فى الواقع أسلوبا مجديا من أساليب السخرية أو فنا من فنونها ذات القدرة العجيبة ٠

وقد أدرك المازنى قوة تأثير هذا الأسلوب فيرى أن « اثارة الاحساس بالضحك لا تكون فى الغالب الا من طريق الدمامة ،، التى هى نقص ، اذا اتخذ دعوى كمال فتح الباب للسخرية » (٦) ٠

وفى حديثه عن ابن الرومى أشار الى أنه فطن الى ضرورة الدمامة حيثما أراد أن يحيل المهجو مضحكا وموضع استهزاء ، وقد هجا كثيرين ولكنه اذا أراد أن يركب المهجو بالسخرية والفكاهة ألزمه صفة الدمامة (٧) ٠

ويرى المازنى أن ابن الرومى والمتنبى انفردا من بين شعراء العرب بدقة التفطن الى هذا واستشهد بالأبيات التالية لابن الرومى فى أبى بكر الدقى :

لأبى بكر كلام ... واحد لا يتعدى
ضرب الله عليه ... دون لفظ الناس سدا
لا يرى من وصفه البستان فى البصرة بدا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واذا ناظر خصما	ـ ذات يوم فأجدا
مط للخصم جبينا	كجبين الأصلدا
وادعى الاجماع فيما	كان للاجماع ضدا
وله أبيات شعر	ألفت زوجا وفردا
مقويات مكلفات	صلحت للفرد عقدا
جمع الاعراب طرا	فى قوافيهن عهدا
مثلما ضمت سبيل	من شعوب الناس وفدا
ثم من أحلف خلق الله	ألا يتهـدى
وألج الناس ما	دام يحمى ويفدى
فاذا أغمضت عنه	جاء نحو الزاد شدا
كصبى السوء يلقى	منه من قاساه جهدا
واذا قال رسول الله	مد الصوت مدا
فعل ساسى من القصاص	أعمى يتجـدى (٨)

لقد تعاونت هذه الأبيات على وضع المهجو فى صورة دميمة ، شملت كلامه وشعره وصلحه وخصامه ، وعاداته وسلوكه ٠

وقد ينضم الى الدمامة الضعف والعجز حتى لا يكون أمام الصورة متنفس يأتيها منه الأمل ، لكى تكون من جوانبها المختلفة مثيرة للانتباه ٠ ومثيرة للضحك أيضا ٠ وقد نعتبر السخرية هنا ظالمة لأن فيها شيئا من التجنى ، ولكن هذا يرتبط بالنظرة الضيقة التى تقف عند حدود الصلة المباشرة بين السخرية وبين الصورة المهجوة بحالتها الفردية ، فى حين أن السخرية تتخذ من الحالات الفردية وسيلة لضرب الظاهرة فى عمومها ، لأن الدافع الرئيسى يكمن فى الحرص على الحياة نفسها فى أكمل صورة ممكنة ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل هذا يتضح لنا في سخرية «دوق جلوستر» ــ شخصية من شخصيات شكسبير ــ من نفسه ، وكان دميما ، ولكنه وصل الى العرش بارتكاب الفظائع ، ولعل دمامته هي التي سولت له ذلك وبررته في نظره ، ويكفي أن تكون الدمامة خطرة في دفعها الى الانتقام ، وتأكيدها للأنانية لتكون هدفا للسخرية ــ وقد يكون الضعف والعجز أحيانا مما يدفع المرء الى انحرافات قاتلة للمجتمع وساحقة لبعض أفراده أو لعناصر الحياة فيه • والدمامة في حقيقتها ضعف وعجز وان صاحبتها قوة البطش وارتكاب الأذى • والأمر في تقديرها يختلف باختلاف النظرة اليها في كلتا الحالتين • حالة السكون والاستسلام وحالة التمرد وارتكاب الفظائع ولكنها على الدوام موضع للسخرية ومادة طيعة لها باعتبار أن الحياة تقدر الجمال وتسعى اليه ، والقوة التي تمجدها الحياة قوة جميلة بدوافعها وأهدافها ومنظرها وأدواتها (١٠) •

ونعود الى سخرية « دوق جلوستر » من نفسه حين يقول : « أنا الذي لا يصلح شكلي للعب ، ولا لأن اجتلي مرآى في صقال مرآة ، أنا الذي خدعتني الطبيعة عن نصيبي من حسن الطلعة ، أنا المشوه ، المخدج الناقص الخلقة ، الذي أرسل قبل الأوان في هذه الدنيا المتنفسة ، أنا الذي تنبحني الكلاب اذا وقفت حيالها ، لا أفيد لذة من قضاء الوقت ، اللهم الا في النظر الى ظلي تحت الشمس والتعليق على تشوه خلقتي ، ولما كنت لا أستطيع أن أكون عاشقا فقد اعتزمت على أن أكون نذلا » •

•ان ارادة الأذى ، والانتقام من العجز في صورة أي شخص وأي شيء لم تمنع صاحبها من أن يسخر من نفسه ، ولكنها

جاءت سخرية صماء لاتثير شيئا، أو تثير مجموعة من الأحاسيس حالت دون أن يكون للسخرية طعمها الخاص ، ولولا هذا التصميم على الأذى لعكست لنا الاحساس بالمرارة وجذبت تعاطفنا ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أساليب السخرية

بعد أن حاولنا التعرف على السخرية وتفهمها ، وتميزها عن أسلوب التعبير العادى • وبعد أن استعرضنا الدوافع التى تكمن وراءها ، وعلاقتها بنفس الأديب ، والأهداف التى تقصد اليها السخرية • نرى أن للسخرية أساليبها الخاصة التى تستخدمها فى صياغتها ، وفى التأثير الذى تسعى الى نقله للغير •

والواقع أن السخرية تعبير حر فيه انطلاق وفيه قدرة على الصياغة ، واختيار ما يؤدى الى الغرض • فليس هناك ضوابط حتمية للأسلوب الساخر الا ما يثيره هو بمجموعه ، واذا كان لنا أن نحدد شيئا له تأثيره فى العبارة الساخرة فاننا نميل الى اعتبار ذكاء الكاتب وصفاء روحه ، وقدرته على أن يشيع فى كتاباته اللباقة والطرافة والجاذبية •

ورغم ذلك فان هناك بعض الأساليب التى لوحظ بالاستقراء والبحث أنها أساليب للفكاهة والسخرية •• من هذه الأساليب :

(١) الرد بالمثل :

وهو قائم على التبادل وكثيرا ما يستخدم للفكاهة والضحك لمجرد التسلية ، والرد عادة يكون أكثر سخرية ، وأشد لذعا ، وأدعى الى الضحك ،وهو يتطلب حيوية الذكاء وسرعة الخاطر، وقد يأتي بدهيا فنشعر بأنه لا رد سواه أكثر تجاوبا مع الموقف ، كالمرأة التى سخرت من طول الجاحظ ردا على سخريته من طولها (١١) ، وكالفرزدق الصبى الذى مر به الأخطل ، وقال له : أيسرك أن أكون أباك ؟ فرد عليه فى سرعة قائلا : لا ، ولكن يسرني أن تكون أمي ليأكل أبى من أطايبك (١٢) ٠

والأدب العربى يزخر باساليب تعتبر من الرد بالمثل فى مضمونها العام وان اتسعت لوضعها ضمن طائفة أخرى من الأساليب ٠ فالمهاجاة بين الشعراء والتى لها سجلات معروفة فى أدبنا ، سواء كانت ارتجالية ، أو استفادت من التأنى والتروى والتحضير هى رد بالمثل ، وتبادل القصائد والأبيات حول الحياة الخاصة أو العامة لبعض أدبائنا المعروفين ، نوع من الرد بالمثل وما نجده أحيانا من مطارحات ، ومناظرات فى الصحف ، وفى كتب الأدب كالرد على النقد أحيانا ، والتعليق على التعليق ، والأبواب المفتوحة للآراء الحرة والرد عليها تتيح الفرصة لازدهار هذا اللون من الأساليب الأدبية الساخرة ٠

(٢) اللعب بالألفاظ :

هذا النوع يعتمد على الاشتراك المعنوى فى اللفظ الواحد أو على الجناس أو الطباق ، ومن أمثلته ما دار بين معاوية وبين شريك بن الأعور ، وكان دميما ، قال له معاوية : انك لدميم

والجميل خير من الدميم ، وانك لشريك وما لله من شريك ، وان أباك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سدت قومك ؟ فقال شريك : انك معاوية ، وما معاوية الا كلبة عوت فاستعدت الكلاب ، وأنك ابن صخر والسهل خير من الصخر وانك ابن حرب والسلم خير من الحرب ، وانك ابن أمية وما أمية الا أمة صغرت . فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ (١٣)

ويلاحظ أن الأسلوب مزدوج ، ويتداخل فيه اللعب بالألفاظ مع الرد بالمثل ، وهو فى ظاهره يمثل نوعا من المهارة فى استخدام اللغة ، وان كانت تعتبر « جهدا ضائعا » (١٤) لأنه حشد متكلف للكلمات واصطناع معان ليست مقصودة فى حد ذاتها ، وقد لا يخدم الأسلوب غرضا معينا بقدر ما يعكس الرغبة فى العبث والمشاكسة .

ولكن هذا المثل . من ناحية كونه « ردا بالمثل » ، يتضمن جاذبية خاصة ، ويوحى بالمشروعية ، والمطابقة للموقف ، ويعكس معنى العدل ويجسمه ولذلك نجد ما يشبه الاجماع على قبول هذا اللون من الكلام ، كما نراه مقبولا أيضا فى العلاقات الانسانية والدولية ومنه مبدأ « المعاملة بالمثل » الذى يبدو كأنه أسلوب حياة طبيعى ومنطقى لأنه يتضمن الى جانب ما يحققه من توازن ــ اقرارا لهدف مقصود هو حمل المخطىء على أن يتراجع عن خطئه ، والمهمل أن يفيق فيتجاوز اهماله ، ويداوى غفلته . فالرد بالمثل كلاما أو عملا منبه قوى للانسان لكى يلتزم جانب الصواب فى حياته القائمة على العلاقات المتبادلة ، التى تتطلب احترام حق الآخرين (١٥) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣) اللعب بالمعـــانى :

ومن أنواعه الكناية والتورية والتعريض ..

(أ) والكناية : هى التعبير بجملة أو جمل يراد بها معنى آخر مرتبط بالمعنى الأصلى ، وقد يعبر بها عن الفكرة المرادة بألفاظ تؤدى صورة مضـــحكة ، كالذى رد على صـــديقه حين سأله : ماذا ولاه الأمير ، بقوله : « ولانى قفاه » (١٦) وفى هذا التعبير سخرية من وجهين ، سخرية بالأمير انتقاما منه لأنه رده دون شىء ، وسخرية من النفس للتعبير عن الحرمان والعودة خائبا ، وفى هذا من التنفيس عن ذات المتكلم مايخفف عنه آلام الشعور بالحرمان والخيبة .

وقال مجاهد بن سليمان الشاعر المصرى المتوفى ٦٧٣ هـ ــ ١٢٧٣ م يتهكم بالشاعر المصرى الجزار :

أبـــا الحســـين تأدب   ما الفخر بالشعر فخر
وما تبللت منـــه   بقطرة وهو بحر
وان أتيت ببيت   وما لبيتك قـــدر
لم تأت بالبيت الا   عليه للناس حـــكر

فكنى عن السرقة من الشـــعراء بأن عـــلى كل بيت من أبياته حكرا ، أى أنه ليس ملكا له (١٧) :

(ب) التـــورية : وهى التعبـــير بلفظ يحتمل معنيين أحدهما بعيد وهو ما يريده المتكلم ، والتـــورية من أهم بواعث الضـــحك . وأكثر أنواع الفكاهة شيوعا فى الأدب الانجليزى ، وأساسها كمـــا فى الأدب العـــربى الاتحـــاد فى اللفظ والاختلاف فى المعنى ، وقد يكون الاتحاد كاملا ، أو فى اكثر الحروف (١٨) . وقد تستغل فى السخرية استغلالا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ناجحا ، كالأعرابى الذى كان يأكل مع أبى الأسـود الدؤلى وكان يأكل لقما كبيرة ، وبنهم ، فسأله أبو الأسود : ما اسمك؟ قال : لقمان ، فقال له : صـدق أهلك فى تسميتك ، أنت لقمـان • وقال أبو الحسـن يحيى الجزار المصرى المتـوفى ٣٦٧ هـ فى زوجة أبيه :

تزوج الشيخ أبى شيخة ليس لها عقـل ولا ذهن
لو برزت صورتها في الدجى ما جسرت تنظـرها الجن
كأنها فى فرشـها رمـة وشعرها من حولهـا قطن
وقائل قال لى ما سـنها فقلت ما فى فمها سـن

(جـ) التعريض : وهو الكلام الذى لا يقصد به المتكلم معناه وانما يقصد معنى آخر ، وليس بين المعنيين تلازم ، وهذا ما يخالف فيـه التعريض الكناية ، اذ بين المعنيين فى الكناية ارتباط وليس لجملة التعريض الا معنى واحد يفهم السامع ما وراءه من بواعث ، وتختلف فى هذا عن التورية التى يمثل اللفظ فيها معنيين يوجد ما يخـدع السـامع عن البعيد المقصود (١٩) •

ومن التعريض أن (عمرو بن العاص) قال لمعاوية : رأيت البارحة فى المنام كأن القيـامة قد قامت ووضعت الموازين وأحضر الناس للحساب فنظرت اليك وأنت واقف قد ألجمك العرق وبين يديك صحف كأمثال الجبـال ، فقال معـاوية : فهل رأيت شيئا من دنانير مصر ؟ (٢٠) •

وفى هـذا الاتهام المتبـادل ما كان يمكن أن يثير الحنق والكراهيـة لولا التعريض الذى صيغت فيه السخرية فبدت فكهة خفيفة على النفس •

ومن التعريض الساخر البعيد الأثر قول الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم مخاطبا الكفار « وانا واياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » وهل هناك شك فى هدى الرسول وضلال الكافرين ؟ الا اذا كان الكفار أنفسهم يغالطون ويعاندون ٠

وفى هذا التجاهل تعريض واضح بغبائهم وعنادهم ، وتثبيت لضلالهم بأسلوب ساخر يضع فى صورة واحدة مقارنة غير مباشرة بين الهدى والضلال والايمان والكفر ٠

واللعب بالمعانى بألوانه الثلاثة التى ذكرنا ، وبغيرها مما لم نجد ضرورة لذكره،قرين لأسلوب الرمز الذى يشترك مع هذه الألوان فى أن المعنى المراد عادة يكون بعيدا ، وان كان فى أسلوب اللعب بالمعانى متضمنا من اللفظ ما لا يصعب فهمه وان اختلط بغيره ، فى حين أنه فى الرمز موحى به ، تقصده العبارة وان لم تتحدث عنه ٠

والرمز قرين اللعب بالمعانى أيضا فى أن كلا منهما يستخدم لحماية صاحبه من الوقوع تحت دائرة الاحباط ان كان هناك ٠ وان كان الرمز أوسع مدى وأرحب ساحة ، ويستطيع أن يطلق يد صاحبه بقدر ما تعطيه مواهبه ، وبقدر ما يعن له تصور العلاقة بين العبارة أو القصة أو الحادثة التى يتخذ منها مادة له ، وبين المعنى أو الهدف الذى يسعى اليه ٠ وقد يروج نوع من القصص الذى يبدو خرافيا، أو الذى يدور حول عوالم انسانية كالحيوانات أو الطيور والحشرات ، بينما هو فى حقيقته يسخر من الانسان فى صورة غير مباشرة اما لبيان تميز الحيوان عنه فى بعض الصفات فى فترة زمنية معينة ، أو للتركيز على وجه من وجوه الشبه

بينهما ، وقد يكون المقصود ليس مطلق الانسان بصفة عامة، وانما انسان معين تمنع مكانته أو سلطاته من المساس به حتى بالكناية أو التورية أو التعريض أو غيرها ، فتنجح أساليب الرمز فى الوصول الى الغرض ، وفى تقوية الضوء أمام العيون والبصائر بما لا يحتاج الى عناء بعد ذلك ، وقد تكون الحملة موجهة الى أخلاقيات سادت فى المجتمع لظروف طارئة ، وأصبحت من التفشى الى الدرجة التى ينبغى أن تتوجه اليها الأقلام بأكثر من أسلوب ، وعلى أكثر من درب ، وهكذا تدخل السخرية ميدان الرمز ، وتستغله أحسن استغلال بدافع انسانى بحت (٢١) .

وقد شاع هذا الأسلوب الساخر القائم على تقريب المعنى البعيد ، أو على ابعاد المعنى عن التناول الصريح المكشوف ، شاع فى مجلاتنا الفكاهية التى ظهرت فى فترة احتدام الصراع الوطنى والطبقى والحزبى من هذا القرن لتستقطب الأفكار وتلونها بلون خاص ، وتصوغها فى أساليب هزلية ساخرة ، « وقد استجابت الصحافة الهزلية لرغبات الرأى العام ومضت تعبر عما يجيش فى صدر أبناء الشعب من آمال ومتمنيات ، وانطلقت تدعو لاجابة المطالب الوطنية » (٢٢) . وقد جمعت فى ذلك بين التعبيرات الصريحة والرمزية فى توفيق ناجح بعيد الأثر .

(د) القلب : أن يقلب المتكلم جوابا أو سؤالا لسائل أو يأتى بعكس ما كان ينتظر أن يأتى به ، أو بكلام مفاجىء غير متوقع ، أو يقلب فكرة أو قصيدة ليسخر من صاحبها أو ليحولها الى غرض فكاهى يسخر فيه من العيوب السائدة فى المجتمع . ومن الذين برعوا فى استخدام هذا اللون المرحوم

حسين شفيق المصرى الذى كان يعارض قصائد الشعراء ليتهكم بالمساوىء الاجتماعية ۰۰ ۰ كما كان يقلد اللهجات والأساليب ۰۰۰ فى مذكراته على لسان الشاويش شعلان (۲۳) ۰

وهناك أساليب أخرى شبيهة بالقلب ، فى كونها تجرى على ذكر الشيء وارادة عكسه مبالغة فى السخرية لانها تضع هدفها فى وضع المتوهم لحقيقة ما فتظهره بمظهر الغفلة والغرور فوق عيوبه الأصلية ، فكأنه ازداد بذلك عيوبا جديدة ، واستحق أن يكون مادة سهلة للسخرية والتهكم ومن هذه الأساليب :

الهزل يراد به الجد :

كقول أبى نواس :

اذا ما تميمى أتاك مفاخرا

فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

فهذه سخرية قالها الشاعر فى صورة هازلة بينما هو يريد أن يضع التميمى فى وقت زهوه وافتخاره بنفسه فى صورة يعافها أشراف الناس مما لا يجعل له حقا فى الفخر ، وواضح أن هناك من خلال هذا الهزل جدية فى ارادة وصم المهجو بالذم والعيب الفاضح ، كما يتضح للقارىء ما أحدثه الشاعر من قلب للجو العام الذى بدأه التميمى مفتخرا بنفسه فكان ختامه عكس ما أراد ۰

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التبشير فى موضع الانذار أو الوعد فى مقام الوعيد :

كقول الله تعالى « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (٢٤) » ... « فبشرهم بعذاب أليم (٢٥) » .

ومثل هذا التعبير لاذع السخرية لأنه مع توعده المنافقين بالعذاب الأليم يسخر من توقعاتهم القائمة على الوهم وحمق الادراك ، ومثله المدح فى معرض الاستهزاء :

كقول الله تعالى : « ذق انك أنت العزيز الكريم » (٢٦) وقول ابن الرومى :

فيا له من عمل صالح يرفعه الله الى أسفل

ومن هذا النوع اقرار المخطىء على خطئه كأنه لا يستحق أن يناقش أو يعارض ، أو على سبيل تركه للحياة العادية تبرز استغراقه فى الخطأ ، أو الاعتقاد فى أن خطأه لا يخفى على أحد حتى لو أقر عليه ، أو كأن أحلامه من الضآلة والغفلة بحيث لا تتسع للجدل الهادف فلا بأس من مجاراته ، وليس ذلك الا سخرية به واستهزاء من نقص ادراكه .

ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى فى مجاراة الكافر فى خطأ معتقداته « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله (٢٧) » .

ولذلك ، وبعد أن وضعه على حافة الوقوع فى الوهم فكشف موقفه فبدا مثيرا للتهكم ، رأى أن يعطى الصورة الحقيقية حتى يؤكد ما أراد فى صدر الآية فأتبع ذلك بقوله : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد

الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال (٢٨)»
ويقول الله تعالى فى آية أخرى تهزأ بايمان الكافرين الذين يدعــون أنهم عليه ، « قل بئسما يأمركم به ايمــانكم ان كنتم مؤمنين (٢٩) » ٠

(٤) المبالغة :

وهى أسلوب من أساليب الفكاهة والسخرية التى تستخدم كثــيرا فى التنكيت وهى تعتمــد على الافراط فى الوصــف وتجسيم الصورة أو العيب المقصود ٠ يقول أحد الشعراء فى هجاء شخص كريه الرائحة :

تبكى السموات اذا ما دعا
وتستعيذ الأرض من سجدته
اذا اشتهى يوما لحــوم القطا
ضوعها فى الجو من نكهته

والواقع أن هذه الأساليب ليست وحدها ما تصاغ فيــه السخرية وتقال ، فالأساليب كثيرة ، ولقــد أردنا فقط أن نذكر بعضــها كنمــاذج للايضــاح والمســاعدة على التعريف بالسخرية وأساليبها ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مم نسخر ؟

١ ــ نسخر من العيوب الجسدية أو العقلية والخلقية ، ونسخر من العيوب الاجتماعية والسياسية ، وذلك فى الأفراد والأمم والجماعات .

ولقد تناول الأدب العيوب الجسدية تناولا قائما على المبالغة والتضخيم والاضحاك ، بالوصف المضحك أو التشبيه الذى يرسم صورة مضحكة ، ولعل وصف ابن الرومى للأحدب يمثل لنا لونا من هذا التصوير الذى تختلط فيه الدقة بالمبالغة ، فتأتى الصورة رائعة بالغة الدلالة ، حيث يقول :

قصرت أخادعه وطال قذاله
فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة
وأحس ثانية لها فتجمعا (٣٠)

أو أن يدخل الخيال البعيد فيلون الصورة بلون غريب ، ويجسم العيب تجسيما يفوق الشكل العادى ، ويبدو ذلك فى قول الشاعر دلالة على السمنة ، وتنفيرا من ضخامة الجسم :

ألا يا شبيه الدب مالك معرضا
وقد جعل الرحمن طولك فى العرض

وأقسم لو خرت من استك بيضة
لما انكسرت لقرب بعضك من بعض

والسخرية هنا لا تتناول العيب الجسمى تناولا مجردا والا أصبحت فى موضع اللوم الأخلاقى الذى يفقدها جمالها وحسن تأثيرها على النفس ، ولكنها تتناول بالدرجة الاولى مسئولية صاحب العيب باعتباره كان يستطيع ألا يصاب بهذا العيب اذا التزم الأسلوب الانسانى والعادات الرياضية السليمة، فالأحدب مثلا قد يكون مسئولا عن حالته التى وصل اليها لأنه لم يراع الوقفات أو الجلسات الصحيحة ، كذلك المعوج الظهر أو المشوه الأكتاف أو المفرط فى النحافة أو السمنة ، لأنهم فى المضمون العام أفرطوا في مصدر هذا العيب ولم يروضوا أجسامهم على المبادىء المعروفة للاحتفاظ بالشكل المقبول ، فكأنه بذلك قد وضع نفسه في مواجهة القانون الطبيعى للحياة الصحيحة ، ولا يشفع له جهله لو كان جاهلا ، فهو هنا ذاهل عن الحياة غافل عن وسائلها الطبيعية ، أو جامد أمامها ، تمر عليه دون أن يصغى لنداء التوافق معها .

ومع ذلك فان علاقة السخرية بالأخلاق ليست موضوع البحث هنا ، فانا نتناولها كظاهرة أسلوبية لها دور ايجابى بارز فى حياتنا الأدبية واذا توسعنا فى النماذج التى تعرضنا لها فلا ينبغى أن نحمل الموضوع مايمكن أن تقع هذه النماذج تحت طائلته ولو كان اعتبارا أخلاقيا .

والأصل فى السخرية أنها تنحو منحى البعد عن موقف التجنى الذى يعرض صاحبه للمساءلة أو الاستنكار ، وحتى لو بدا أنها انحرفت أحيانا أو خرجت عن هذا الاطار فان خفة روحها وجوها العام تخفف من وقعها على النفس ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلا تترك وراءها ما يثير القيم الأخلاقية أو يناصبها العداء .

وأحيانا تأتى السخرية فى هذا المجال مفاجأة ، ليس فيها مبالغة محسوسة ولكن فيها ادعاء ، وتحميل الواقع ما ليس منه . وليس فيها خيال ولكن استخدام البعض لبعض ما تعى الذاكرة فى مناسبته ، كقول أشعب لقبيح قابله نهارا « ألم ينهكم سليمان بن داود عن الخروج بالنهار » ؟ (٣٢) .

وتعرضت اللحى الطويلة للسخرية ، وأعتقد أن وراء ذلك تاريخا من التجربة يتعلق بأصحابها وسلوكهم الاجتماعى . وان لم يشر الساخر صراحة الى ذلك ، كقول الشاعر :

ان تطل لحية عليك وتعرض
فالمخالى معروفة للحمير
علق الله فى عذاريك مخلاة
ولكنها بغير شعير (٣٣)

وقول البهاء زهير :

وأحمق ذى لحية كبيرة منتشرة
طلبت فيها وجهه بشدة فلم أره
معرفة لكنه أصبح فيها نكرة
كم قرية للنمل فى حافاتها ومقبرة
كأنها سحابة فوق البلاد ممطرة (٣٤)

وسخروا من الصوت القبيح لأنه منفر ، ولا يخفى ما فى هذه السخرية من تنبيه الى صاحب الصوت القبيح أن يكف عن استخدام صوته للازعاج ، وخاصة اذا كان مغرورا يظن أن له يدا فى الغناء ، يقول ابن الرومى فى مغنية :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غنت فمس القلب كل كرب
واستوجبت منا أليم الضرب

وفى مغن آخر يقول :

وكأن جرذان المحلة كلها
فى حلقه يقرضن خبزا يابسا

وقال غيره فى وصف الصوت المحبوس :

ويحسب الندمان فى حلقه
دجاجة يخنقها ثعلب (٣٥)

٢ ـ ونسخر من العيوب الخلقية والنفسية ويقصد بها العيوب الخلقية والنفسية التى لا تساير المثل العالية للمجتمع ، ولا توافق العرف العام ، كالبخل مثلا ، والثقل ، والجبن ، والكسل ، والغرور ، وحب الظهور ، وهى كما يبدو عيوب شخصية لا يتعدى ضررها صاحبها الا فى النادر ، وليس ضررها خطيرا أو مباشرا ، ولذلك لم تشرع لها عقوبات ولم يتعرض لها قانون ولكنها تركت للمجتمع يعالجها بوسائله الخاصة أما العيوب الهدامة للمجتمع التى تلحق الأذى بأفراده ، وتنشر الفظائع بينهم ، كالميل الى القتل والسلب والفجور والغش والخيانة ، فقد وقفت منها القوانين موقفا صارما ، واتخذت الاحتياطات الواجبة لمقاومتها ومنع وقوعها ، وشرعت لها ألوانا من العقاب مجزئة ورادعة .

ومن صور التهكم بالبخل ما يروى من أن الرشيد قال للجمار : « كيف مائدة محمد بن يحيى البرمكى ؟ » فقال الجمار : شبر فى شبر وصحفة من قشر الخشخاش وبين الرغيف والرغيف مضرب كرة ، وبين اللون واللون فترة

نبى ، قال الرشيد : فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاتبون » (٣٦) .

فهو هنا يسخر من صغر المائدة ورداءة الصحفة وخشونتها وتباعد ما بين الأرغفة ، ويدعى سخرية أنها مائدة لا يأكل منها الا الملائكة الذين نعرف أنهم لا يأكلون ولا يشربون .

وسخروا من «الثقل » وسماجة الزائر وعدم تقديره لظروف الناس ودرجة احتمالهم ، ومن ذلك قول البهاء زهير :

وعائد هو سقم لكل جسم صحيح
لا بالاشارة يدرى ولا بالكلام الصريح
وليس يخرج حتى تكاد تزهق روحى (٣٧)

وقول على الجارم :

تبا له من ثقيل دما وروحا وطينة
لو كان من قوم نوح لما ركبت السفينة (٣٨)

وقول على الجندى :

فيا رب لا تدخل جنانك مثله
فيهرب منها الصالحون الى سقر

★ ★ ★

وسخروا من « الجبن » والجبناء لأن الجبن يغرى بالتخلف ، ويقعد عن مواصلة السعى ، ويهدد الحياة فى أمنها وتقدمها .

ولذلك بالغ الأدب فى التهكم بالجبان ، وتجسيم صفة الجبن فيه ، من مثل قول الشاعر : « اذا صوّت العصفور طار فؤاده » :

ومن النوادر التى تروى عن الجبن والجبناء : قولهم « كان لأبى حية النميرى سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق ، وكان يسميه لعاب المنية ، وقد حدث جار له قال : « أشرفت عليه ليلة وقد انتضاه ، وسمعته يقول : أيها المغتر بنا ، المجترىء علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك ، خير قليل وسيف صقيل ، لعاب المنية الذى سمعت به مشهورة ضربته ، لا تخاف نبوته ، أخرج بالعفو عنك والا دخلت بالعقوبة عليك ، انى والله أن أدع قيسا تملأ الأرض خيلا ورجلا ، يا سبحان الله ما أكثرها وأطيبها ، ثم فتح الباب ، فاذا كلب قد خرج ، فقال أبو حية ، الحمد لله الذى مسخك كلبا وكفانى حربا » (٣٩) ٠

وسخروا من « البخل » و « البخلاء » ، على رأس الساخرين منهم الجاحظ الذى وضع فيهم كتابا جامعا لنوادرهم وأخبارهم مصورا لحالهم ومجسما مظاهر السلبية وانحراف الطبع منهم ، فكان كتابه سجلا معبرا عن رفض المجتمع لهم ، واعتبارهم كائنات غريبة ، أو لا يعتبرها المجتمع عناصر صالحة لبقائه ٠

والبخل صفة سيئة وعادة قبيحة سخر منها القرآن ، وصور صاحبها كالمشدودة يده الى عنقه من أثر عاهة أو عجز فبدا كالمشوه الضعيف الذى لا يستطيع أن يتناول الأشياء أو يمارس حياته الطبيعية ٠ ولكن أسلوب القرآن فى السخرية عمد الى النهى المباشر حسب منهجه التهذيبى ، ولأنه ربطها بظاهرة مناقضة لها وهى الاسراف والسفه ، الى الحد الذى يشل اليد أيضا فلا تعود لديها القدرة على العودة الى حالتها

الطبيعيـــة • قال تعـــالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا » (٤٠) •

والبخل مادة خصبة للسخرية فى كل المجتمعات والعصور لانها تعنى الانفصال عن المجتمع ، وضعف الشعور بالمسئولية، والعبودية للمادة ، وقد تؤذى المجتمع ، وقد تؤذى صاحبها نفســه •

وحياتنا اليومية زاخرة بصور السخرية من هؤلاء الذين يبخلون على الناس وعلى أولادهم وعلى أنفسهم رغبـــة فى أن يكنزوا الذهب والفضـــة ، وينموا ثروتهم ، لأنهم يجـــدون ســـعادتهم فى جمع المـــال ، وفى رنين الذهب عـــلى حســـاب كل شىء •

وقد عنى المجتمع منذ القدم بالتركيز على هذه الظـــاهرة ليجعلها فى متناول الضوء ، وينبه اليها بصورة دائمة ليحذر منها ، فأطلق الوصف بالبخل على جنسيات معينة وبخاصـــة اليهود ، وعلى بلاد معينة ، مبالغة فى التنفير ، وجعلهم محورا للقصص والنوادر التى تعالج البخل والبخلاء •

وقد أخذت بعض النوادر والأوصاف للبخل والبخلاء مكانا بارزا فى حياتنا الأدبية حتى أصبح لها وجود قائم يستشهد بهـــا • وتذكر فى المناسبات • مثـــل قول ابن الرومى فى عيسى بن منصور :

يقتر عيسى عـــلى نفســـه
وليس بباق ولا خالد
فلو يســـتطيع لتقتـــيره
تنفس من منخـــر واحـــد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقول الجارم حين نزل ضيفا على بعض الأغنيـــاء في رمضان ، فلم ير منهم كرما :

أتى رمضـــان غير أن ثراتنـــا
يزيدونه صوما تضيق به النفس
يصومون صوم المسلمين نهـــاره
وصوم النصارى حينما تغرب الشمس

وكما تهكموا بالبخل تهكموا « بالشره » ، لأنه رذيلة تجمع الجشـــع والأثرة وحب الذات ، وهى من أمـــراض المجتمـــع المرذولة التى تذهب الهيبة وتضيع الوقار ، وتنزل بقـــدر صاحبها وربما كانت من الأمراض التى تنتقل بالعدوى الى الآخرين ، ومن ذلك قول ابن أبى الأسود فى وصف أكول نهـــم :

كأنما فى فيـــه أحجار الرحى
وكأنما فى جوفه تنـــــور

ومن النوادر فى ذلك ما حكى عن أن ابن أبى عتيق تمنى أن يهدى له حمل يتخذ منه طعـــاما ، فسمعته جارة له وهو يحدث امرأته بذلك فظنت أنه قد أمـــر أن يشترى له حمل وانتظرت وقت الطعـــام ، ثم جاءت فوقفت بالباب وقالت : شممت ريح قدوركم فجئت لتطعمونى ، فقال ابن أبى عتيق لزوجته : « جيران يشمون ريح الأمانى » (٤١) ٠

وسخروا من « الغرور » وهو مرض نفسى يعترى الانسان فيجعله يبالغ فى وصف نفسه ويزعم أنه أذكى الناس وأقدرهم وأجدرهم بالزعامة والاحترام ، ولا يقره الناس على زعمه لانهم يعرفون حقيقتـــه ، ولا يقبلون منه تجـــاوزه حـــده ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واعتداءه على غيره بادعاء تفوقه عليه ، ولذلك يعتبر التهكم به تأديبا له وقصاصا منه حتى يرجع الى نفسه ويعرف قدرها ويعطى للنـاس أقدارهم ، وتعتبر رسالة التربيع والتدوير التى يسخر فيها الجاحظ من أحمد بن عبد الوهاب نمـوذجا يصور موقف الناس من المغرورين المدعين •

كان أحمد بن عبد الوهاب قصـيرا مفرطا فى القصر ، ومربعا ، جعد الأطراف قصير الأصابع ، ومع ذلك فقد كان الغرور يوهمه بأنه جميل القد معتدل القامة حسن الهيئة ، ولا شـك أن هـذا الموقف يثير غيظ النـاس عليه ، ويغرى بالسخرية منه ، وقد كتب الجاحظ رسالته ساخرا من هـذا التناقض الواضـح ، والغرور الأبله الذى يقلب الصفة الى ضدها فى نفسه ، ويتوهم عكس الحقيقة وعلى النقيض منها ، ومما جاء فى الرسالة :

« قد علمت أنك لا تحسـد على شىء حسـدك على حسـن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور العين وجودة القد ، وانما يحسـد ــ أبقاك الله ــ المـرء شقيقه فى النسب وشفيعه فى الصناعة ونظيره فى الجوار على طارف قدره ، أو تالد حظه . أو على كرم فى أصل تركيبه ومجارى أعراقه ، وأنت تزعم أن هذه المعانى خالصة لك مقصورة عليك وانها لا تليق الا بك ولا تحسن الا فيك ، أو أن لك الكل وللناس البعض ، وأن لك الصافى ولهم المشوب ،

« ومن غـريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيت أنا لم نر مغرورا واسع الجفرة غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت

المتقارب ، فيا شعرا جمع الأعاريض ويا شخصا جمع الاستدارة ، •

« ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك ، واذ قد سلموا لك بالرغم شطرا ، ومنعوك بالظلم شطرا فقد حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا فأى قد أردأ ، وأى نظام أفسد من عرض مجاوز للقدر ، وطول مجاوز للقصر ؟ » (٤٢) الى آخر الرسالة التى تبرز نقائص فى أحمد عبد الوهاب وتصوره جامعا للمتناقضات ، كأنه يهذى ، ولعل الرسالة أسلوب مبالغ فيه مقصود قصدا ، وقد أوردتها كنموذج على السخرية من الغرور ، ولكن لا أعنى من ذلك أن أجعل صناعة السخرية جزءا من الموضوع الذى نعالجه ، وهى الصناعة التى تحمل صاحبها على أن يتكلف المواقف أو يبحث عن الظروف التى يظهر فيها مهارته ، فكأن الأمر أصبح استعراضا للسخرية أو للقدرة على صياغتها •

ومثل هذا يعتبر من الهجاء المجرد الذى لا ينبعث عن حاسة انسانية أو اجتماعية ولا يهدف الا الى تجريح المهجو والنيل منه والتشهير به •

ومن العيوب التى يمكن أن نعتبرها نفسية « الغباء » ، لأنه لا يدخل فى العيوب الجسدية ، ولأن المعنى العام لقولنا نفسى يتسع للمعنويات والأمور العقلية ، والغباء صورة من صور الذهول عن الحياة • والجمود أمام دولابها المرن الذى لا يهدأ ولا يتوقف ، وهو بما يعنيه من عجز عن المجاراة والتلاؤم يعتبر صفة متخلفة فى الانسان ، تسبب له ولغيره المشاكل ، وتوقعه فى حرج • لذلك فقد جعلها الناس مادة لفكاهاتهم يسخرون منها ويتهكمون بالأغبياء •

وربما كان الغباء في بعض حالاته أو في كثير منها ناتجا عن نقص في الخبرة ، وجهل بأساليب الحياة والعمل ، وقصور في جانب الثقافة ، وهذا هو المدخل للسخرية منه ، وليس الأمر هكذا بالنسبة لناقصي المعقول ، فان شعور الانسان بعجزهم الطبيعي الذي لا حيلة لهم فيه ، ولا دخل لهم في وجوده يمنع من اتخاذهم مادة للتندر ، وان كان البعض يعتبرهم أحيانا وسيلة للتسلية وتمضية الوقت .

ان السخرية من الغباء تخفف عن الساخر ما يشعر به من أثقال الغباء على نفسه ، وتهز موضع الانتباه لدى الأغبياء كي تحملهم على شيء من الذكاء ، يعرفون السبيل اليه فيساعدهم في حياتهم ، ويخرجهم من المآزق ويصلح من أمرهم .

« دخل رجل على الشعبي وامرأته معه في البيت ، فقال ، أيكما الشعبي ؟ فقال الشعبي مشيرا الى امرأته : هذه .. » (٤٣) . في رد الشعبي هذا تهكم واضح وتعريض بغباء السائل ، واثارة لموضع الانتباه عنده ، أي لا تكن هكذا غبيا غافلا عما أمامك ، فهذه مسئوليتك نحو نفسك ونحو الآخرين .

على أننا يمكن أن نقدر هنا تغابي السائل لا غباءه ، وفي هذه الحالة فانه يمزح مع الشعبي وزوجته ، أو يتهكم بكليهما عن ادعاء التشابه الكبير بينهما الى درجة يصعب معها التعرف على أحدهما من الآخر .

وسخروا من الجور في الحكم لأسباب لا يقبلها المنطق ولا الضمير العام ، ولا يرضى عنها المجتمع ، ومن ذلك ما قاله المتوكل الليثي في الشعبي القاضي حين جاءته امرأة جميلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوجه تختصم اليه زوجها ، وكان يجب عليه ــ أخذا بأبسط مبادىء القضاء ــ أن يستمع الى رأى الزوج ليعرف أين الحق بينهما ، ثم يحكم للمظلوم على الظالم ، ولكنه لم ينتظر ذلك وحكم لها على زوجها .

وقال المتوكل مصورا علة هذا الموقف ومجسما وقوع القاضى تحت تأثير المرأة الجميلة :

فتن الشعبى لما ... رفع الطرف اليها
فقضى جورا على الخصم ... ولم يقض عليها
كيف لو أبصر منها ... نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه ... ساجدا بين يديها (٤٤)

ومن هذا النوع ما يتصل بالتحيز للأقارب وتفضيلهم على غيرهم ، وايثارهم بالمنافع العامة التى هى حق للناس جميعا ، وقد يكون هناك غيرهم أولى منهم بما لديهم من مواهب واستعدادات ، وليس لدى الأقارب من حق الا كونهم أقرباء فقط .

وقد عالج أدبنا الشعبى هذه الظاهرة لاحساسه بخطورتها ، وتعقبها حتى فى حياة الناس اليومية فنسمع على الألسنة « يا بخت من كان النقيب خاله » وبهذه الكلمة البسيطة التى تسرى فى المجتمعات بسهولة وتصادف لديها استحسانا وقبولا يعبر الانسان بها عن موقف معين لا يتسم بالرضا عن الظاهرة نفسها ، وكأنه يحمل على المنتفعين منها باللوم ، ويرثى لحال الآخرين الذين حرموا من الأقرباء .

وتهكموا « بالحذلقة » وسخروا منها لأن فيها غرورا وادعاء ومبالغة فى التظاهر .. « دخل أبو علقمة النحوى

على أيمن الطبيب ، فقال له : انى أكلت من لحوم هذه الجوازل فطلسئت طسأة ، فأصابنى وجع بين الوابلة الى دابة العنق ، فلم يزل ينمى حتى خالط الخلب وألمت له الشراسيف ، فهل عندك دواء ؟ فقال له الطبيب : خذ حرقفا وسلقفا وشرفقا ثم اهرقه ورقرقه واغسله بماء مروث واشربه بماء الماء ٠

فقال أبو علقمة : أعد ويحك فانى لم أفهم منك ، فقال له الطبيب : لعن الله أقلنا افهاما لصاحبه ، وهل فهمت منك شيئا مما قلت ؟ (٤٥) ٠

ومن الحذلقة ما نراه من اسراف فى المظهر من غير انسجام أو توافق ، وما اعتاده بعض الناس من مبالغة فى لون معين من ألوان الحديث أو تقعيره باستخدام القافات البارزة والكثيرة ، ومنها تكلف الجلوس أو الاشارة أو الحركة ٠

ويسخر الانسان من نفسه ليحول الأنظار الى الضحك من قوله بدلا من الضحك منه أو من عمل عمله ، فهو هنا مظهر للاحساس بأن الآخرين سوف يسخرون منه مما جعله يسرع الى السخرية من نفسه ليخفف من حدة النظر اليه أو من وقعها عليه ٠

وقد يكون التهكم هنا نوعا من التعالى على الحوادث والتنفيس عن الغيظ المكبوت أو كمن يقول « بيدى لا بيد عمرو » فهو لا يريد أن يترك لغيره فرصة النيل منه ، ولا سبيل الى رده عنه : الا بأن يعمل ما كان مفروضا أن يقوم الغير به ٠ من أمثلة ذلك ما يروى « أنه قيل لمزيد المدينى ٠٠ ما بال حمارك يتبلد اذا توجه الى منزلك ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحمير الناس الى منازلها تسرع ، فقال : لأنه يعرف سوء المنقلب » (٤٦) .

وقد يكون التهكم بالنفس لغرض الاضحاك فقط ، كما يرى الدكتور الحوفى فى منظر الجاحظ وهو حيران يجرى جريا لم يتكلفه منذ صباه ، وبغير حاجة يفهمها من يراه ، فيسأله صديق له عن الأمر ، فيقول الجاحظ له : « أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من مكان غلبنى فيه الذباب » . ويمكن أن نحس أن الجاحظ يسخر من المكان الذى تجمع فيه الذباب هكذا لقذارته ، ويصور نفسه بهذه الصورة المضحكة ليضحك هو وينفس عن نفسه ما يعانى من مضايقات هذا الذباب ، أو لعله يرمز الى بعض الناس الذين تجمعوا عليه وليس فيهم الا ما ينفره منه (٤٧) .

وقد يتهكم الشخص بنفسه ليحصل على خير يريده وكثيرا ما تجد هذا فى المجتمعات التى تضم شخصا يقصد عون الجالسين عن طريق اضحاكهم ، وتحضرنا نادرة لأبى دلامة (٤٨) حين ولدت له جاريته ، لم يبت ذات ليلة فأعد خريطة طويلة وقصد بها فى الصباح الى الخليفة المهدى فاستأذن عليه وأنشده بيتين فى المدح ، فقال المهدى ، أحسنت ، فما الذى غدا بك الينا ، قال : ولدت لى جارية يا أمير المؤمنين ، قال المهدى : فهلا قلت فيها شعرا ، قال : نعم قلت :

فما ولدتك مريم أم عيسى
ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوء
الى لباتها وأب لئيم

فضحك المهدى وقال له : فما تريد أن أعينك فى تربيته ؟ قال : تملأ هذه الخريطة ، ونشرها بين أصبعيه فملأها فوسعت أربعة آلاف درهم ٠

ومن هذا النوع ما نعرف فى بلاط الخلفاء ومجالس الأمراء والكبراء ممن يتخذون من أنفسهم مادة للضحك والسخرية حتى ينالوا من الرضا ما يسمح لهم أن يعيشوا عالة على السادة وعلية القوم ٠

ولعل هذا النوع بدأ ينقرض من مجتمعاتنا الا بقايا ما زالت موجودة ممن يطمعون فى الحظوة عند بعض من يأنسون عندهم الاستفادة أو التقرب من رؤسائهم لينالوا عن طريقهم حاجة ما ، فهم فى سبيل ذلك يقبلون سخرية الرئيس بهم ، أو يسخرون هم من أنفسهم فى حضرته لكى يدخلوا السرور عليه ، ويقتربوا من نفسه ٠

وقد تكون السخرية هنا بالفعل لا بالقول فتكون بامتهان النفس ، والنزول عن انسانيتها فى مقابل تحقيق الغرض٠ وأذكر بعض العظات الاجتماعية التى تنقد المجتمع في أسلوب غير مباشر وتسخر من هؤلاء الذين يضعون أنفسهم فى غير مواضعها ، تقول بعض هذه العظات على سبيل المثال ، وان كانت باللغة العامية « علشان تعلا وتعلا وتعلا لازم تطاطى تطاطى تطاطى » ٠

وقد عالجت مسرحياتنا هذا اللون من السخرية بالنفس، خاصة التى يريد صاحبها أن يكسب موقفا ، فنرى أحد الشخصيات يكرر فى أكثر من مشهد قوله : « أنا قليل الأدب » أو « أنا سافل » لكى يعنى ذلك أنه سلم برأى غيره أو تنازل عن موقفه فى سبيل تحقيق غاية له ٠

وقد يكون التهكم بالنفس ليتخلص صاحبه من مأزق (٤٩) • أو لينجو من الملامة أو العقوبة ، ومن ذلك أن أبا دلامة دخل على المهدى وعنده جماعة من الأشراف ومن بني هاشم والوزير محمد بن الجهم ، فقال المهدى لأبى دلامة : والله لا تبرح مكانك حتى تهجو أحدا هنا والا قطعت لسانك أو ضربت عنقك ، فنظر اليه القوم ، وكلما نظر الى واحد منهم غمزه بأن على رضاك ، قال أبو دلامة : فعلمت أنى قد وقعت ، ولم أر أحدا أحق بالهجاء منى ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسى ، فقلت :

ألا أبلغ يديك أبا دلامه
فلست من الكرام ولا كرامه
اذا لبس العمامة كان قردا
وخنزيرا اذا نزع العمامه
وان لبس العمامة كان فيها
كثور لا تفارقه الكمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما
فذاك اللؤم تتبعه الدمامه
فان تك قد أصبت نعيم دنيا
فلا تفرح فقد دنت القيامه

فضحك القوم ولم يبق أحد منهم الا أجازه (٥٠) •

ولعل هذا النوع من السخرية بالنفس يمثل حالات فردية قد يكون لها نظائر ، وقد تلحق بأحد الدوافع التى أشرنا اليها ، ولكنها فى صورتها هذه تعنى أن لدى صاحبها الاستعداد لأن يضحك من نفسه وان لم يكن عن طريق تقديمها كبش فداء •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يتخذ الانسان السخرية من النفس وسيلة للشكوى من الحرمان ، والتخلص من آلام الفقر والعذاب أو خيبة الألم ، كقول عمر بن المنذر فى وصف حاله . وفى حديثه تشاؤم واحساس بسوء الحظ :

عجبت لأقدار على تتابعت
بنحس فأفنى طول دهرى التعجب

ولما التمست الرزق فانحل حبله
ولم يصف لى من بحره العذب مشرب

خطبت الى الاعدام احدى بناته
لدفع الغنى اياى اذ جئت أخطب

فزوجنيها ثم جاء جهازها
وفيه من الحرمان تخت ومشجب

ولو تهت فى البيداء والليل مسبل
على دياجيه لما لاح كوكب

ولو خفت شرا فاستترت بظلمة
لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب

ولو جاد انسان على بدرهم
لرحت الى رحلى وفى الكف عقرب

ولو يمطر الناس الدنانير لم يكن
بشىء سوى الحصباء رأسى تحصب

ولو لمست كفاى عقدا منظما
من الدر أضحى وهو ودع مثقب

وان يقترف ذئبا بيرقة مذنب
فان برأسى ذلك الذئب يعصب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وان أر خيرا فى المنام فنازح
وان أر شرا فهو منى مغرب

ولم أغد فى أمر أريد نجاحه
فقابلنى الا غراب وأرنب

ويسخر الانسان من نفسه ليسخر ضمنا من أشياء أخرى فى الحياة من حوله اذا وقفت فى طريقه ، وحالت دون تنفيذ ما يريد فلم يوفق (مثلا) فى أمر ما بسبب الأنظمة غير الصالحة والروتين الضيق الأفق ، ونعود هنا الى الراوى بطل قصة « ميلاد جديد » حين حرم من وظيفته بسبب تأخره فى تقديم شهادة ميلاده ، فوقف يتأمل اصرار الحكومة على شهادة الميلاد ، ويتعجب قائلا : ان هذا شىء غامض ، فأنا أبدو من بعض النواحى وكأنى شيخ فى السبعين ، وأبدو فى بعض النواحى الأخرى ، وكأنى صبى يدرج ، أو كأنى لم أولد بعد ، ولكن هذه النواحى كلها لا تهمهم ، فلماذا يصرون على معرفة شىء !

ولعبت السخرية فى ميدان السياسة دورا خطيرا ، بما تملكه من تأثير وقدرة على لفت الأنظار وجذب الانتباه نحو الظواهر البارزة فى نظم الحكم أو أخلاق بعض الساسة وانحرافاتهم ، وتستطيع أن تكون رأيا عاما أو تحرك الرأى العام نحو هدف معين .

من التهكم السياسى قول بشار بن برد يسخر من الخليفة المهدى وضياع الأمر من يده الى يعقوب بن داود :

بنى أمية هبوا طال نومكم
ان الخليفة يعقوب بن داود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الرق والعود (٥٢)

ولما ضعفت الخلافة العباسية وتنازع الوزراء السلطة ، حتى أصبحت الوزارة منصبا محفوفا بالأخطار لا يطمأن اليه ولا يأمن صاحبه تقلبات الزمن ، سخر الشعراء من الوزراء ومن فاقهم في أماكنهم واضطراب الحياة من حولهم . وهذا أحمد بن اسحق بن البهلول يسخر من تولى ابن الفرات الوزارة للمرة الثالثة في قوله : (٥٣)

قل لهذا الوزير قول محق
بثه النصح ايما ابثاث
قد تقلدتها ثلاثا ثلاثا
وطلاق البنات عند الثلاث

فالشاعر هنا يذكر الوزير بأن وزارته هذه هي المرة الأخيرة ، وكأنه يحذره أن يقع فيما يضعه تحت طائلة العقاب بالطرد ، شأنه شأن المرأة التي لم يعد بينها وبين الخروج من بيت زوجها ومن دائرة الحياة الزوجية الا خطوة واحدة ولا سبيل بعدها الى العودة .

وبالفعل لم يمض على ابن الفرات وقت طويل بعد ذلك حتى عزل عن الوزارة .

وكذلك لم يسلم الوزير الذى تقلد الوزارة عدة مرات من لسان الساخرين فهذا « ابن تقلة » يتولى الوزارة مرات في عهود المقتدر بالله والراضي بالله والظاهر بالله (٥٤) . وكان يكرم ويعظم نفوذه ثم يعزل ، وفي عهد الراضي طرد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقطعت يمينه ثم عاد الى الوزارة ، حتى حسب الناس أنه لن يعزل منها بعد ذلك ، ورغم هذا فقد قال بعضهم :

وقالوا العزل للوزراء حيض
لحاه الله من أمر بغيض
ولكن الوزير أبا علي
من اللائي يئسن من المحيض

وسخر الشعراء والأدباء من العيوب الاجتماعية التي تهدد المجتمع بالتخلف والجمود وتسبب لأفراده الضيق والسخط ، ولو أنهم حبسوا هذا الضيق وانطووا على السخط دون أن يعبروا عن أنفسهم لأضر بهم ذلك كثيرا ولعجزوا عن حماية المجتمع والمحافظة عليه وضمان تقدمه .

فالسخرية في هذه الحالة تعبير عن النفس وترويح ، وعقاب لمن يجترئون على المجتمع ومقدساته وعوامل بقائه ، ووضع مقاييس للذوق العام وتأديب المنحرفين واصلاحهم حين لا يكون انحرافهم هذا داخلا تحت قانون من قوانين الردع والعقاب .

والسخرية هنا تحتاج الى خبرة بالمجتمع ودراية بأحواله ، ومعرفة بكل تطوراته ، والى ذوق رفيع مرهف وقدرة على الصياغة الأدبية ، في ذكاء وحسن تصوير ، فهي هنا نوع من النقد ، النقد الاجتماعي في أسلوب ساخر يخلص النفس من متاعبها ومن عقدها ، ان صح أن تكون هناك عقد في مثل هذه الظروف ، ويترك لدى الجمهور استعدادا للتأثر والحركة ضد الاعتداءات الموجهة للمجتمع .

وغالبا ما يوجه النقد هنا الى شخص ما حقيقي أو متخيل

أو الى جماعة يمثلون خلقا اجتماعيا أو ظاهرة من الظواهر المعروفة ٠

فاذا سخروا من بعض اللحى الطويلة ، أو من أصحابها، فانما يوجهون النقد الى التخفى وراء المظاهر الخادعة ، والتستر بالشكليات بينما الواقع انحراف ونفاق وفسق ٠

واذا شكا الشعراء اعراض الملوك والحكام عنهم ، وقلة رزقهم ، وضيق الحياة عليهم ، فانما يصورون حالات من البخل الاجتماعى تهدد حياة الأدباء وتحطم أمنهم ومستقبلهم فى ظل ظروف معينة كان أمثالهم فيها يعتمدون على العطايا والهبات التى تعود عليهم وتعطيهم الفرصة لكى يواصلوا حياتهم الأدبية ونشاطهم الاجتماعى العادى ، وان كنا فى وقتنا الحاضر لا نستسيغ ذلك ٠ ويحضرنا مثال لهذا النوع من الشكوى والتهكم بأولى الأمر الذين تنكروا لشاعرهم ولم يكافئوه على موقفه منهم وخدماته لهم ، فقد صور « جحظة البرمكى » (المتوفى ٣٢٤ أو ٣٢٦ هـ) (٥٥) بوسه تصويرا ساخرا بحاله وبما وصل اليه بالذين خدمهم ولم يقدروا خدماته حيث يقول :

تعجبت اذ رأتنى فوق مكسور
من الحمير عفير الظهر مضرور
فقلت لا تعجبى منى ومن زمن
أنحى علىّ بتضييق وتقتير
بل فاعجبى من كلاب قد خدمتهم
تسعين عاما بأشعارى وطنبورى
ولم يكن فى تناهى حالهم بهم
حر يعود على حالى بتغيير

وسخروا من المتمشيخين الذين يدعون التصوف ويخدعون العامة ، ويتسترون وراء مظاهر معينة وعبارات موحية وهيبة مصطنعة ، وينشدون قصصا خرافية من أكاذيبهم ، وهم أول من يعرفون كذبها وافتراءها ليتركوا العامة فى جهلهم ويستغلوا هذا الجهل ليحققوا عن طريقه مكاسب ومغانم بغير حق ، وما زلنا نردد هذه العبارة الموحية التى يستخدمها الناس لتذكير بعضهم بعضا بصحة الحقيقة وكذب الادعاء · « احنا دافنينه سوا » أى نحن نعرف الحقيقة معا ، ولا ينبغى أن نتمادى فى الخداع حتى خداع من يعرف ·

وأمثال هذا كثير مما سنتعرض له بعد ذلك لأن السخرية السياسية والاجتماعية لها ميدان خصب فى مصر باعتبار أن المصريين من أقدر الشعوب على صياغة الفكاهات الساخرة ، وتحويل ما يعتمل فى نفوسهم الى نكات وسخريات يصبونها على مصادر الاضطراب والتقلب فى حياتهم ·

وللمصريين تاريخهم الطويل الملىء بالحيوية والتعبير عن النضال بكل صوره ، والصبر على الحياة ، وما فيها من مفارقات ، الصبر الذى لا يمنع المصرى من أن يقاوم ويستمر فى المقاومة حتى ينتصر ، وان طال به عهد النضال·

لهذا كان من متطلبات البحث أن نخصص فصلا لدراسة السخرية المصرية ، والتعرف على خصائصها وعوامل وجودها ، ومدى فعاليتها وقوة تأثيرها وخاصة أن الموضوع يتعلق منذ البداية بأديب مصرى تأثر كثيرا بمصريته ، وأخلص لروحها وعبر عن طابعها الأصيل ، فسرى كل هذا فى أدبه نثرا وشعرا ومضى أسلوبه الدافىء الرائع وهو ينطق بمصريته ويترجم عنها ·


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

السخرية فى مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



السخرية فى مصر

الشعب المصرى شعب ساخر بطبعه ، ومرح ، يحب الفكاهة ، ويرسل النكتة فى أحرج المواقف ، وهذه قدرة طبيعية فى هذا الشعب الذى عاصر الزمن فى كل ظروفه ·

حقا ان لكل شعب من الشعوب فكاهاته ومواقفه الساخرة ، وتحمل لنا الصحافة والمطبوعات الأجنبية الوافرة صورا ومواقف كاريكاتورية يقوم فيها الرسم والكلمة والصورة الأدبية بدور نقدى ساخر له أغراضه الاجتماعية والسياسية وقد لا يخلو شعب أو قوم من ذلك لأنه انعكاس طبيعى للحياة على نفس الانسان ·

ولكن الشعب المصرى فى هذا اللون من ألوان التعبير قد سجل تميزا واضحا ربما فى الكم والكيف معا ، حتى أصبح يشتهر بذلك فى مختلف دول العالم ولا شك أن طبيعة الحياة المصرية الهادئة وجوها الصافى ونيلها الذى يشيع التفاؤل والأمل فى النفوس ، كل هذا قد هيأ النفس المصرية للانفتاح

والتبسط ، فلا يستبد بها الحزن والألم ، ولا تستسلم ليأس وتواجه ما تعانيه بروح قوية ثابتة ٠

ولقد تعرض الشعب المصرى ـ الذى لم تظلمه الطبيعة ، ولم تقصر فى ارضائه والتعاطف معه ، فكانت دائما فى جانب العطاء له ، فالسماء فى مصر دائما صافية ولا يضطرب الجو الا قليلا ، واذا اضطرب فلا يستمر وقتا يثير الانزعاج والكآبة ٠ وقلما عانت البلاد من هزات أرضية شديدة ، أو قاست مرارة الحرمان الطويل والمجاعات المتكررة التى ألفناها عند كثير من الشعوب على أثر الكوارث الطبيعية التى تنزل بهم ، من الزلازل المدمرة أو انعدام المطر ، أو الفيضانات الخطيرة التى تعصف بالسكان وتشرد الآلاف منهم ٠

لقد تعرض الشعب المصرى ـ رغم حنان الطبيعة عليه ـ لهجمات شرسة من أجناس دخيلة فرضت عليه نفسها بجهل وغطرسة وحماقة ، وكان يحس بأنه فى واقع الأمر أسمى من الغزاة عقلا وروحا ، أو أنه لا يقل عنهم ذكاء ووعيا بالحياة ، وقد سبقهم جميعا الى انشاء الحضارة ، وخلق معالم ثقافية عالية ، رأى فيها البشر نموذجا قياديا للحضارات والثقافات الانسانية ٠

وهنا تكمن مشكلة الشعب المصرى أو « عقدته » الأزلية القديمة ، والمصاحبة له على مختلف العصور ، لا يتخلص منها الا لفترات محدودة ، سرعان ما ترتد اليه أو يرتد اليه الاحساس بها عنيفا ٠

ولعل هذا هو الشىء العنيف الوحيد الذى يتعرض له

شعبنا الأصيل ويعانى منه ، بينما تعامله الطبيعة على الدوام برقة وحنو .

الشعب الذى أعطى الحضارة الانسانية مقوماتها وعوامل وجودها وبذور تطورها وانطلاقها يتعرض فى مختلف مراحل حياته لرد فعل عدائى قاس ، لا يحترم أصالة هذا الشعب ولا يقدر فضله .

الشعب الذى يمنحه عطاؤه الانسانى هذا الشعور بالقوة والعظمة وأهمية الوجود ، يرى نفسه يتعرض للغزو ، وقد يضعف أحيانا ، عن حماية أرضه ، ويعجز عن رد الغزوات، ويعيش معظم حياته يناضل ليطرد هؤلاء الغزاة الذين يرى فى قوتهم بالنسبة له ضعفا حقيقيا وعجزا ، ولكنهم مع ذلك وبقوتهم المادية ، قد استطاعوا أن يهزموا فيه قوة الحماية على أرضه وممتلكاته .

لماذا لم يطور نفسه ، ويغير سلوكه ، ويوجه حياته وجهة جديدة .. ؟ لماذا لم يتعلم مفهومات جديدة وذات نوعية حضارية ، رغم مر السنين عليه ، فيتحول الى الحضارة التى يحميها السلاح ، الى توفير القوة التى تمكنه من التفوق المادى والعسكرى على هؤلاء الذين يشعر فى قرارة نفسه أنهم لا يملكون من المواهب ما يعطيهم هذا الحق فى امتلاك الاخرين .

ان الشعب المصرى قد عاصر التناقض منذ فجر حياته ، لأنه عاش هذا التناقض ، وأحس أنه يحتويه ، ولعله لم يتخلص من هذا الاحساس حتى اليوم ، ولعل ذلك هو ما جعله يمجد الأبطال حتى ما يشبه التأليه ، لأن كل بطل من أبنائه

يقوى عنده أملا فطريا فى الخلاص من هذه العقدة العجوز المستعصية • فما ان يتهاوى البطل حتى يعود الشعب الى نفسه ويستخدم كل أسلوب يعرفه خلال عمره الطويل لكى يستعد لتجارب جديدة (٥٦) •

السخرية فى الشعب المصرى تمثل استعلاء على الأجنبى، واستخفافا به ، وتعبيرا عن رفض الهزيمة التى منى بها المسئولون عن حمايته ، وكأن جانبا واحدا من الشعب هو الذى تعرض للهزيمة وليس الشعب كله ، ودون أن يقر الشعب هذه الهزيمة أو يقبلها •

انها الروح ، الروح الباقية الخالدة خلود الحياة ، خلود النيل القوى المتجدد الخلاق ، وخلود الجو الصافى الجميل ، وخلود العبقرية الانسانية التى تعيش بالحب والعطاء والتعاطف حتى مع الموت كأنه الوجه الآخر للحياة •

السخرية فى الشعب المصرى نوع من مقاومة الأجنبى ، والحاكم الجاهل المتسلط ، المقاومة الواعية ، الفيلسوفة ، لأنها مقاومة الانسان بعقله ومشاعره وكل احساساته وكل خبراته وانفعالاته مع التاريخ ••• المقاومة الحية التى تعطيه الأمان وتعبر فى نفس الوقت عن ارادته التى لا تفنى ولا تقر الخوف ، وتسعى الى أن تتجاوزه •

وهى نوع من الانتقام من البطش والجور واشاعة روح هذا الانتقام على أوسع مدى حتى يكون الشعب كله بجميع أبنائه ، وجميع طوائفه على مستوى الموقف •

بهذا الانتقام المقدس يدافع الشعب عن نفسه ضد الطغيان بجميع أنواعه ولعله ظل دافعا قويا حيا الى اليوم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأبقى على الشعب كيانه ، وحفظ له حماسه ، ومكنه من النصر ـ وان جاء بطيئا ـ على كل الغزاة فلقد حولت السخرية هؤلاء الغزاة والطغاة ، فى نظر الشعب الذى يسمع ويردد السخرية ويصوغها ويتعمقها ويعيشها جادا وهازلا ـ حولتهم السخرية من كبار الى صغار ، ومن حمى منبع حصين يبعث الخوف والرهبة فى النفوس الى دمى هزيلة لا قداسة حولها ولا رهبة ، ولا خوف ، يزدادون تفاهة فى نظر الشعب بقدر ما يزداد استخفافا بهم ، واحتقارا لشأنهم ، وتقوى روحه على ضعفهم وتهالكهم ، وينتهى الأمر بالنصر للشعب المغلوب على العنصر الغالب واحتوائه ، وسيطرة المغزو على أرواح الغزاة فاذا أفكارهم قد تغيرت ، واكتسبوا عند عودتهم من حيث أتوا عواطف جديدة ووعيا جديدا بالانسانية وبالحياة ، وربما نشأ من ذلك تطعيم لحضارتهم البعيدة ، وتهذيب لحياتهم وحياة غيرهم من البشر فى مختلف أنحاء المعمورة .

ومع هذا الجانب المتعلق بالصراع بين الشعب وبين الطامعين فيه ، فان السخرية خاصة ، والفكاهة بوجه عام ، أدت وتؤدى عند المصريين وظائف نفسية وقومية هامة اذ انها تخفف عن نفوسهم وتتيح لها أسلوبا مناسبا للتعبير،وتخلصها من آلامها ، أو تهدىء هذه الآلام وتهذبها ، وحين تجدد فيها روح المقاومة والصبر على المتاعب ، والتماسك أمام الأحداث، وربما أتاحت لهذا الشعب ، جمال السكون النفسى فى فترات من تاريخه ، كان يرى فيها أن يلجأ الى الانعزال عن الحكومة الدخيلة ، وعن الطغيان ، وعن بطش الأجنبى فى عهد غروره وصلفه ، فيخلو الى نفسه ، وينصرف بها عن الاهتمام بالسياسة ، أو التفكير الجاد فى مستقبل البلاد ، كأن الأمر

لا يعنيه ، وكأنه لا يحفل بما يجرى حوله من أمور ، ايثارا منه لكرامته ، ومحافظة على توازنه النفسى ، ولكنه سرعان ما يكتشف انها كانت عزلة محدودة سطحية ، وهدوءا تحضيريا تستعيد بعده النفس شعورها بذاتها وقوميتها ، وتتمثل الظروف المحيطة بها فتنهض لاسترداد الحق واثبات الوجود وانتزاع السيادة على الأرض والمقدسات وتحقيق الحرية والديمقراطية ، واجراء الاصلاحات وتطوير البلاد ، والنهوض بها على كل المستويات ، متخذا من روحه الفكهة وسخرياته البليغة قوة سخرية تحقق له المعجزات ، ومقارنا بين جمال وطنه ، وعظمة بلاده وبين صلف المحتلين وغرورهم وسوء معاملتهم وجهلهم الفاضح ، ومحاولاتهم الحمقى لطمس معالم الشخصية المصرية وقهرها ، فكان له من هذا التضارب مادة جديدة للفكاهة والسخرية ، يستخدمها الأدباء والشعراء ، وحفلت بها الندوات الأدبية والصحافة العامة والمتخصصة ، ويسمر بها العامة فى ليالى الصيف الجميلة وأمسيات الشتاء الهادئة ، والفلاحون البسطاء المتعلقون بالوطن والأرض ، والذين يعيشون التاريخ حيا فى نفوسهم ، نابضا بالأمل ، صبورا متفائلا كأن الأمر لا يؤثر فيه أو كأنه قريب منه ، بينما هو يعى كل شىء ٠

وهكذا لا تلبث الحياة المصرية طويلا حتى تمتلىء بالحركة من جديد ، وتبرز فيها العناصر الأصيلة التى حسبها الجاهل قد نامت الى الأبد ٠ ويبدو المصرى على حقيقته قويا هادرا ، محبا لأرضه ، وكل ما عليها ، وكل ما يتصل بها من فنون وسياسة واجتماع ٠

ونورد فيما يلى أمثلة من سخرية المصريين مرتبطة بتاريخهم فى القديم والحديث ٠

١ ـ تعرضت مصر الفرعونية لغزوات الفرس واليونان والرومان ، كما تثير الدرة الثمينة النادرة فى نفوس الطامعين هوس الامتلاك مهما كانت الوسائل ومهما كان نوع الثمن ٠

وكانت الغزوات متتابعة ثقيلة لا تكاد البلاد تفرغ من احداها ، وتتخلص بعض الشيء من عذابها وويلاتها حتى تعود اليها أخرى بعذابات وويلات أشد من سابقاتها وأقسى كأنه قدرها منذ فجر التاريخ ، فهل تضعف وتستسلم ؟ وكيف لها ذلك وهى تملك من وسائل الصبر ما يعز على الغالبين أن يعرفوا الطريق اليه !

انها تملك التعالى على الأحداث والاستخفاف بها ، ومواجهتها بالفكاهة الساخرة والتهكم اللاذع ، فتنفس عن نفسها من ناحية ، وتضرب بالسلاح البديل الذى لا ينفد من ناحية أخرى وتحاول أن تجد لكل شخصية أو عهد ما يصلح مادة للفكاهة ، وموضوعا للتهكم والدعابة ، وتختار من الألقاب والصور ما يقوم بالدور الهزلى المطلوب ٠

سخر المصريون من ظلم الفرس وعنجهيتهم ، وأطلقوا على بطليموس الأول لقب الزمار وسخروا من زواج بطليموس الثانى أخته (٥٧) ٠

وقد تأثر اليونانيون بهذه السخرية وأدركوا سرها وقوتها ، واعترفوا بقوة الروح المصرية ، وقد عبر عن ذلك شاعرهم ثيوكربتوس الذى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث ق٠م حين قال : « ان المصريين شعب ماكر لاذع القول روحه مرحة » ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والواقع أن المرح لدى المصريين لم يقف عند حدود الحالة النفسية المميزة بل يكاد يكون أسلوب حياة ومنهجا فكريا ، نرى ذلك فى دعوة الحكماء الأقدمين ورجال الفكر للناس أن يجعلوا حياتهم طلقة مليئة بالبهجة ، وألا يدعوا شيئا يقهر فيهم هذه الروح ، حتى الموت فانهم سووا مشكلتهم معه واعتبروه مرحلة انتقال لا يجب أن تخلف وراءها الكآبة والحزن ٠

ويتضمن الأدب المصرى والأغنيات المصرية الكثير من هذه المعانى ، ذات الدلالة القوية على حب الشعب للحياة ، وايمانه بها رغم كل شىء ! ومن أغانى المصريين فى ولائمهم ما يصور ذلك حيث تقول الأغنية :

« كن فرحا حتى تنسى أن القوم سيحتفلون يوما بموتك ، فمتع نفسك ما دمت حيا ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، ودلك جسمك بالروائح الذكية المقدسة ، وزد كثيرا فى المسرات التى تملكها ولا تجعل قلبك يكتئب » (٥٨) ٠

وهذه أغنية من أغانى الدولة الوسطى نقشت فى قبر الملك « انبتف » أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ، وتعرف باسم أغنية العازف على الجنك :

افرح حتى تنسى قلبك
ان الناس سوف يترحمون عليك
وزد ما عندك من مسرات
ولا تدع قلبك يبتئس
وافعل ما يحلو لك فى الأرض
حتى يأتيك يوم النحيب (٥٩) ٠

وسخر المصريون من الرومان ، وتهكموا بحكامهم ، فلقبوا القيصر « فسبسيان » بلقب تاجر السردين ، وقالوا عنه انه لا يساوى ستة مليمات • ولقبوا قيصر آخر بلقب « النسناس المدلل الصغير » (٦٠) •

وقد كلفهم ذلك التهكم كثيرا لأن الرومان على قساوتهم كانوا يضاعفون من هذه القساوة كلما رنحتهم الفكاهة المصرية الساخرة ، وتمادوا فى غلظهم ، ولكنهم المصريون : لا يلقون هذا السلاح أبدا ، ولا يكفون عن الدفاع بطريقتهم الخاصة حتى يؤتى الدفاع ثماره ويحقق نتائجه •

وحتى اذا كانت النتائج أحيانا تعنى التعبير عن النفس واطالة احتمالها لكفى ، ولا يهم ما يترتب عليه من عناء ، والواضح أن الرومان تأثروا بهذه السخريات حين أصدروا قرارا يحظر على المحامين المصريين الدفاع فى محاكم الاسكندرية لما عرف عنهم من تهكمهم بالقضاء الرومانى وتندرهم بالقضاة الرومان (٦١) •

٢ ــ لم تفارق مصر روحها الساخرة المرحة فى عصورها الاسلامية • وكانت المجالس فى عهد ابن طولون والاخشيد مسرحا للفكاهات والنوادر • وهذا ساخر مصرى يدعى « سيبويه المصرى » الذى كان يظهر الجنون والحمق ليثير الضحك بينما هو جاد فى حديثه لاذع فى سخريته من الدولة الأخشيدية وفى سخرياته نقد مر شديد ، وموقف معين واضح من ظلم العهود الاقطاعية التى عانتها البلاد ، وكانت فيه صراحة يستغل فيها ما يظهر من جنون مدعى ، رأى الناس محتشدين لرؤية الاخشيد أثناء مروره الى الصلاة ، فصاح فيهم : ما هذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ، سلطت

عليهم قاصفة يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وتغلى لهم قلوب واجفة ، فقال له رجل : هو الاخشيد ينزل الى الصلاة فقال : هذا الأصلع البطين ، والمسمن البدين قطع الله منه الوتين ، ولا سلك به ذات اليمين أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قبل الله صلاة له ولا قرب له زكاة ، وعمر بجثته الفلاة .. (٦٢) .

٣ ـ وسخر المصريون من الفاطميين ومن نسبتهم الى السيدة فاطمة الزهراء ، وكان الحاكم بأمر الله مادة خصبة لفكاهاتهم بما ظهر عليه من اضطراب فى الفكر وفى الحكم وفيما كان يصدره من قرارات وما كان يدعيه من علم الغيب . ومن ذلك أن أحدهم ألقى على منبره بطاقة كتب فيها شعرا صريحا يندد بموقف الحاكم ويظهر له موقف الناس منه حيث يقول :

بالظلم والجور قد رضينا
وليس بالكفر والحماقة
ان كنت أعطيت علم غيب
فقل لنا كاتب البطاقة

وكانت السخريات والفكاهات التى تنتشر هنا وهناك فى المناسبات المختلفة تحقق آثارها بسرعة ، وتؤدى الى النتائج التى يريدها الشعب ، فعندما رأى الشعب أن الفاطميين قد أسرفوا فى الاستعانة باليهود ، وتوليتهم المناصب الهامة فى الدولة ، سخر من ذلك وعبر بسخريته عن استيائه ، وتأثر بذلك الحكام ولم يملكوا الا الاستجابة لمطالب الشعب التى مثلتها سخرياته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن أمثلة ذلك أن صدقه بن يوسف الفلاحى تولى وزيرا فى عهد الملك الفاطمى الظاهر (٤٣٦ هـ ـ ١٠٤٤ م) ثم انضم اليه يهودى آخر ليساعده ، اسمه أبو سعد التترى وتهكم الشعراء من ذلك وهالهم أن يجدوا لليهود هذه المكانة ، وقيل فى ذلك شعر كثير منه :

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم
ومنهم المستشار والملك

يأهل مصر انى نصحت لكم
تهودوا قد تهود الفلك

وبجانب هذه الفكاهات السياسية الساخرة نجد فكاهات اجتماعية لا تقل فى الجد الذى تشيعه عن سابقتها ، فهذا أحدهم يصور قبح منزله وضيقه وامتناع الشمس عليه :

لى بيت كأنه بيت شعر
لابن حجاج من قصير سخيف

أين للعنكبوت بيت ضعيف
مثله ، وهو مثل عقلى الضعيف

بقعة ند مطلع الشمس عنها
فأنا مذ سكنتها فى الكسوف

٤ ــ ورغم الحروب الصليبية التى جندت لها البلاد كل قواها ، فلم تفقد الفكاهة المصرية روحها الساخرة وطابعها التهكمى ، وأشهر من برز فيها القاضى الفاضل (١١٣٥ ــ ١٢٠٠) رئيس ديوان الانشاء فى عهد الناصر صلاح الدين

وابن سناء الملك الشاعر المصرى المولد والوفاة (١١٥٠ ــ ١٢١٢ م) وبهاء الدين زهير (١١٨٦ ــ ١٢٥٨ م) ، وفى هذا الوقت وضع أسعد بن مماتى صاحب الجيش والمال فى عهد صلاح الدين كتابا أسماه : (الفاشوش فى حكم قراقوش) يسخر فيه من قراقوش التركى ، الذى كان يترك له صلاح الدين أمر البلاد حين يغيب عنها فى الحروب الصليبية، وذلك لأن قراقوش كان يتصف بالغباء والقسوة ، وقد استهل المؤلف كتابه بقوله :

« اننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ولا يقدر أحد ــ من عظم منزلته ــ أن يرد على كلمة ، ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين » ٠

ويرى الأستاذ كازنتوفا المستشرق الذى عنى بنشر هذا الكتاب أنه لم يؤلف لغرض السخرية من قراقوش فقط ، بل للسخرية من الدولة الجديدة التى خلفت الدولة الفاطمية ٠

وابن مماتى يعبر فى هذا الكتاب عن سخط الشعب المصرى ، ومقاومته للأيوبيين الأجانب بطريقة المصريين فى السخرية من الحكام الأجانب عموما وقوادهم وموظفيهم ، هذه السخرية التى تظهرهم فى صور مضحكة من البلاهة والغفلة والغباء ٠

وفى هذا الكتاب فكاهات صغيرة ساخرة تصور غباء قراقوش وجهله وغروره ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة شكيا اليه رجلا أجرودا عبث بلحتيهما فظن قراقوش انهما هما اللذان نتفا لحيته ، فأمر بوضعهما في السجن حتى تطلع لحية الرجل ، وبهذا ظن أنه قد أحسن الحكم ووضع الأمور فى نصابها ٠

ونادرة أخرى لا تقل فى تصوير بلاهة قراقوش وغبائه عن سابقتها ، فقد قدمت الشرطة له أحد غلمانه متهما بالقتل ، فأمر بشنقه ، ولما أخبروه بأنه حداده وفى قتله حرمان له ممن ينعل فرسه نظر أمام بابه فرأى قفاصا ، فقال : « اشنقوا القفاص وسيبوا الحداد » ٠

بهذا الأسلوب تسخر القصة من جهل الحاكم وظلمه ، ومخالفة الحكم لمنطق الحوادث ومنطق القانون ، وعدم انسجامه مع العقل والعرف العام ، وهذا ما جعلها مضحكة رغم انها تتعلق بحادثة قتل ٠

وهذه نادرة أشد لذعا يقصها ابن مماتى عن قراقوش أيضا حين طلب الى أحد القضاة أن يأتى له بحساب القمح والشعير والفول والحمص ، فقدم له القاضى الحساب فى صحيفة واحدة ، فأمر بحبس القاضى . فتنبه القاضى للسبب وأرسل له حساب كل صحيفة على حدة ، وعند ذلك عفا عنه قراقوش لظنه أنه ما استطاع ذلك الا بعد أن فرق بين الأصناف الأربعة ٠

وقد جاءت نوادر مماتى فى هذا الكتاب بأسلوب شعبى مع انه شاعر لانه يقصد أن تشيع هذه النوادر بين العامة ليكون مدى تأثيرها أوسع وفاعليتها أقوى ٠

والظاهر ان ابن مماتى كان يصر على مطاردة قراقوش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من كل جانب وتضييق الخناق عليه فلم يترك الناحية الدينية دون مساس حيث صور قراقوش يجهل القرآن ولا يستطيع أن يفرق بينه وبين الكلام العادى ، من ذلك ما يرويه من أن شاعرا تقدم اليه ليمدحه ببعض شعره فلما فرغ من انشاده قال له قراقوش : « يا مقرىء لقد قرأت قراءة طيبة » فقد ظنه يتلو قرآنا ٠

وقد أصبحت شخصية قراقوش بذلك وأمثاله شخصية هزلية لها وجودها الرمزى ، وتعطى انطباعا يتناول كل حاكم تركى أو أجنبى ٠

ويرى الدكتور شوقى ضيف (٦٣) أن كلمة (كراكوز) التى تطلق فى الشام وتركيا على خيال الظل ترجع فى اشتقاقها الى اسم قراقوش ، وقد دخلت الى مصر باسم أراجوز ، وان فى ذلك ما يدل على مدى توفيق ابن مماتى فى التشنيع على قراقوش والتندر به ٠ وهو تندر نفذ منه الى كل ما كان يريده المصريون فى عصر صلاح الدين من ضحك على دولته وتفكه وسخرية من رجاله الذين ليسوا فى مستوى المسئولية خاصة ما كان منهم من الأجانب ، ولم يمنع من ذلك ما كان لشخص صلاح الدين من تقدير بين طوائف الشعب المختلفة التى تعرف ظروف حكمه والصعوبات التى مر بها فى جهاده المخلص لطرد الصليبيين ٠

ومن السخريات التى تأخذ طابع التندر والفكاهة ما قاله البهاء زهير فى بغلة لأحد أصدقائه هزيلة ضعيفة بطيئة السير :

لك يا صديقى بغلة ليست تساوى خردلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمشى فتحسبها العيون على الطريق مشكلة
وتخال مدبرة اذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويلة حين تسرع أنملة
تهتز وهى مكانها فكأنما هى زلزلة

٥ ــ وسخر الشعراء من المماليك (٦٤) كما سخر العامة منهم ، فكانوا يطلقون عليهم ألقابا تميز كلا منهم ، وتحدد نصيبه من السخرية ، فيسمون بيبرس (أركين) ، ويطلقون على نائبه التترى (دقين) لأنه كان أجرد ، وينبزون « طشتمر » بلقب (حمص أخضر) (٦٥) ويستغلون قدرتهم على التورية واللعب بالألفاظ فى سخريتهم من ذلك قول أحدهم بعد مقتل السلطان حسن وكان خليعا ماجنا محبا للنساء :

لما أتى للعاديات « وزلزلت
حفظ النساء » وما قرا للواقعة

وتوسع شعراء عصر المماليك فى التورية ٠

ومن أشهرهم السراج الوراق والحمامى ، يقول الوراق فى شخص دعاه الى طعام فيه رجله :

وأحمق أضافنا ببغله
قد مد فى وجه الضيوف رجله

وقول ابن الصائغ فى علاء الدين بن دقيق العيد :

لعلاء الدين ذقن تملأ الكف وتفضل
فاعمل المنخل فيها لدقيق العيد وانخل

والملاحظ فى سخرية هذا العصر انها الى جانب تعريضها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالحكام وموظفيهم ، الذين يعرفهم المصريون جيدا ، ولا ينسون انهم أرقاء مكنوا من أن يكونوا سادة ، وتناسوا أصولهم وانطلقوا فى غطرسة وكبرياء وعنجهية ضد من هم فى الحقيقة السادة الشرعيون للبلاد ٠

الى جانب هذا فقد استخدمت السخرية فى مواقف كثيرة، بعضها من قبيل السخرية بالنفس كسخرية الرجل من شكله أو ظروفه الاجتماعية أو سخريته من زوجة أبيه وبعضها يسخر من الأصدقاء ويتناول عيوبهم الجسمية والنفسية ٠

والميل الى المرح والدعابة واضح من سخريات هذا العصر ، وغالبا ما يكون فراغ المصريين من الحروب الصليبية وشعورهم لذلك بالراحة قد أغراهم بأن يعبروا عن سعادتهم ويتخلصوا من كبتهم الذى عانوا منه فى الماضى ، وعن موقفهم فى نفس الوقت من المفارقات التى ما زالت قائمة ، والتى جعلت من المماليك حكاما ومن الأتراك سادة على البلاد ٠

وقد برز نوع آخر من الفكاهة يعتمد على المفارقات اللفظية ، قام بدور البطولة فيه « ابن سودون » الذى كان يأتى ببدهيات واضحة بعد أن يقدم لها بما يشعرك بأنه سيورد جديدا ، أو يفاجئك بغريب ٠

والذى يهمنا منه هنا انه سخر من شخصيات كثيرة منها شخصيات عامة ، أو شخصيات تمثل طوائف معينة فيسخر من صعيدى يرسل رسالة الى والده تدل على الغفلة والبله ، ويسخر من بعض رجال الدين الذين يكثرون من المناقشات اللفظية ويحفظون كلمات يرددونها دائما من مثل « لا تقل عندى ، والظاهر ، والأخص » ويسلسلون نتائج على مقدمات،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكثرون من ذلك فى المسألة الواحدة كقوله : « ان من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم ان بين المركب والفرس فروقا من كم وشن (وجه) الفرق الأول ان المركب أثقل من الفرس بدليل ان الفرس اذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ، ولو حملوا المركب على فرس ما تقدر تحملها ، والفرق الثانى أن المركب أكبر ، بدليل أن الفرس اذا وضعت رأسها عند رأس المركب لا يصل ذنبها الى ذنب المركب ، وأيضا فان المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وأين ما خطر له بخلاف الفرس ، وأيضا فان المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر وظهر الفرس ما هى كده ، وأيضا فلفظ « فرس » « فـرس » ولفظ مركب « م ر ك ب » فمركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص، الفرق الثالث أن الفرس لها سمع وبصر تسمع من صاحبها أين ما قاله لها وتبصر كيف تحط رجلها والمركب ما هى كده ، الفرق الرابع ان الفرس لها أربع قوائم تندار بهم ان خطر لها من هون لهون ، والمركب ما هى كده ، ولا يرد على هذا بالصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوائم ولا يندار لان الكلام فيما يركب وللسرير وان كان يركب الا انه لا يركب للسفر والكلام فيما يركب للسفر ، والفرق الخامس ان بطن المركب مغرقة فى المية وبطن الفرس سايبة ، الى غير ذلك من الافراق (٦٦) .

والواقع ان عصر المماليك شهد انتعاش حركة الأدب الفكاهى الساخر من خلال المحن ليخفف عن الناس أثقالهم ويعالج مشاكلهم بالأسلوب الدقيق الذى يذهب من قسوة الحياة وجفافها ، كما اتجهت هذه الحركة بعد تصفية الحروب

الصليبية فى عهد السلطان المملوكى « الظاهر بيبرس » الى التنفيس عن النفوس التى نهضت بأعباء الحرب وتبعات الجهاد ومشاركتها الاحتفال بالنصر على طريقتها الخاصة والتى تلجأ فى مثل هذه الظروف الى تفريغ بعض شحنات الشعور بالتسلية والترفيه والاستعلاء على الحوادث والسخر منها والضحك عليها وتسجيل ما تزخر به من مفارقات وتقويمها فى آن واحد » (٦٧) ٠

ـ وفى التمثيليات الفكاهية شخصيات تتحدث عن نفسها بأسلوب ساخر ، وتمثل هذه الشخصيات نماذج فى المجتمع تعيش على حسابه أو تعبث بقيمه ، أو تلعب بعقول الناس غشا ونفاقا ٠

وتختار من هذه التمثيليات تمثيلية « عجيب وغريب » لابن دانيال (المتوفى ٧١٠ أو ٧١١ هـ) (٦٨) التى صور فيها سبعا وعشرين شخصية ، تمثل نماذج من سكان القاهرة ممن تغلب عليهم الغرابة فى صورهم أو سلوكهم وأسلوب حياتهم ، وقد تنوعت هذه الشخصيات فمنها الأجنبى الذى لا يتجانس مع مجتمع القاهرة ، ومنها أصحاب حرف ومهن معينة ، وجوالون فى الآفاق وأدعياء الطب والصيدلة وقراءة الغيب من حركات النجوم ، ومروضو الحيوانات والمتسولون، وقد عرض هذه الشخصيات فى صور ساخرة تجسم وجودهم فى المجتمع وتظهرهم على حقيقتهم كنوع من النقد الاجتماعى بواسطة المسرح الشعبى ٠

ويمكن أن نستعرض بعض هذه النماذج لنرى لونا من السخرية الضمنية عن طريق عرض الصورة على القارىء أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السامع بحيث تبدو الشخصية التى تحاول الصورة ابرازها عارية تماما ، تدل على نفسها وتعرف بحقيقتها ٠

من هـذه الشخصيات « نبـاته العشـاب » الذى أورده ابن دانيال « أولا على أنه عالم قدير فى شفاء المرضى وتصفية النفوس ويقدم الرجل نفسه للجمهور » على انه من العلماء الثقـات الذين يجمعون بين القيـاس والتجـربة ، والذين يخلفون بحق « ديسقوريدس وابن البيطار » ولكنه لا يلبث الا أن يتحول الى دجال عندما يوجه كلامه الى النظارة قائلا :

انني يا سادة ، وذوى الفضل والافادة ، سيقول منـكم قائل : ما فى هذه المنافع ، وما الذى تضمنته من الخير الجامع، هذه فيها حبة ، تقلب البغضاء محبة ، وقيمة الدرة منها درة ، أين الذى جفاه معشوقه ، أو غضب عليه مولاه وصديقه ، دلوا على من غضـب عليه السلطان أو تخبطـه الشـيطان ، وأرشدوا الى من ضعفت قواه ، هذا دواء المصروع والمجنون، وهذا لاخراج الجنين والمسجون (٦٩) ٠

والسخرية هنا وان لم تكن صريحة الا انهـا واضحة ، وأداتهـا المبالغة والكذب ، فكأن الشخصـية تعرض نفسها وتكتفى بذلك ، باعتبار أن فى هـذا العرض وحـده أبلغ السخرية ٠

وشخصـية أخـرى هى شخصـية المنجم الذى يعرضـه ابن دانيـال (٧٠) على المسرح ، ويتركه ليقدم صـورة عن نفسـه ، وهو بالطبع لن يعارض التنجيم أو يسـخر منه ، والا كان متناقضـا ، ولكنه يستخدم ضخامة الأحـداث غير المعقولة والتطورات الغريبة التى يتنبأ بها من ناحية ، كما

يستخدم فى نفس الوقت الأحداث العادية التى لا تحتاج الى تنبؤات ليركز عليها حديثه فيكون ذلك أبلغ فى اكتشاف حقيقته القائمة على الدجل والتهريج ٠

بهذا يجد المشاهد نفسه أمام أحداث لا يملك الا أن يقف منها موقف الانكار والرفض وقد يتصدى لمقاومتها فى الواقع ٠ وينجح العرض بسخريته غير المباشرة فيما قد لا ينجح فيه العلاج الصريح ، والتناول المباشر ٠

ويكفى أن نستعرض هنا ما يذكره المنجم حين يقول مخاطبا الجمهور : يا سادات الكرام وأعيان الانام ، فان هذا العام يحدث فيه حوادث ، وله أحكام ، لان فى هذه السنة يأذن الله للسحاب أن يتراكم ، ولأمواج البحر أن تتلاطم ، وللرياح أن تهب ، ولحشرات الأرض أن تدب ، وربما اختلفت الأسعار ، وربح بعض التجار ، ويدل على تنقلات البوادى ويجرى السيل فى كل وادى ، ثم يأذن الله تعالى للبرق أن يلمع ، وللغيث أن يهمع فيا سعادة من خزن الذهب والفضة ، ويا شقاوة من لا يقدر من الحكام على قبضة (٧١) ٠

ويلاحظ هنا ان الأحداث التى وردت على لسان هذه الشخصية أحداث عادية لا تحتاج الى تنجيم أو حساب أفلاك ، ومن هنا تأتى روعة السخرية الضمنية ، وسخرية الصورة الهادئة الوديعة ٠

٦ ــ لم يقض سوء الحالة الاقتصادية والعلمية والأدبية والظلام الذى شمل كل شىء (٧٢) فى عهد العثمانيين على الروح الفكهة لدى المصريين ، فتراهم يسخرون سخريات سياسية من الولاة العثمانيين وسوء مسلكهم ، مثل قولهم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد جرى على الألسنة ، وتناولته الجماهير فى حفلات صخبهم وسمرهم حتى انهم أصبحوا بعد ذلك يستخدمونه فى مواقف مشابهة لشخصيات أخرى مصرية :

يا باشا يا باشا يا عين القملة
من قال لك تعمل دى العملة
يا باشا يا عين الصيرة
من قال لك تدبر دى التدبيرة

وسخروا من غطرسة الأتراك الفارغة ونفختهم الكاذبة، وصوروهم فى مواقف هزلية تدل على جهلهم وغبائهم ·

من ذلك ما ترويه هذه النادرة حكاية عن الغباء التركى والعنجهية ، ان تركيا جلس أمام بيته وقد ملأ عدة قلل بالماء ليشرب منها المارة ، وكان كلما رفع أحد قلة ليشرب منها قال له آمرا : دع هذه واشرب من الأخرى ·

وفى الأمثال العامية : زى بعجر أغا ما فيه الا شنبات ، زى التركى المرفوت يصلى لغاية ما يستخدم ، آخر خدمة الغز علقة · (٧٣) ·

وممن تأثر بالحالة الاجتماعية فى عصر العثمانيين « يوسف الشربينى » الذى ألف قصيدة سماها (أبو شادوف) تصور أهل الريف وجهلهم وبؤس حياتهم وموقف الحكومة منهم فى أسلوب ساخر ، ثم شرح القصيدة فى كتاب أسماه « هز الكتوف على شرح قصيدة أبو شادوف » وكان كتابا لاذعا فى سخريته وتهكمه ، صور ظلم الكشاف (المدير) والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب ، كما صور نظام السخرة ، وكيف كان الملزمون يسخرون أهل الريف فى زراعة

أراضيهم بدون أجر . والكتاب لذلك يعد وثيقة مهمة فى تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه (٧٤) .

وكانت أحوال الفلاحين فى تلك الفترة بالغة السوء ، يصورهم الكتاب بعيدين كل البعد عن الحياة العامة ولا يعنيهم شىء سوى حياتهم الخاصة ، وعلى الأخص بهائمهم ، والفلاح بالطبع فى ظل هذا الجهل وفى غفلته يحنى رأسه للظلم فى صبر طويل .

مما قاله الكتاب فى افتتاح الجزء الأول عن أهل الريف ليس لهم انضباط ، وأحوالهم شياط وعياط ، ووردهم عند الاسحار التفكر فى الغنم والأبقار ، وتسبيحهم فى الظلام هات النبوت والحزام وحط العلف وهات الكلف (٧٥) .

وأورد المؤلف قصصا ونوادر فى تصوير فقر الفلاحين وجهلهم تعتمد على المبالغة ، واستغلال عنصر السذاجة . منها :

ان فلاحا سافر الى القاهرة ورأى سمك البساريا فظنه الكنافة التى يتحدث الناس عنها . وهذا معناه أن الرجل لا يعرف لا البساريا ولا الكنافة وفى نفس الوقت لم يلفت نظره شىء فى القاهرة سوى البساريا التى يجهلها أيضا .

ومن الخطب التى أوردها المؤلف فى كتابه ، خطبة موجهة الى أهل الريف تصور بطش الملتزم ، وبؤس حياة الفلاح ، وخلطه فى الحديث ، يقول فيها « اعلموا يا أهل بلدنا أن عندكم قمح كثير وتبن وشعير وأنتم فى خير من رب العالمين، فأنتم تفيقوا لزرع الوسية (أرض الملتزم) والا صبحكم الكاشف بداهية وبلية ، وغدا تسرحوا للعونة والسخرة ،

وفيقوا لدوركم وجداركم واكرموا الخطار بالعدس والبيصار تنجوا من عذاب النار » ٠٠٠ على ايش يا حبايب تهجرونا بلا سبب الله الله ، قولوا لا اله الا الله من وحد الله ما خيبه الله آمين والحمد لله رب العالمين ٠

٧ ـ فى العصر الحديث كما فى عصور مصر السابقة فكاهات ٠ وككل جوانب العصر تطورت الفكاهة وتطور الشعراء والأدباء بها ، فأصبح لها مضحكخانه « يلتقى فيها المغرمون بها فيتندرون ويتفكهون وربما وجدت أشباه المضحكخانة فى كل بلد ، يتجمع فيها هواة السمر ومحبو النكتة ، ليصنعوا بنكاتهم وفكاهاتهم وتعليقاتهم الساخرة دائرة لحياتهم ، ويبلورون بها الفكرة العامة عن الأحداث الجارية وتفاعلات الشعب مع السياسة ، والأحوال الاقتصادية والمعيشية ٠

وللشعراء والأدباء ومجالسهم ومنتدياتهم تنطلق منها سخرياتهم وفكاهاتهم على نفس النمط الشعبى مع حسن التناول وفنيته ٠

وقد شهد النصف الثانى من القرن السابق حركة نشيطة فى هذا الفن على أثر فشل الثورة العرابية ووقوع البلاد تحت الاحتلال الانجليزى ونهضة الصحافة ٠

وظهرت مجموعة من الشعراء والأدباء وجدت فى أسلوب الفكاهة الساخرة متنفسا لها وسيلة ذكية لرسم صور موحية للحياة العامة !

وكثير من الأسماء اللامعة فى أدبنا الحديث تنتمى الى ما يمكن أن نسميهم « أدباء الفكاهة » وربما طغى هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانتماء على بعضهم حتى أصبح مميزا واضحا أكثر من الصفات الأخرى ٠

ومن خلال الوعى بهذا الانتماء انتشرت المداعبات بين الأدباء ، واستغلت بعض الخصائص أو التلميحات التى ترمز اليهم ، وأطلق على بعضهم تسميات موحية ، أو عبارات لها معناها ، فأطلق على « صفوت الساعاتى » لقب (ديك الجن) ولقب السيد على أبو النصر (بابن العماد) وظهرت نوادر (غامزة) بعضها مقصود وبعضها للمداعبة الخفيفة ٠

من هذه النوادر أن « رياض باشا » وكان يشغل وظيفة (المهر دار) فى عهد اسماعيل أمر أن يوضع على كل حجرة فى قصر عابدين عنوان يدل عليها ، وكان بالقصر حجرة خاصة بالشيخ على الليثى نديم اسماعيل وشاعره ، فأمر رياض باشا أن يكتب عليها مداعبا « انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » فلما قرأها الشيخ قال على الفور :

« كان عندنا ساقية عجب
تسقى (رياض) الجلنار
دورنا فيها (النور عصى)
دورنا فيها (المهردار)

ومن الفكاهات الخفيفة ، ما يروى عن عبد الله باشا فكرى انه رأى الشيخ السمنى جالسا فى موضع ظاهر للشمس ، فقال له ، يا شيخ سمنى ، أما تخاف أن تسيح من الشمس ؟ فأجابه فى الحال « أنا أقدح «فكرى» » (٧٦) ٠

فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى كان الأتراك

ما يزال لهم دور فى الحياة المصرية ، وكانت السخرية منهم جزءا من حياة المصريين يتندرون بهم ويتهكمون بخالصهم التى أشرنا اليها من قبل ، قالوا « ان محمد آغا التركى كان يتسول ويقرع الأبواب فى عنف فيقال له من ؟ فيقول هات حسنة لسيدك محمد آغا » (٧٧) ومن الواضح ان هذه النكتة تلخص طبيعة العلاقة الاستعمارية التى كانت تميز الحكم التركى فى مصر وتحدد أهدافه فى السيطرة على ثروات البلاد فى غير احترام لأهلها أو مبالاة بوجودهم ، وقد أصبح لهذه النكتة امتدادها البعيد فى حياتنا منفصلا عن ارتباطها بالعصر التركى فى مصر ، فنسمع من يقول فى مواقف معينة « حسنة وأنا سيدك » كانه بهذه العبارة يطرح عن نفسه عبء الذكريات دون أن يشعر بذلك أو يتعمده ، ويحاول أن يعيد صاحبه الى الأصالة ، أصالة المصرى الصميم الذى يقدر الجميل ويحترم صاحبه ، ويعف عما فى يد الغير ، خاصة اذا كان فى غنى عنه ٠

وشهدت الحياة المصرية فى اتصالها الواسع بالغرب ، وانفتاحها للأجانب ، شهدت أنواعا من المرابين ، وفنونا من ألاعيبهم ، وأحس المصريون احساسا عميقا بالمشكلة من وجودهم بينهم وتأثيرهم الضار والمتغلغل فى حياتهم وانطلقت النفثات الساخرة لتعبر عن المعاناة الأليمة والاحساس الشديد بالموقف ٠

وتكفى واحدة منها لتعبر فى أبلغ صورة عن ذلك ، يروى أن بعض الفلاحين قابلوا أجنبيا فى الطريق فى يوم شديد البرد ، واسترعى نظر أحدهم انه لا يلبس قفازا فى يديه على عادة الأجانب ولما أبدى ملاحظته لرفقائه أجابه أحدهم

ان هــذا الأجنبى ليس فى حاجة الى قفاز ما دامت يداه فى جيوبنا » وهى فكاهة ســاخرة على قصرها ومرحها وذكائها تصور احساس المصريين بأثر الأجانب على حياتهم ، وأطماعهم الجشعة فى الأموال والممتلكات ويغلب على الظن انه لولا هذا التصوير الساخر وهذا التهكم الفكه ، لفعل الغيظ بنفوس المصريين ما يســوؤهم ، ويبغض اليهم الحيــاة ، أو يضعف الاحساس بالكرامة فى نفوسهم ، فيألفون الاستعمار وهوانه ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، بفضل هذه الروح المرحة وهذه السخريات المعبرة عن النفس والتى تخفف عنها آلامها • الى جانب انها تهبط بقيمــة الأجانب والدخلاء وتكشفهم أمام الشعب وتظهرهم على حقيقتهم فلا يعودون وكأنهم قوة لاتقهر وحمى لا يمكن أن يستباح •

ان هذه السخريات لفتات مستمرة تنبه الأذهان الى الحق الضائع ، وتجدد مشاعر الكراهيــة للمستعمرين ، وتذكى نار الوطنية المقدسة ، فلا يضعف لهيبها ، وان بدا خافتا ، ولا يخبو نورها رغم ارادة أعداء الحرية والنور •

واتسع نطاق السخرية عموما ، فخاضت ميدان الصحافة، ونافست الصحف الجادة فظهرت في عصر اسماعيل صحف يومية هزليــة كان لها دورها فى حياتنا العــامة ، وانتفع كتابها بالتطور الذى بلغته الصحافة المماثلة فى الغرب ، واقتبســوا منها طريقتها فى النقد السياسى والاجتماعى بأسلوب ساخر وعلى يديها أخذت فكاهتنا تتحول من الهزل والقفش والثورية اللفظية الى كل خلل فى حياتنا السياسية والعامة فنستخرج منه النكتة الساخرة ، واللفظة المضــحكة (٧٨) والدعابة الموحية ، ولم تعد تعنى كثيرا بالأشخاص عنايتهــا بمصالح

الأمة وسلوك الجماعة . وأخـذت تشن حملات على ما يمس الوضع السياسى العام وعلى الظواهر ذات الأثر الاجتماعى الواسع .

وأشهر من بدأ هـذا التطور ، يعقوب صنوع بصحيفته (أبو نضارة) (٧٩) وعبد الله النديم بصحيفته (التنكيت والتبكيت) (٨٠) و (الأستاذ) .

وكان صنوع يهاجم فى صحيفته الامتيازات الأجنبية ، وسياسة الخـديو اسماعيل وظلمـه وفسـاد حكمه بمقالات وقصص ورسوم كاريكاتورية ساخرة ، فكان يسمى اسماعيل شـيخ البلد أو شـيخ الحارة ، أو فرعون ، ويصـوره يبيع الأهرام ، رامزا بذلك انه باع كل شىء . ويصـور بؤس الفلاحين وظلم اسماعيل لهم ، واجحافه فى فرض الضرائب عليهم ، ويعنونون لمحاوراته بعناوين ساخرة مثل «القرداتى» أو حكم «قراقوش» . وهذه احدى محاوراته فى أول عدد أصدره فى فرنسا بعد اغلاق الصحيفة سنة ١٨٧٨ .

وتدور بين شيخ الحارة (الخديو اسماعيل) وأبو نضارة « وأبو القلب » (الفلاح المصرى) شيخ الحارة ـ التوبة من دى النـوبة ، اشفق يابو نضـارة على عمك شـيخ الحارة ، جريدتك ضربها قاسى ، أخاف منها على راسى ، دى حطت فى قلبى الرعبة بأقوالها السخيفة الصعبة ، اذا رفعت عنى الجريدة أرجع لطرايقى الحميدة .

أبو نضارة ـ انت عمرك ما تتوب ولو رجموك بالطوب ، ده انت أمرك عنـد الجميع معلوم ، بقى كيف أشفق عليك يا شوم . والله ما أرحمك ، يا مطعم الناس للسمك ، يا خبيث يا مسموم الريق ، يا قاتل الصديق .

أبو القلب ـ ماتشفجش يابو نضـــارة ـ الشفجة فى الفاجر ده خسارة ، ده قتلنا من الظلم والجور ، ونازل علينا زى ما ينزل الســواق على التور ، داهيـــة تلمه وتعتقنا من ظلمه » .

وله فصل ظريف يصور احساس اسماعيل بحرج موقفه بعد ما أغرق البلاد فى الديون وأسلم شئون ماليتها وأشغالها للانجليز والفرنسيين ، فأصـــبح قلقـــا تلعب به الوساوس يخشى الشعب ، ويتوجس خيفة من كل شىء فيناجى نفســه ويصور لها حالته قائلا :

« راحت عليك يا أبو السباع ، الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة ، ده كان يوم نحس ، وأنا كان مالى ومال الشـــبكة دى اللى زى السلين . المكتوب على الجبين لازم تراه العيون ، نعمل ايه فى طمع الدنيا ؟ آدينى أصبحت أشقى مخلوقات الله ، والخوف قاتلنى ، مائتين عســكرى ومدفعين حول سارياتى وبرضه مرعوب ، وكل ما أسمع حد جاى علىّ انفــزع ، وقلبى يطب ، وتلامذة المدارس ، وأولاد البلد والفلاحين جايين ينتقموا منى ، ويقبضوا روحى ويأخذوا مفاتيح الصـــهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتهـــا بغاية التعب والمشقة بلا هلس ، ده أنا سيدهم فى المكر ، ولا أخاف من ملك الشياطين ، أما الجمـــاعة مستحلفين لى بحتـــة علقة ، ما يطلعش من ايدهم حاجة ، البصـــاصين كثير ، ومأمـــور الضبطية جدع ، أما أبو نضارة اللعين راح جدد له جرنال تانى ، وقال : انه فى حب الوطن ، أهـــو زى الـــكلب اللى بينبح خليه يعوى ، آه يا اسماعيل انت بتسلى غلبك ، أهو الليل بيفوت بطوله ، وعينك ما بتدوق النوم ، آدينى سامع

تشخير الأغاوات يا بختهم ، دول مبسوطين ، ولا هم عارفين الدنيا بتعمل بهم ايه ، والناس اللى ماتفهمش الصورة ايه تقول عليهم ، دول مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا، آه يا مغفلين والله ما حد محروم غيرى أنا لكونى ما باستلذ ولا باكل ولا بشرب من خوفى ان خدامينى يسمونى ، ولما أخرج من البيت كل ما أعدى على شارع وتعبر فيه زحمة يبان لى يوم القيامة جاء ، وانظر يمين وشمال ، ومن لحظة الى لحظة يتراءى لى ان العالم رايحة تهجم على عربيتى وتهلكنى ، آه من عيشتى ما أمرها ، والعمل ايه ؟ الشيطان يدبرنى ..» .

ونجد صورا أخرى للسخرية فى صحيفة «عبد الله النديم» التنكيت والتبكيت، سخريتها من الظواهر الخلقية والاجتماعية كالريفى الذى يتعلم فى الخارج ، ويعود متنكرا لما كان يعرف ، متعاليا على العادات التى كان يألفها والتى يعيش عليها أبوه وأمه ، ويدعى انه لا يعرف بعض الأشياء والأنواع كالذى ينسى البصل ويتظاهر بانه لا يعرفه مع انه كان يأكله فى معظم وجباته .

وظاهرة ادعاء الجهل بالأشياء جنوحا الى العظمة أو تعاليا ظاهرة سائدة عند بعض الناس وربما تمس تكوينهم النفسى أكثر مما ترجع الى مستواهم الفكرى والثقافى كالمتفرنج الذى يتظاهر بأنه لا يعرف الجاموسة مثلا رغم انه نشا فى الريف ، وحديث الغنى الذى يدعى فى مجلسه انه لمدة طويلة لم ير الجنيه أو الفكة تظاهرا بكثرة المال ، واتساع الثروة ، والمغرور الذى يتنكر لأهله ويدعى انهم خدمه وتكشفه الأحداث بعد ذلك وتفضح أمره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأمثال هؤلاء كثيرون مما كان موجودا فى حياتنا قبل أن تؤثر أفكار الثورة ومبادئها الاشتراكية والاجتماعية على مفاهيم الجماهير وتغير من التوزيع الطبقى والاجتماعى • ومع ذلك فما زالت هناك بقايا تمثلها ــ ولا أقول أشخاص ــ بل بؤر ذات تركيب عقلى واجتماعى معين ، ربما قائم على الوهم أو اعتبار الماضى أو الغرور المبنى على الجهل وضعف المستوى الثقــافى •

ولا يصعب على الساخرين بطبعهم أن يجدوا فى هــذه النماذج مادة ســخية لفكاهتهم وتعليقــاتهم وكان عبد الله النديم من رجال الفكر والثورة ، وممن أتيح لهم الاتصال على المحيط الواسع بالناس وعلى اختلاف نوعياتهم ، فكان يطلع على العيــوب الخلقية والاجتماعية ــ وليس السياسية فقط ــ فينفعل لكل هذا ، ويتأثر به ، وكانت صحيفة الأستاذ تعالج هذه الظواهر بأسلوبها الفكه اللاذع ، فى اطار الدعوة الى الاصلاح السياسى والاجتماعى ، ومما كتبه فى نقد شاربى الخمر فى الأماكن العامة ، الذين تزول هيبتهم ، ولا يحترمون ذوقهم ويتهالكون على أنفسهم وهــم موضع احتقار العاملين فى أماكن لهوهم ، يقول بعنوان « صورة عرضحال خامورجية بندر طنطا » • (٨١)

« اننا كنا أكثر الناس فى الليل جنودا ومعاملة ونقودا ، كانت تأتينا السكارى من عمد ومشايخ بلد وأرباب الرواتب وأصحاب النكت والغرائب ، فيدخلون علينا من كل حــدب وبغاية الخضوع والأدب فيجلسون حيث نأمرهم ، ولا يتكدرون منا ولا ننهرهم ، ويأكلون ويشربون ، ولا يبالون يربحون أو يخسرون ، حتى اذا دبت الخمــر فى رءوســـهم ولعبت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنفوسهم ، قاموا يهتزون وهم السفهاء ويرقصون ولا رقص عواهر النساء ، فتارة نضع فى عنق الواحد منهم حبلا ونسقيه من كئوس السخرية ذلا ، ونأمره ولا مائة مـرة بالقيـام والقعود ، وهو يضحك ويلعب ، كأنه ولا تشبيه من بعض القرود وتارة نصفعه على قفاه باليد أو بالنعال ، وهو يقدم لنا واجب الشكر الصحيح على تلك الفعال ثم نفتح لهـذا الخبيث باب الحديث فيحدثنا عن أهل بيته وحيه وميته ، ثم نرميه خارج الباب كأنه من بعض الكلاب » (٨٢) ٠

وكان « النديم » يتقبل كل ما يقدمه ذوو المواهب والشبان المتحمسون للوطن والذين يشعرون بواجبهم نحـو مجتمعهم ويتهكمون بالأوضـاع الشاذة التى يرون فيها انحرافا عن الأصالة ، أو تميعا أو تقليدا أعمى للغربيين ٠

من بين ما نشر فى صحيفتهم زجل كتبه طالب أزهرى يسخر ممن يستعملون اللغة الأجنبية فى أحاديثهم العـادية تاركين لغتهم الأصلية كأنها لا تصلح لأحاديثهم ، ولا تلائم جو حياتهم ، وهذا النوع كان يملأ جوانب مجتمعنا وما زلنا نلتقى ببقاياه بعد أن تحررت حياتنا وتخلصنا من الشعور بغلبة المستعمرين ولغتهم وعاد الينا الاحساس كاملا بكرامتنا فى أرضنا وجاء فى هذا الزجل :

الشمس طلعت صـح النـوم
والسـاعة بالعـربى عشرة
والله عجب يا جيـل اليوم
ياللى على سنجة عشرة
حقا الزمن ده زمن عايب
يصـبح السـيد مملوك

والنـــدل دايمـــا فيـــه غالب
والحـــر ضاع جنب الصـــعلوك

بونوسوار صارت بالـــكوم
أما الســـلام أجره على الله

وعمتك (جود نايت) اليـــوم
سمى ومحفض باســـم الله

الوقت ده وقت « البردون »
وادى « البرول » لحقه فى كعبه

وخـــد لى بالك كلمـــة « جون »
وابن الحـــرام حســـبه ربه

ومن المجلات الزجلية الساخرة « الأرغول » للشيخ محمود النجار الذى لم يكن يترك شيئا يحدث فى أى جانب من جوانب الحياة ويستحق أن يوجه اليه اللوم الا وينااله بأسلوبه الساخر ويتهكم به بزجل هادف ، ويتهكم بالمنكوبين وبالشباب المسرف فى مظهره وبالذين يطلقون شعورهم وكان ذلك يعتبر شذوذا على المجتمع فى هذه الفترة يقول :

أبصر آلاقى دا راكـــب
حمـــار وعامل لى عمـــدة

ودا محزق فى روحـــه
قوى وهو حتـــة جلدة

ويقـــــول :

دور يا جـــو الدوارة
تلقـــاها سارحة فى الحارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويسخر من المودة ومن تهالك الناس عليهـا • وجريهم وراء تقليد كل ما هو غربى :

يا موضـة يا جيـل الوز
يا حنيـة من غـير بز
يا موضـة جيلك معروض
فات السـنة والمفروض
يبقى صغار لسـه ومقروض
ويروح يسـكر آل ويمز

والطابع الدينى واضح فى زجل الشيخ النجار •

ويسخر محمد توفيق فى مجلة (حمارة منيتى) (٨٣) من الخديو ، ومن اغراقه فى المظاهر وترفه وبذخه على حساب الضرائب الباهظة وفقر الدولة ، وكان كل ما يمهه التقرب من الانجليز لحمايته من غضبة الشعب ، قال فى سفر عباس الثانى الى انجلترا تحت عنوان « رقوة بهايم وقلب هايم بس العزايم مالهاش وجود » •

يا بركة عاشورا فوق وش الفطورا بالجوز وبالطورا ، يا عم يا أبو قورة سلك لنا الماسورة للأمة تنسطل من قبـل ما تنهطل على الأخ العزيز اللى بيحسـبنا معيز ويفوتنا فى مهامين ويروح بلاد الانجليز واحنا واكلين بهريز ، والواحد موش واخد م الدنيا حاجة غير لطم الخواجة ، اسيادنا النظار (الوزراء) قايدين فيها راكية نار ، دايما ليل نهار ، يا سند العواجز ، يا مجوهر يا حمص ، خايف بطنى تمغص (٨٤) •

وفى تلقيبه الخديو بالأخ العزيز قمة السخرية التى شاء الـكاتب أن يتبعهـا بعرض لحيـاة المصريين فى بـلادهم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما سيأخذونه فى دنياهم غير لطم الخواجة الذى سافر الخديو ليتقرب منه أو ليتلقى لطماته راضيا .

وعناوين محمد توفيق نفسها لاذعة بالسخرية مثل « الرحلة البلدية فى معرفة مصر بلاوية » ، « وسلموا القط مفتاح الكرار » ، « ويا ما دقت على الراس طبول » و « سعادة الحيوان ويا شقاوة الانسان فى حكومة هذا الزمان » و « كل واحد ياخد دوره وجحا أولى بلحم توره » .

ونرى في مجلة خيال الظل (٨٥) سنة ١٩٠٧ صورا تهكمية جميلة كالتى تسخر من « مصطفى فهمى » رئيس الوزراء ومن توديعه « اللورد كرومر » عند رحيله من مصر ، رغم ما لقيت البلاد فى عهده من مآس .

وما ذكرته المجلة على لسان مصطفى فهمى قوله « فايتنا لمين يا سيدى ؟ فيرد اللورد معلهش يابو درويش ، شد حيلك » . وهذه العبارة على قصرها تصور موقف الحكام من الانجليز ، واعتمادهم المتهالك عليهم ، كأنهم فى غير وجودهم فى موقف الرثاء .

وكان لمجلة « السيف » (٨٦) تعليقات لاذعة وحادة على الحوادث الجارية ، كقولها – أثناء المعارك الدائرة بين الايطاليين وبين المجاهدين الليبيين : «تشكو مصلحة التلغراف من تلغرافات روما لانها بتخر دم » .

وبمثل هذه التعليقات تسجل المجلة على المعتدين الايطاليين ارتكاب الجريمة والعدوان الصارخ الذى لا يخلو من اقامة الدليل عليه أبسط الأشياء .

ومجلة السيف فى هذا الأسلوب أو بهذه اللقطات السريعة

المعبرة تشبه مجلة « البعكوكة » (٨٧) المجلة الفكاهية التى تنحو هذا النحو النقدى فى مجال السياسة والاجتماع ٠

ونذكر هنا مجلة زميلة لهذه المجلات ولكنها ربما كانت أكثر حزبية هى مجلة « الكشكول » سنة ١٩٢١ (٨٨) التى كانت تحمل على « سعد زغلول » وسياسة الوفد حملات شديدة ، وتسخر منها سخريات صريحة ، مثل الخطبة التى أجرتها المجلة على لسان سعد ، والتى جاء فى التقديم لها « المعروف ان سعدا كان دائما يخطب فى الوفديين كما هو معروف ان الوفديين كانوا مغرمين بالهتافات ثم تستطرد المجلة « يقول سعد بعد حادث سرقة وقتل » يقولون انه من اللصوص الأشقياء فليكن ، ولكن تناسوا عمدا انه كان يهتف باسمى ، فكانت هذه الروح الطاهرة البريئة ضحية الظلم والاستبداد » ٠

ويخطب سعد بين العمال قائلا : يقولون ان المفكرين مع عدلى ، كذبوا ، من هم المفكرون ؟ أنتم المفكرون ، أنتم تهتفون لى ، وهذا أكبر دليل على انكم عقلاء ٠ وفى ذلك من السخرية بمنطق سعد وأتباعه ما لا يخفى ٠

كذلك سخرت المجلة من مبدأ سعد وأهدافه ، التى لم تكن فى رأيها معروفة ولا محدودة ، وسخرت من خروج فرقة السكة الحديدية من السودان ٠

وسخرت المجلة من تأثير السياسة على بعض الشعراء فينقلبون من مادحين الى ذامين تبعا لأهواء السياسة وتقلباتها ، وممن نالته بحملاتها التى من هذا النوع حافظ ابراهيم ومحمد عبد المطلب ، فتقول فى حافظ :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان عندنا شاعر مالو مثيل فى الدار
يذم اليوم ويصبح يمدح المذمومين

وجمعت بين الشاعرين فى عبارة واحدة أجرتها على لسان محمد عبد المطلب يخاطب حافظا بقوله :

(والله يا سى حافظ علمتنا كيف ندور مع الأيام)

وفى مجلة الفكاهة (٨٩) التى صدرت سنة ١٩٢١ وتطورت الى مجلة الاثنين ، كان ينشر حسين شفيق المصرى فكاهاته الساخرة بأسلوبه السهل البسيط تناول الأحداث الجارية ويعلق عليها فى خفة وبساطة وجاذبية ٠

وقد ابتدع شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود ليجرى عليها تهكمه اللاذع بعساكر البوليس ومستواهم الثقافى والفكرى ومن هذه النوادر التى أوردها هذه النادرة « فى تاريخه أدناه وأعلاه أنا الشاويش شعلان عبد الموجود ، آه يا نارى لو أكون بشاويش برضه أنا أحسن بكشاويش وملاحظ كمان ، وأنا جاعد فى الجسم ، حضر جدامى عسكرى بوليس طويل عريض ، لو يجع على الحيط يهده ، وبعد ما أخذ لى التعظيم اللازم سعلته خبرك آه ؟ جال يا أفندم أنا أخش الحرب وأرمى روحى فى النار ولا خافش من مخلوج ولو كان الجن ، لكن أخاف من ربنا جوى ، واجدرش على غضب ربنا ، وحضرة بكشاويش النظام باعتنى فى النجطة اللى جدام ديوان المالية ، والنجطة دى يا أفندم واجف فيها راجل مسخوط على حجر عالى، والمسخوط ده لوما ربنا غضبان عليه ما كانش سخطه ، وأنا ما جادرش أجف حياله وغضب ربنا نازل عليه يا أفندم ، واللعنة لما بتنزل بتعم ، والعوذ بالله ، فأنا المذكور أدناه يا أفندم أعرض لمسامع حضرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سعادة الحكومة انها تشيلنى وتودينى نجطة غير دى انشاء الله فى آخر الدنيا بس ما يكونش فيها مسخوط ، أنا يا أفندم راجل مصلى الخمس وأخاف من غضب الله ·

وكان لحسين شفيق المصرى فى المجلة الى جانب النقد الاجتماعى الساخر نظرات ساخرة أيضا يتهكم فيها بالشعر المنثور الذى لم يكن قد ظهرت فيه محاولات ناضجة كثيرة ·

ومن الشخصيات التى بلغت فى الفكاهة شأنا مميزا ، وتركت بأسلوبها الساخر الناقد أثرا بارزا على حياتنا الأدبية والاجتماعية «الشيخ عبد العزيز البشرى» الذى كانت سخريته فى دقة وصفها وعنايتها بالتفصيل والتركيز على مواطن النقد ، أشبه بالرسوم الكاريكاتيرية ، من مثل قوله فى زيور وكان سمينا أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية ، ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية فذلك كله يحتاج فى وصفه وضبط مساحاته الى فن دقيق وهندسة بارعة ، وصاحبنا اذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة انه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدرى كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وانك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ومنها ما يدور حول نفسه ومنها ما يدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتحجر وفيها المسترخى المترهل (٩٠) ·

والبشرى فى هذا اللون من الوصف الساخر متأثر بالفكاهة الغربية حيث كان له بها اتصال كبير ، الى جانب انه كان متأثرا الى حد التلمذة بالجاحظ (٩١) فقد كان معجبا بأسلوبه الساخر وطريقته فى التهكم ، وكان من أحب الكتب الى نفسه كتاباه « الحيوان » و « البخلاء » وقد عبر عن اعجابه هذا وتأثره الشديد بالجاحظ فى مجلته المعروفة

(أكتوبر) سنة ١٩٣٢ ومن بين ما جاء فى حديثه : « أقدر الجاحظ وأستطيع أن أؤكد لك اننى أتأثره وأرتضى صحبته، وأفاخر بها ، وأحرص عليها ، لقد عرفته منذ أمد بعيد عرفته منذ الساعة التى أدركت فيها أثرا للقراءة القائمة على الدرس والتحقيق . وكلما زادت قراءتى له ، استوعبت فيه ألوانا جديدة من الروعة والجلال والامتاع ·

ان الجانب الفكاهى فى أسلوب الجاحظ ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائضة على التهكم كلما أراد أن يسخر ، وكلما شاء أن تحز نقداته فى القلوب ، ولست أعلم ان هناك كاتبا قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة الفائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر وكلما أراد أن تحز نقداته فى الرقاب(٩٢) ·

وأخذ البشرى طبع الجاحظ ، لا تقليدا ولا تكلفا ، ولكنه نوع من التوافق والتماثل ونوع من التلاقى بين أديب كبير معروف بخفة روحه وبعد المدى فى آفاقه وبين كاتب مصرى أصيل يتمتع باحساس فكاهى نفاذ لا يتخلى عنه ، ويسعفه فى كل الظروف ويعطيه امكانية التأثر بما فى الحياة من مفارقات ومواجهتها بالأسلوب المناسب ·

وعلى الرغم من اعجاب البشرى بالثقافة الغربية ، فانه قد تناول بالنقد من يسرفون من الكتاب فى التغريب وتقليد كل ما هو أجنبى ، حتى انهم يستخدمون الأسلوب المستغرب من غير فهم أو ادراك لما اذا كان يناسب مجتمعنا أو لا يناسب ·

وقد عرض البشرى فى « السياسة الأسبوعية » عدد ٢٠ ابريل سنة ١٩٢٩ لكتاب أصدره أحد المتأدبين المتعلقين

بالثقافة الفرنسية باسم « الحديقة المهجورة » وأخذ البشرى يستعرض بعض العبارات التى وردت فى الكتاب بشكلها وترتيبها ، فيذكر جملة أو جملتين فى سطر أو سطرين ، ثم يقول « ويلى ذلك ثلاث صفحات بيضاء » أو صحائف وهكذا عدة مرات ثم يقول بعد ذلك :

« ونحن لم ننقل اليك الكتاب كله ، ولكنا نقلنا فى المقال أكثره وأجل ما فيه ، ولست أعنى تلك الصفحات المكتوبة، فهى على محلها من البلاغة لا تقوم بشىء بجانب تلك الصحف البيض ، فهذه التى لابد حوت أعلى الكلام ، ووصلت من البلاغة أسمى مقام » ويختتم البشرى مقاله قائلا ــ وهو فى قمة سخريته ــ نسأل الله تعالى أن يعين هذا المؤلف ويبسط من عمره حتى يخرج لنا كتابا أبيض من أوله الى آخره ، لا يشوبه سواد ولا يجرى فيه سواد حتى يبقى على الدهر شاهدا على ما بلغت البلاغة فى هذا العصر » .

وكان يتفكه بالدكتور محجوب ثابت ــ وهذا من قبيل الدعابة،والفكاهة البريئة ، ولكنه لايخلو من روح السخرية، وقد نلمح فيه نقدا لتعدد جوانب الشخص واتساع مناحيه وكثرة أبعاده لانها قد تهدد بالسطحية واستحالة الاجادة ، وقد جاء فى ختام مقال له عنه « وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمة وحده بما اجتمع له من الصفات وما احتشد لديه من فنون المعلومات ، وما تكدس عليه من ألوان التبعات ، وانى لأقترح على الحكومة أن تصدر قرارا بنزع ملكيته واضافته الى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار الآثار حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الاعصار » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتندر الشيخ البشرى بالطريقة الرجعية فى تزويج الشبان والشابات واحتفالات العرس المبالغ فيها وبالسيدات اللائى يسرفن فى استخدام التليفون ، ويأنسن اليه أنسهن الى الآلات الموسيقية فيتحدثن به الساعة والساعات فى كلام لا طائل منه ، وحمل على المتطرفين المعاكسين فى التليفونات أو الذين لا يتحرون الدقة فى نمرتهم المطلوبة وكان فى نقده يمزج الجد بالفكاهة ، فيبدأ الحديث بسخريته اللطيفة التى تلون الموضوع بلون خاص ، وتكسبه عذوبة أخاذة ، وسخر من المتسولين الذين ينتحلون الأسباب كذبا وتلفيقا ليبتزوا أموال الناس ويعبثوا بعواطفهم ، وهذه الظاهرة لها خطورتها ، على المجتمع المصرى وما زالت تضغط على كاهله كالذنب الثقيل المفتعل ، وما زلنا فى حاجة الى نقاد ونقاد أمثال البشرى وجماعته لتكون فى جيلنا مجموعة من النكات اللاذعة والسخريات ذات الجاذبية وقوة التأثير فتقوم مقام عامل الضغط المضاد على ظاهرة قاتلة للمجتمعات ، وخطيرة على النشاط الانسانى ٠

يقول البشرى : « فى احدى العشايا اعترضنى فى بعض الطريق رجل لا تخلو سمته من تجمل وثيابه من تأنق وحلف لى بكل ملعنة من الايمان انه قد احتسب ولده فى الصباح الباكر ، ولا يزال مسجى فى البيت لانه لم يجد نفقة تجهيزه ودفنه ، وأسرع ـ تأكيدا لقوله ـ فدس فى يدى ورقة ، فاذا هى ترخيص بدفن فلان ، ولم يرعنى الا أن تاريخ هذا الترخيص يرجع الى أكثر من ستة أشهر ، حقا ، لقد راعنى وهالنى ، وكاد يذيب كبدى أن تظل جثة هذا الغلام المسكين رهينة البيت هذه المدة الطويلة ، ومن يدرى فلعلها تظل كذلك مدة أطول ، وانطلقت لوجهى وأنا ألعن بلسانى وقلبى قسوة

هذا الانسان حتى على الأموات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ٠

ومن الشخصيات التى كان لها دور فى الفكاهة والسخريات المرحة البابلى ، وحافظ ابراهيم وامام العبد ، كان حافظ يداعب أصدقاءه ، ويعبث حتى بنفسه ، فيقول عن حلته ، « ان فيها من صفات الله القدم والوحدانية » ولعله هنا يغمز المجتمع الذى يظلمه ، ولا يتيح له فرصة الكسب الذى يسد حاجته ، ويكفيه ، ويتندر بامام العبد الذى كان يسكن فى بيت صغير ضيق « بأن غفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى يا امام رجليك طالعة من الشباك يأخى مش ضرورى تنام ممدد » ٠

وفى أحد الأيام نزلا الى البحر معا ، وعندما خرجا نظر الى امام وكان شديد السواد ، وقال « انت الآن سودانى مملح » وسقطت نقطة حبر منه على الورق مرة فقال له « نشف عرقك » ورأى سيدة جميلة فالتفت الى امام وأخذ يقبله ، فانزعج امام وسأله ، ما هذا يا حافظ ؟ فقال : أقبل الأرض بين يديها ٠

ومن شعره الساخر ما قاله يتهكم بالدكتور محجوب ثابت الذى سبق أن ذكر شيئا من سخرية البشرى منه ، والظاهر ان محجوب ثابت كان فيه ما يغرى أصحابه بالتهكم به ، والتندر عليه ، لانه تعرض لكثير من المداعبات وأقسى من المداعبات وتركت شخصيته للأدب الفكاهى مادة خصبة ، جذبت نحوها الأدباء والشعراء واستقطبت فكاهاتهم ، حتى أصبحت عندهم كالرمز على كل ما يلفت الأنظار الى الدعابة والتهكم ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد سبق أن رأينا نموذجا من سخرية البشرى به وبتعدد جوانبه ، وعبقرياته الكثيرة وعموميته التى لا تترك حدودا للتعرف على شخصيته ، وهذا تهكم حافظ يتناول لغة الدكتور وعقله الذى يدركه الخلط أحيانا واضطراب أحواله ، يقول حافظ :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها
قصف المدافع فى أفق البساتين
من كل قاف كأن الله صورها
من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يلعقها
واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحجا حينا ويحضره
حينا فيخلط مختلا بموزون
لا يأمن السامع المسكين وثبته
من كردفان الى أعلى فلسطين
بينما تراه ينادى الناس فى حلب
اذا به يتحدى القوم فى الصين
يبيت ينسج أحلاما مذهبة
تغنى تفاسيرها عن ابن سيرين
طورا وزيرا مشاعا فى وزارته
يصرف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عطبول خدلجه
حسناء تملك آلاف الفدادين
يعفى من المهر اكراما للحيته
وما أظلته من دنيا ومن دين

ويمكننا من هـذه الأوصاف أن نتصور الدكتور محجوب بلحيته الكثة الطويلة وطربوشه الملقى الى الخلف وشـاربه النازل الى لحيته وقافاته الرنانة المهيبة التى يرددها هنا وهناك دون حساب ، ولا يكاد يغفل عنهـا ، وأحاديثه التى تتنـاول مختلف البلاد والأماكن فينتقل من السودان الى فلسطين ثم الى أوربا ليعود منها الى آسيا ، يخلط فى أحاديثه كأنه غافل عن بعضها ، ومع ذلك فهو يطرق كل موضوع ويناقش كل فكرة ، ويدلى بكلامه فى مناسبة وغير مناسبة ، ثم هو رجل فكه واسع الصـدر لا يضيق بالمرح ولا يؤلمه تندر الأصـدقاء ، يتقبل النكتة ، ويستريح اليها ، ولعله يفتقدها ان غابت ويتلمس الطريق اليهـا بحاسة قوية وشغف ولعله قبل أن يتخذ منـه الأصدقاء رموزا كثيرة لما ينبغى أن تسلط عليه الأضواء من عيوب قد لا تكون كلها أو بعضها موجودة فيه ، ولكنها على كل حال لو صح وجودها فى شخص ما فيجب أن تكون هدفا لسخرية الناس وفكاهاتهم ٠

وعلى هـذا المعنى يمكن أن نحمل فكاهة حافظ ابراهيم التالية لانها تنقل الموضوع من الخاص الى العـام ، وتعالج الظاهرة الفردية باعتبارها جزءا مؤثرا فى الظاهرة العامة ، وان لم يبد ذلك مقصـودا فقد قابل حافظ رجلا بطيتـا ، فسأله أظن انك ممن يطلبون المساواة بين الرجل والمرأة ، فأجابه نعم ، فقال حافظ ظاهر ، لقد حملت عنها حملها ٠

ولا ندرى هل يتندر حافظ ضمنا بفكرة المسـاواة بين الرجل والمرأة ، وهل يقصد بالاشارة الى استحالتها من الناحية الطبيعية التى لا يفكر أحد من دعاة المساواة أن يجعلها موضع نقاش ؟ أظن ان الأمـر لا يتسـع لذلك لان حافظا من دعاة

تعليم المرأة وتربيتها والعناية بها ، وان كان قد وقف على ما يبدو عند حدود اعتبار ذلك ضرورة لتكوينها كأم ناضجة قادرة على تنشئة الأجيال الجديدة تنشئة صالحة ٠

حتى وان كان ذلك ، فهو لون من سخرية حافظ الذكية الواعية بصرف النظر عن دوره أو علاقتها برأيه الخاص فى القضـــية ٠

ونعود الى شخصية محجوب ثابت مـــرة أخرى لنطلع على لون من الســـخرية لأمير الشعراء شـــوقى وهى تســـاهم فى تكوين صورة هزلية للدكتور محجوب ، ويزيدك حديثه عنها تصورا لها ، ويعطيك أبعادا لهذه الشخصية تغرى بالتركيز عليها وحدها دون التفكير فى الانتقال الى التعميم ، فكأن هذه الشخصية التى أصبح لها فى دنيا الفكاهة الساخرة طابع أو دور رمزى لم تصل الى هذه الدرجة افتعالا ، وانما عن جـــدارة واستحقاق ٠ ونورد هنا نصـــين لشوقى فى سيارة الدكتور ، الأول يوهم بالتركيز على السيارة وجوها بينما ينسحب الثانى ليربط الموضـــوع بالأصل ، ويقفل الدائرة عليه ٠

يقول شوقى فى النص الأول :

لكم فى الخط ســـياره (٩٣)
حديث الجـــار والجـــاره
اذا حركتهـــا مالت
عـــلى الجنبين منهـــاره
وقد تمـــرق أحيـــانا
وتمشى وحـــدها تاره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا تشبعها عين
من البنزين فواره
ولا تروى من الزيت
وان عامت به الفاره
ترى الشارع فى ذعر
اذا لاحت من الحاره
وصبيانا يضجون
كما يلقون طياره
وفى مقدمها بوق
وفى المؤخرة زماره
وقد تمشى متى شاءت
وقد ترجع مختاره
قضى الله على السواق أن يجعلها داره
ادنيا الخيل يا (مكس)
كدنيا الناس غداره
فصبرا يا فتى الخيل
فنفس الحر صباره
أحق ان محجوب
سلا عنك بفخاره
ولم يعرف لك الفضل .
ولا قدر آثاره
ولا والله ماكلفت محجوبا ولا باره
فلا البرسيم تدريه
ولا تعرف نواره (٩٤)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنص الثـانى ـ يدور حول حقيقـة غريبة لا يكاد الانسان يتصور صحتها ولا تستطيع هى أن تثبت للتصديق مما يعطى انطباعا بأن هدف الشاعر هو السخرية والتندر حتى باختلاق الأشياء والتطرف فى المبالغة فيها ، والا فكيف يمكن أن نتصور البراغيث تملأ حياة الدكتور محجوب على هذه الصورة :

براغيث محجوب لم أنسها
ولم أنس ما طعمت من دمى
تشق خراطيمها جوربى
وتنفـذ فى اللحم والأعظم
ترحب بالضيف فوق الطريق
فباب العيـادة والسلم
وقد نثرت جوقة جوقة
كما رشت الأرض بالسمسم
وتبصرها حول(بيبا) الرئيس
وفى شاربه وحول الفـم
وبين حفـائر أسنانه
مع السوس فى طلب المطعم (٩٥)

الى هذا الحد تصل السخرية ؟

ومن الزجالين الفكهين بـيرم التونسى الذى يملك قدرة ممتـازة على السـخرية والغمز ، وهو وان لم يكن مصرى الأصل الا انه اتخذها مقاما ووطنا دائما ، وتأثر بحيـاته فيها أمثال كثير من اخواننا العرب الذين أعجبتهم الحياة فى مصر ، فأقاموا فيها بصفة دائمة ولم يعد هناك ما يميزهم عن اخوانهم المصريين .

ونجـــد فى ألقـــاب المصريين وأمثالهم ما يدل على ان السخرية والتندر والفكاهة من خصائصهم الأصيلة والمميزة لهم ، تحمل طابعهم ، وتنقل صــورة الحيـــاة عن وجدانهم المرهق ، وأهل القاهرة أبرز فى مجال الفكاهة وأكثر مرحا ربما لانها مركز الثقل السياسى والاجتماعى ، وتتيح قربا أكثر من الأحداث ومن وسائل التوعية بها ٠

ومن الألقاب التى نسمعها أبو طويلة ، وأبو عين نايمة ، وأبو رجل مسلوخة ، والأعسر والأعرج ، وكرارة وكشك ومن أسماء الحلوى والأطعمة براغيث الست وغزل البنات وسد الحنك ، ومن أمثالهم « أبرد من مية طوبة ، أثقل من آخر يوم فى الشهر ، اللى اختشـــوا ماتوا ، فاتت ابنها بيعيط وراحت تســكت ابن الجيران — وان كان هــذا المثل يصلح للاستدلال على الغــيرية والايثار فى خلق المــرأة المصرية — جوزوا مشكاح لريمة ما على الاثنين قيمة ، الدنيا زى الغزية ترقص لكل واحد شوية ، زى الطبل صوت عالى وجوف خالى، قالوا أبو فصادة بيعجن القشطة برجليه قالوا كان بان عليه، مال الكنزى للنزهى ، وهكذا كثير والأمثال من خير ما يصور الناس وطريقة تفكيرهم وما يشغلهم من أمور الحياة ٠

وهكذا نرى ان السخرية تلخص حياة المصريين ومثلهم العليا وتسجل الظواهر البارزة فى تاريخهم وتعبر عن روحهم القوية وصبرهم أمام الحوادث ومقاومتهم لها ٠

وقد استطاعوا بهذه الروح أن يقتلوا اليأس وينتزعوه من نفوسهم ٠

وقد غطت السخرية الجانبين الســياسى والاجتماعى من

حياة المصريين فكانت لسان الشعب في التعبير عن موقفه ازاء كل منهما .

فنستطيع أن نسمع صوت الشعب المصرى قويا واضحا وهو يرفض الأجنبى ويأبى أن يعترف له بالسيادة ، ويعلن هذا الرفض فى أكثر من صورة وبأكثر من أسلوب ، فيتهكم بالحكم وبالحاكمين ، ويسخر من أفعالهم كما يسخر من أشخاصهم ، ويلقبهم بألقاب هزلية بقدر ما يتهكم بصفاتهم وطباعهم . ويقاوم فيهم الجهل والغطرسة والظلم الأحمق والغباء ، والعيش على حساب المصريين بالربا وفرض الضرائب والسخرة والصعلكة ، بالاضافة الى النماذج المتقدمة ، نرى شوقى يشيع كرومر بعد رحيله عن مصر وبعد انتصار الارادة المصرية فى وقفتها ضده وحملتها عليه على أثر حادثة دنشواى البشعة سنة ١٩٠٦ وكان شوقى فى شعره واضحا ، وفى سخريته معبرا عن روح الرفض الصريحة حين يقول :

لما رحلت عن البلاد تشهدت
فكأنك الداء العياء الوبيلا

هل من نداك على المدارس انها
تذر العلوم وتأخذ الفتبولا

أم من هباتك للقضاء بمصر أن
تأتى بقاضى دنشواى وكيلا (٩٦)

وكم هو جميل ومعبر قول أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة ١٨٨٧ يتهكم بالأجانب وغناهم أن برانيطهم تنمو على جو مصر (٩٧) .

وكثير من جوانب الحيـاة فى مصر فى عهـد الاحتـلال البريطـانى وبخاصـة التى كانت تخضـع خضـوعا مباشرا لسلطاتهم وتوجيهاتهم تعرضت للسخرية اللاذعة ٠

وكان للحكومات فى عهد الاحتلال نصيبها من النكتـة اللاذعة والقفشة الساخرة ، والتى كان لها الأثر الكبير فى تلوين الرأى العام وتذكيره المستمر بمكامن الخطر على الحياة السياسية حتى لا ينسى وحتى لا تشغله الحيـاة بايجابيتها أو سلبيتها عن القضايا الأساسية وعلى قمتها قضية التحرير ٠ التحرير من الأجنبى ، والتحرير من الحـكم الفـاسد ، ومن الملكية الوافدة التى لم يهضمها الشعب المصرى ، ولم يقبلها قبولا تاما على الرغم من طول معاناته منها ، وعلى الرغم من أن حيـاته منـذ عصوره القديمـة كانت مسرحا للملكيـة وتناقضاتها ، أو لعل ذلك كان السبب ٠

وصور الشعب المصرى بفكاهاته الساخرة حيـاة بعض أدبائه ومفكريه وشخصـيات يعتز بها تاريخـه ، بينما هم ــ على نقيض ذلك ــ يعـانون البؤس وشـدة الحال ، وقلة الموارد ، ومن الأدباء خاصة البوصيرى المتوفى سنة ١٢٩٥ م والحمامى المتـوفى سـنة ١٣١٢ م وأبو الحسن يحيى الجزار المتوفى سنة ١٣٦٧ م (٩٨) وحافظ (٩٩) والديب ٠

وفى سجل السخرية صور من النفاق الاجتماعى والرياء ، وضيق الشعب بها ورفضـه لها ٠ وأمثلة للجهل والأميـة الفكرية والايمان بالخرافات ٠

وتتعرض الفـكاهة الى ظاهرة اجتمـاعية فى أعمـاقها البعيدة ، طال عهدها مع الشعب وفى ضميره وهى ظاهرة الارتماء على أضرحة الأولياء والتهالك عليهم وتضييع الأموال

فى رحابهم • بينما على الجانب الآخر من القضية مستغلون لها ، لا يبالون بالحقيقة ذاتها • ولا يهمهم الا نفعهم الخاص• وفى نفس الوقت فان بعضا من هؤلاء الذين يبددون أموالهم من غير حساب على الموتى هم أكثر الناس بخلا على الأحياء • كما أن هؤلاء الذين يتمايلون ويتذاكرون أكثر الليل يتصايحون فى جهل ويتحركون فى غير وعى تحسبهم تجردوا عن الدنيا ومغرياتها ، وتعالوا على مطالبهم الشخصية وحاجات أجسامهم ، اذا بهم فجأة يميلون على القصاع ولا هم لهم الا امتلاء بطونهم حتى النهاية •

وسخرت الفكاهة المصرية من المرأة التى جرفها التيار فى عهد الاحتلال فانساقت وراء التقليد الأعمى لنساء الغرب دون أن تلائم بين ما تستورده وبين احتياجاتها الطبيعية وظروف البلاد ، وهذه الظاهرة فى الواقع ما زالت مسيطرة على المرأة المصرية الا قليلا ممن فهمن الأمر على حقيقته ، ورفضن أن يكون النداء القادم من الغرب فقط هو رسول العصر ولسان الموضة ، وأسلوب الحياة ومنذ ظهرت تباشير الجرى وراء هذا الصوت ، سخر مصطفى صادق الرافعى من العجوز المسرفة فى التصابى التى لا تستطيع أن تعرف عمرها ان كانت طفلة أو جدة :

الا انما أم الحماقة من غدت
بما أدهنت تلقى على عمرها سدا
فيحسبها الرائى لها طفلة الصبا
ويا ربما كانت كجدته عمرا (١٠٠)

وتغلغلت السخرية الى الحياة المصرية فى صراعها اليومى، فانتقدت كبرياء المغالين من أثرياء الحرب والأعيان الجهلاء ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتهكمت بالاسراف فى الأوهام وادعاء غير الحقيقة ، والمبالغة فى جهاز العروسة وحليها وملابسها ، وأن يتحمل الانسان فى ذلك أو غيره أكثر مما يطيق ، حبا فى الظهور وتورطا أمام الوهم والتعلق بالأحلام ·

وسخرت الفكاهة من غش التجار واستغلالهم حتى ان بعضهم نسى أن يضع اللبن فى الماء فمضى يبيع الماء خالصا ·

وليس فى حياة المصريين ظاهرة ما ، أو حالة من الحالات الاجتماعية الدائمة أو الطارئة الا ومرت بهذه المصفاة الدقيقة التى تقف بالمرصاد لتخلص المستمع من كل ما يعوق سعادته ونموه ·

وفى مجتمعنا الآن نماذج عديدة ما زالت مادة للسخرية والفكاهة ولا تستطيع كل وسائل المقاومة أن تحقق ما يمكن أن تحققه السخرية فى تطهير المجتمع وحمايته بينها ·

ما زال المتسولون يتفننون فى عرض نماذج متعددة لبضاعتهم ومدعو الطب ، وبائعو العقاقير والمنافقون والسلبيون على اختلاف مراكزهم الأدبية ، ومروجو الاشاعات ، ومحترفو الوشايات ، والبائعون بالغبن وشاهدو الزور ، وكثير من النماذج الهدامة ·

والأدب يستطيع أن يوجه الى ذلك كله حملات هادئة أو عنيفة بأشكال فنية مختلفة بالشعر والقصة والمقال والتمثيلية ، واللقطة السريعة والحديث الاذاعى أو الصورة التليفزيونية والسينمائية وحين يعالج الأدب هذه الظواهر فسيجد أمامه تلقائيا فنونا من السخرية لا يتعب فى البحث عنها ولا فى تهيئة نفسه لها ، لان المادة تدل على نفسها ،

والموضوع يغرى بتشكيل الأسلوب من غير حاجة الى الصنعة، فيتعذر وجود الأديب الساخر الذى يميل الى التهكم الفكه والنقد اللاذع ، فان الاهتمام بتناقضات الحياة وعيوب المجتمع ، وتقصى الحياة السياسية يكون لدى الأديب خلقا ساخرا ، لا يحتاج الى جهد كبير لكى يتحول الى عادة ثابتة وخاصية فى الأسلوب ، أسلوب الحياة وأسلوب الكلمة • وينبغى أن نطمئن الى المستقبل ، فان المسرح الحديث فى مصر قد حمل رسالة الأدب الساخر ، ومضى ينشرها على أوسع نطاق ، مستخدما كل شىء يستطيع أن يستخدمه ، الكلمة والحركة والمنظر والاشارة واللفتة ، والصورة والمحاكاة والنقد المباشر ، والتلميح الخفيف ، والتعريض والرمز اللاذع • بالمسرحية الطويلة والقصيرة ، وباللقطة الموحية والعابرة •

والشىء الذى يتميز به المسرح فى أدواره هذه ان هناك توجيها ذاتيا واعيا أو يمكن أن نسميه توجيها نحو غاية كبرى تعى حاضر المجتمع ومستقبله ، وكأنها تقوم بحملة منظمة منسقة متفق عليها ومرسومة فى ذكاء •

كأن دور المسرح الفكاهى الآن يترجم عن الرأى العام فى عمل جماعى ، وفى اطار التغيير الشامل عن حركة الجماهير نحو المستقبل فى ثورة قوية رافضة للمعوقات ، تواقة الى التغيير والبناء •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

المازني الساخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المــازنى الساخر

١

نبــدأ مع شاعرنا ، وكاتبنا الكبير ابراهيم عبد القادر المــازنى من حيث انتهى الى الســخرية ، من كل شىء ، من الدنيا وما فيها ومن فيها ، حتى نفسه وأدبه ، فتراه يصف انتاجه بأنه « حصاد الهشيم (١٠١) وقبض الريح ، وملهاة الأطفال » ٠

وقد وصلت سخريته من الدنيا الى حــد اللامبالاة ، والى أن تتساوى فى عينــه الأضداد رغم حساسيته المرهفة بهــا وادراكه السريع لها ، فأصبح ينظر الى النجاح والفشل نظرة واحدة رغم انه يعرف الحياة ، وله فيها خبرة وطول عهد ٠

ويعرف وسائل النجاح وأسباب الفشل ، ولعلنا لا نظلمه اذا قلنــا ان موقفه هذا من الحيــاة ناتج عن معرفته لها ٠ واختلاط النجاح بالفشل فى نظــره ليس الا انعكاسا لفهمه لأساسيات النجــاح والفشل المتعــارف عليهــا فى الأوساط الاجتماعية التى عاش فيها ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونقــول حيث انتهى المــازنى ، لأن الانســان لا يولد ساخرا ، وان كانت فيه بذور النقد والاستعداد لتقييم الحياة من حوله وصياغة الحكم الذى يراه مناسبا لها ٠

لابد أن المازنى مر بمراحل متعددة حتى وصل الى مرحلة نضجت فيها روحــه الســاخرة وأصبحت أقوى من أى شىء آخر ، ولابد أنه صادف فى حيــاته كثيرا من العوامل التى تأثر بها ، وتركت فى نفسه انطباعات ٠

وطلع على كثير من المتناقضات فجاهدها ، وعاش معهــا فى صراع طويل ٠

ولكن سخرياته تعطينا دلالات نصره ، لأنها فى الواقع كانت ســلاحه للنصر فلم يضعف أمام الأحداث ، بل عرف الطريق الى تجاوزها والاستعلاء عليها ، والاستخفاف بهــا ، ولكنه بالغ فى الاحساس بالنصر ، فاستخف بكل شىء ، بالحياة وبكل مظاهر الوجود ، وبالانسان اذا فصلنا الانسانية وجعلنا لها كيانا مستقلا عن الكيان الأعظم للحياة ٠

وشــخص ينتهى الى هــذه الدرجة فى علاقته مع الحيــاة والأحياء ويصل الى ما وصل اليه من استهتار وعدم مبالاة ، شخص جدير بالدراسة ، لانه يحمل لنا ذاتا خصبة ، ويضع أيدينا على عوامل شخصية وبيئية ، واجتماعية كان لها قوة السحر فى التعامل معه ، واثراء حياتنا الأدبية ، ولأنه فى نفس الوقت ليس شخصــا عاديا ، وانما هو أديب شاعر ، ومفكر له رأى ، والآراء لا تقف جامدة ، ولا تصوغ نفسها من فــراغ ، فان تعلقاتها بالبيئة ، وارتباطها بالتفــاعلات الاجتماعية الخاصة والعامة ، هما مصدر قيمتها وسر عظمتها ٠

ولقد نشأ المازنى فى بيئة تجمع من المتناقضات الشىء الكثير ، كان أبوه محاميا شرعيا (١٠٢) وبحكم هذه المهنة ، فلابد انه كان على دراية بمشاكل الأسر وله خبراته فى علاقات الرجال بالنساء ومع ذلك فقد كان مزواجا (١٠٣) ربما كانت هذه الظاهرة سر تعلق المازنى بأمه وعطفه عليها • كانت الأم تركية وزواج التركية من الأب المزواج يناقض مبدأ سيادة العنصر التركى فى المنزل ، وكان أخوه يؤمن بالخرافات (١٠٤) •

هذا يعنى أن بيته لم يكن منسجما تماما بل ان هذه الاختلافات الأساسية فى تكوينات أفراد الأسرة توحى بأن البيت كان خليطا فى الذوق ، وكان يجمع فيه القديم والحديث •

هذا التناقض فى بيته يمثل حالة التناقض التى كانت تميز حركة الانتقال الاجتماعى من القديم الى الحديث فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (١٠٥) •

ولم يكن موقع البيت بعيدا عن مستوى التناقض ، بل كان قريبا منه بدرجة ملحوظة ، حيث يقع بين الامام الشافعى ومسجد عمرو ، فى مكان يقرب بين الحياة والموت ، أو يذكر بهما معا فى وقت واحد •

فكان المازنى فى الطريق الى البيت أو خارجه يمر بالمقابر ، وترتسم فى ذهنه صورة التقابل بينهما وبين مساكن الأحياء • وأى انقباض يعترى الصغير وهو يسمع الصمت الأبدى يغشى المكان فى جانب من الطريق بينما حركة الحياة على الجانب الآخر قوية لا تحفل بشىء مما يحس به •• أى اصطدام للفناء والبقاء فى قلب الصبى يهز توازنه من

آن لآخر ، ويفرض على أفكاره مسارب معينة لا تجد عن سلوكها منأى ولا تملك أن تنصرف عنها أو تصرفها عن نفسها !

أليس صعبا على نفس الفنان الناشىء أن يرى طريق الفناء كل يوم بينما هو فى مطلع الحياة ؟

وقد حدث للمازنى فى أثناء سيره ذات يوم فى الطريق الى بيته أن وجد نفسه يحتضن جثة (١٠٦) شخص ميت ، ولا أدرى كيف كان ذلك لعلها كانت لقتيل وملقاة فى طريق المقابر فى انتظار من يدفنها ويبتعد بذلك أثر الجريمة عن مرتكبيها فى المدينة ٠

لقد تأثر المازنى بهذه الحادثة تأثرا كبيرا ، وأصيب بالنيراستينيا ، وتوهم المرض واضطربت أعصابه ، وحدثت له خلخلة شديدة انتقل بعدها الى اللامبالاة بالموت وعدم الخوف منه وتقبل منظر الجثث ، وهذه الحالة فى تطوراتها تعكس الاستجابة النفسية للأحداث والتأثر الشديد بها ، ثم التكيف العكسى مع هذه الآثار ٠

فكأنها عملية لا شعورية لتصحيح موقف الذات ٠ ومحاولة لتحقيق النصر على ما يرى فيه الانسان خطرا عليه ٠ ثم انها خلق للتناقض بين الذات وبين بعض ما فى الحياة من أحداث ٠

وكان بيت المازنى ، كذلك ، صورة لبعض البيوت الريفية أو بيوت بعض أبناء الصعيد حيث يعتبر الرجل فيها سيدا وما عداه تابعون له ٠ ولا يسمح للأطفال بمجالسته ، ولا يتاح لهم أن يتمتعوا بملاعبته أو مداعبته ٠ وقد لا تقبل نفسية الصغير المرهف هذا الجو الصارم القاتل للعواطف ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يشعر فى غموض بالحاجة الى المقاومة والاعتراض والثورة ولكنه ينطوى على كل هذا فى صمت ٠

وتمر به أحداث فى البيت لا تقل أثرا عن طبيعة البيت وأسلوب حياته وتركيباته ، فعلى الرغم من أن البيت يوحى بالثراء وعراقة الأصل وهو فعلا كان كذلك الا أنه لم يسلم من التعرض للحاجة ، اذ يموت الأب فيحس الصغير باليتم الحقيقى والمادى ، وكان يمكن أن تعوضه الرعاية الصالحة من أخيه الأكبر ما فقده ، ولكن الأخ يستولى على أمواله ويبددها ، ولا يبقى للصغير الا أمه تحنو عليه ، وتحاول أن تملأ حياته ، فيحبها الحب كله ، ويشعر بالارتباط معها ارتباطا أبديا ، حتى انه يصرح بأن حبه لها لم يترك فى قلبه مكانا لغيرها (١٠٧) ولعل هذه الدرجة من الحب مسئولة ــ الى جانب عوامل أخرى ــ عن تبرمه بالنساء وتعلقه بالكثير منهن فى وقت واحد كأنه يبحث عن بديل لأمه أو خلف لها ، وبعد أن ماتت الأم أحس بالصدمة الكبرى ، وأدرك أن البيت لم يعد يتسع له (١٠٨) فهجره نهائيا ٠

ويبدأ عهد المازنى ببيت الزوجية ، فيختار زوجة فى غير مستواه الثقافى فيشقى بها وقتا ما ويحاول أن يتأقلم معها أو يجعلها قريبة منه ، ولعله تردد كثيرا بين حبها وبغضها ، وبين قبولها على حالتها وبين رفض ما يبدو عليها فى أحيان كثيرة من بعد عن مجالاته الفكرية ، وموضع اهتماماته ولعله قطع شوطا طويلا فى أحاديثه مع نفسه ، وحوارهما معا عن الزوجية وأهميتها ودورها فى حياة الكاتب وعن امكان أن تكون له كما كانت لغيره منذ بدء الخليقة راعية حنونا ، محبة تملأ بيته وتعده للحياة على قدر

فهمها للحياة ، وتدفيء قلبه كامرأة وكفى • ان هذا العهد الطويل من الصراع قد لا يقتل الحب بل قد يعمقه ويزيده لانه يفتح للمرأة بابا واسعا لتدخل منه الى قلب الزوج وفكره وحياته وتصبح قد طبعت بصماتها على كل شيء فيه فلا يملك الا أن يجد نفسه وكأن مادة الصراع كلها لم تستطع أن تقهر ما بين الرجل والمرأة ، وان بقيت الحساسية للتناقضات قائمة في الحيـــاة الزوجية ، ومع ذلك فما ان بدأ المازني يشعر بالتفاهم بينه وبين زوجته وما ان بدأ التجرد من احساسه بنفسه معها الى الحب والى الجو العائلي الصافي والى السعادة الزوجية التي طال شوقه اليهـــا حتى تغادر الزوجة الحيـــاة ويذكره الموت بنفسه من جديد بعـــد ست سنوات فقط من الزواج ثم يتزوج بأخرى ويرزق منها أبناءه الثلاثة وابنته التي أحبها ورأى فيها عوضا عن بنت فقدها قبلها فلا يمر كثير حتى يمني بفقدها هي الأخرى ، كأن الموت يتعقبه منذ نشأ ولا يترك له فسحة طويلة من الزمن يعيش الحياة خالية منه،ويبدو أنه تأثر بابنته هذه تأثرا بالغا حتى أنه كان كثيرا ما يذهل عن فكرة موتها ولا يكاد يتصور انها فارقت حياته أو تخلت عنه نهائيا • نتمثل ذلك في استمرار استحضاره لها في حياته وفي أحاديثه مع نفسه وفي مخاطبته لها كأنها ماثلة أمامه فيوجه اليها الحديث ويقص عليهـــا ما كان من أخبار طيفها معه فيقول لها « في بعض الأحيان أكون جالسا في مكتبي قبل طلوع الشمس وأمامي الآلة الكاتبة أدق عليها وأرمي بورقة اثر ورقة والى جانبي فنجال القهوة أرشف منه وأذهل عنه فأحس راحتيك الصغيرتين على كتفي فأدير وجهي اليك لأصبح على بستان وجهك فأستمد من عينيك النجلاوين وافترار ثغرك النضيض ما أفتقر اليه من الجلد والشجاعة

وأرفع يدى فأطوقك بذراعى وألمك فى حجرى وأضمك الى صدرى وألثم خدك الصابح وأمسح على شعرك الأثيث المرسل على ظهرك وجانب محياك الوضىء فأتملى بحسنك وأنثر فى كهف صدرك المظلم نور البشر والطلاقة فتمدين ذراعك الفضة وتتناولين ببنانك الدقيقة ورقة مما كتبت وترفعينها أمام عينيك » (١٠٩) ٠

وهكذا يمضى فى تصوراته ثم يفيق من ذهوله فيتذكرها جثة صغيرة عزيزة حملها بيديه الى القبر ، وانزلها فيه ، ووسدها التراب ، ثم يعود الى بيته جامد العين ، وعلى شفتيه ابتسامة متكلفة وقد تقول ساخرة ، هو ويتمثل قول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع بامرىء عبثا
الله أدرى بلوعة الحزن

حتى الدمع الذى خلق للحزن عز عليه فلا يملك له سبيلا ، ومن العبث بالحزين ان يصعب عليه الدمع ، بينما هو يطلبه ويتمناه ٠

ونترك بيته وحياته العائلية لنلقى نظرة على بعض الظروف الحرجة التى وجد نفسه فيها بينما هو فى أشد الأوقات قلقا على مصيره ، وتعلقا بمستقبله ، وبناء حياته ٠ فبعد أن أتم دراسته الثانوية كان يتطلع الى أن يكون طبيبا ، وتقدم الى مدرسة الطب ، ولكنه بعد قليل يكتشف عجزه عن مواصلة التعامل مع الجثث وتشريحها وكأن صدمته فى صباه قد جعلته يخشى ان يتعرض لصدمات أشد ٠ فقرر العدول عن هذا الطريق ، وانصرف عن الطب الى الحقوق وكان

لخريجيها أمل فى الحكم والسياسة ولها فى هـذا المجال شأن معروف ومرغوب ، ولكنه يصدر عنها لان مصروفاتها ارتفعت من خمسة عشر جنيها الى ثلاثين • ولم تكن حالته المالية تسمح له بأن يستمر ، فانتهى به الأمر الى مدرسة المعلمين العليا ولم يكن يرغب فى ذلك (١١٠) •

لا سبيل الى أن نهمل تأثير هـذا الصدام الذى وقع فيه بين الأمانى وبين الممكنات ، ولم يكن الأمر يتعلق بمستويات فى التعليم أو المجموع كما هو الحال الآن ، وكما أصبحت فى الوقت الحاضر شبه مقبولة من الطلاب ، وترتبط فى مفهومهم بأسلوب عام ونظام قائم يقبله الجميع • لقد كان بالنسبة للمازنى حالة فردية تشكل ضغطا عليه وتمس قدراته المعنوية والمادية ولولا أنه غـدا بعد ذلك أديبا واستفاد من دراسته التى دخلها على كره منه لكان تأثير هذه الظروف عليه أشد •

وتخرج فى مدرسة المعلمين ، وعين مدرسا للترجمة بالمدرسة السعيدية فرأى نفسه صغيرا يحتاج الى شارب ولحيه فكان يعمل على ابرازهما بمختلف الوسائل حتى يبدو أمام التلاميذ كبيرا ، يقول « كنت أحلق وجهى بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بانبات الشعر ، فقد اشتهيت ان يكون لى شارب مفتول وخدان كانما سقيا عصير البرسيم ، ولكن الموسى لم تجدنى فتيلا (١١١) •

وأى تعبير ينقل لنا الاحساس بمرارة الصغر والرغبة فى اضفاء الهيبة أكثر من ذلك ؟ ولعل هـذا سر كراهيته للعمل وسخطه الشديد على الوظيفة ، واستعداده لتركها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عند أول حادثة قد لا تدفع غيره الى ان يترك عمله الى غير رجعة ، مثلما فعل هو عندما نقل من السعيدية الى دار العلوم وكانت ثانوية ، وأحس ان فى النقــل عقابا له فقد واجه ذلك بالاستقالة فى سنة ١٩١٣ واشتغل بالمدارس الخاصة • ثم تركها بعد حين الى الصحافة •

وكانت هناك ضآلة جسمه ، وعرجه الذى ضــاعف من احساسه بالعجز الجســمى ، فكان دائم الشعور بذاته وكأنه يخشى ان يصيبها فــوق ما أصــابها أو يخشى النظر اليهــا بما لا يوافق هواه •

لقد كانت حياة المــازنى الخاصــة وظروفه الشــخصية وبعض صفاته المميزة ، تثير فى نفســه الشعور بالتناقض وخيبة الأمل ، فكان مستعدا بطبيعته وبظروفه الى ان يجعل من كل ذلك مادة لســـخرياته ويخضعه للعبث ، ليزيل من حوله الاحساس بالرهبة ويقاوم الرغبة فى الانطواء والبعد عن الحياة •

٢

على ان المتناقضات التى طلع عليهــا المازنى فى البيئــة العامة لم تكن أقل حدة ولا أقل أثرا عليه بل كانت خطيرة وبعيدة المدى فى التأثير ليس عليه وحده بل يشــــاركه فى معاناتها المصريون جميعا ، وان كان لاحساسه بها شــأنه الخــاص بحكم استعداده السريع للتأثر والاســتجابة ، وفى ادراكه الفنى للأشياء والأحداث •

لقد عاش المازنى فى فترة شديدة القلق والاضطراب من حيــاة مصر ، وما أكثر هــذه الفترات واقساها فى الواقع

وما أكثر ما عانت مصر فى تاريخهـــا وجاهدت وناضلت ، ولولا ان سنين طويلة من عمرها ضاعت فى مكافحة الغزاة والتخلص من آثارهم لكان لها اليوم شأن عظيم ٠

نشأ المازنى فى الفترة التى تبدأ ببداية القرن العشرين وتنتهى بمطلع الأربعينات والاحتلال فى شـــدته ، والتمرد على الاحتلال أشـــد ، موجات من الغضب تواجه دائمـــا وكل يوم موجـــات من الـــكبت والقهر وتحطيم الارادة ، حركات وطنية عارمة ، وثورة شعبية كبيرة تحمل الأمل ، وتترجم عن الانطلاق نحو الحرية ورفض السيطرة الأجنبية ورفض القيم الباطلة التى تحاول ان تجد لها مكانا فى البيئـــة الملتهبة ، وتفشـــل الثورة لان البلاد لم تصـــل بعد الى ان توازن بين ثورتها وبين قوتها ، ولم يصل استعدادها المادى الى مستوى نموها المعنوى وطاقتهـــا الثورية ويعقب الفشـــل انحـــلال وضعف ، وصدمات للمثل العليا ، وتشتد قبضة الانجليز على البـــلاد ٠ ويظهر التناقض فى أبشـــع صـــوره ، بين طبيعة مصر الســـــمحة الطيبة ، التى تدعو الى التعاون وتهدى الى الخير وتعمل من أجل تحقيق الرخاء والسعادة وسيادة المثل النبيـــلة وبين سياســـــــة الانجليز الذين يشيعون الفرقة ويفسدون الخلق ويحطمون فكرة المثل العليا ، ويعملون من أجـــل السيطرة على مقدرات البـــلاد وحرمانها من ثروتها ، وفرض الفقر والبؤس على أبنائها ٠ ومصر لاتهدأ ولاتستقر وتواجه الاحداث بأحداث أشد ومحاولات العبودية بحركات التحرير ، تهتز أرجاؤها بالاصداء الحزينة لحادثة دنشواى ولا يسكن الاضطراب الا على أصوات الاغتيالات هنا وهناك وتتساقط رءوس الفتنة والظلم أمام ضربات الشعب الثائر ،

وتظهر الحركات الوطنية الداعية الى الحرية والديمقراطية ويدوى صوت قاسم أمين ليكمل بحرية المرأة شعور المجتمع المصرى بحريته الحقيقية ويطهر البلاد من وصمة الجهل والتخلف التى كانت تعانى منها المرأة المصرية وأختها فى انحاء الشرق رغم المقاومة الشديدة التى قوبلت بها هذه الدعوة ، شأن كل حركة تقدم ضد المألوف وما تواضع الناس عليه لانهم يخشون على أنفسهم وعلى مجتمعهم من التغير .

فى هذه الفترة وربما قبلها وفى عهود كثيرة من تاريخ مصر كان نظام الحكم فرديا يتعلق بشخص الحاكم قوة وضعفا وقد شجع الاستعمار الطويل الذى تعرضت له البلاد على ذلك ، مما جعل الحالة الاقتصادية للبلاد تقوم هى الأخرى على أساس الصراعات الفردية ، والتبعية للحاكم ، فاستشرت الأنانية وأصبح الفرد يفكر فى الكسب بأى وسيلة ، بالأسلوب التجارى البدائى ، ولا شك ان هذه الحالة الاقتصادية الفوضوية تؤدى الى ايجاد فروق غير مهذبة بين المواطنين وخلق نظام طبقى صارخ ، تقف على القمة فى احدى جانبيه أقلية مسيطرة تملك كل شىء الارض والمال بينما على الجانب الآخر تقف الكثرة الغالبة العمال والاجراء والفلاحون الفقراء الذين يشعرون بالظلم والهوان .. فكيف اذن تنمو بذور العبء ، وكيف يمكن ان تكون الثقة أساسا للتعامل بين هؤلاء وهؤلاء ؟ وكيف يسود العقل الصافى والفكر الحر الخلاق ؟ ان هذه التربة صالحة تماما للشك واليأس والكراهية . والناس فى هذه الظروف عرضة للضياع والسلبية . تفكيرهم غير قائم على الايمان بالجدية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاعتماد على القدر وحده وحرمان النفس من ان يكون لها دور محسوب ، وشيوع الاضطراب النفسى والبحث عن الطمأنينة والكذب والنفاق والتهالك على المستعمر أو على أصحاب النفوذ والحكام •

٣

الحياة الأدبية :

وكانت الحياة الأدبية هى الأخرى حافلة بصور للتناقض العام الذى يشمل هذه الفترة فمحبون للقديم دعاة له ، مدافعون عنه ، لا يميلون الى التطور ، ولا يرغبون فى التجديد يتأثرون بالقدماء ، ويرون أن الأدب هو ما أخذ عنهم ، وما جرى مجراهم يغلب عليهم التأثر بالظواهر الضعيفة التى سادت الحياة الأدبية فى عصر المماليك والأتراك •

وهناك الدعامات القوية للنهضة الأدبية الذين يضمهم الى البارودى وحفنى ناصف وبطرس البستانى اطار الأعجاب بالظواهر الجميلة فى القديم والحديث ، من أمثال شوقى وحافظ وصبرى والمويلحى والمنفلوطى وعثمان جلال ، الذين قادوا حركة البعث للثقافة الأصيلة ، دون ان يمنعهم ذلك من الانفتاح على الجديد الذى يثرى القديم ويطوره ، ولكن بقى الاتجاه الغالب لديهم وهو التقليد للقدماء •

وكانت هناك المدرسة الحديثة التى ينتمى اليها المازنى والتى ان شاركت مدرسة الاحياء فى الاهتمام بالقديم والجديد معا فانها لم تستغرق معها فى القديم وتقلده فى أسلوبه ومعناه وأغراضه ، بل مضت نحو غايتها فى تحقيق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نوع من التجديد يطبع الحيـــاة الأدبية بطـابع متقدم فى الشـكل والموضوع ، دون ان يكون ذلك على حسـاب اللغة الأصيلة ·

ولقد كان حظ هـذه المدرسة من الاتصـال بالثقافات الأجنبية عظيما وقوى لديهم الاعتقاد فى ان هذه الثقافات لابد منها لكى ينطلق أدبنا الى الحياة الانسانية العامة ·

وكانت لهم آثار بعيـدة المـدى على حياتنا الأدبيـة والفكرية · واثاروا حركة نقدية قوية وجريئة وحاولوا ان يضعوا أساسا جديدا لثقافتنا المعاصرة ويطوروا النهضـة الأدبية منهم المازنى والعقاد وشكرى هذا الثالوث الذى اتفق فى روحه العام ، وأسـلوب تناوله للأشـياء والظواهر ، واختلف فى مناهج التفكير وطرق الأداء وتباينت به السبل حتى انه لم يسلم من الصراع الذاتى الذى حطم وحدته وفك ائتلافه · ولعل الصـداقة وتشـابه الاساس الثقافى الذى اعتمدوا عليه فى بداية تكوينهم الأدبى · خاصة انهم عنوا أكثر بالثقافة الانجليزية من بين الثقافات العالمية ــ لعـل هذا هو الذى جمع بينهم فى البداية وأوحى بأنهم يكونون شعبة خاصـة من المدرسـة الحديثة لها طابعها المميز وأتاح للعقاد والمازنى ان يشتركا معـا فى ديوانهما النقدى الذى لم يستطع ان يخفى مظاهر الاختلاف الرئيسى بينهما · وعلى الجانب المقابل من هـذه المدرسـة يقف زعيمان من زعمـاء نهضتنا الأدبية الحديثـة هما محمد حسين هيكل وطه حسين بنفس القـدر من الاختلاف الذى تحدثنـا عنه من قبـل · الاختلاف فى النزعة والاتجاه والأسلوب ولكن تجمعهما حرية الفكر ، والاساس الثقافى من زاويته الأجنبية ــ الفرنسية ·

وكانت لهذه المدرسة اشعاعاتها البعيدة المدى ، بحيث لا توجد ظاهرة أدبية فى حياتنا تخلو من التأثر بهذه المدرسة ٠

لقد أشاعت روحا جديدة فى أدبنا الحديث ، دون تنكر للقديم ، وأحدثت أساليب نقدية بناءة ومثرية للحركة الفكرية وكان لها تلاميذها فى كل فن وفى كل ميدان ٠

وكان هناك الذين انطلقوا مع كل جديد ، وتبنوا فكرة هجر القديم والتحرر التام منه ، والواقع ان هذا يعتبر تفسيرا متفائلا لضعف الاساس الثقافى الذى انطلقت منه هذه الحركة ، ولذلك لم يتسم أدبهم بالحيوية والثراء بل جاء فقيرا فى المعنى والروح ٠

وكانت هناك مدرسة أدبية ناهضة تكونت بعيدا عن أرض الوطن ولكنها لم تنفصل عنه بل عاشت فى اطار الحنين اليه ، والشعور بالانتماء القوى له ٠

انهم أولئك الذين وجدوا أنفسهم فى مهاجر بعيدة لها أسلوب حياتها ، ومنهجها المؤثر ، فاستجابوا لحياتهم الجديدة ولكنهم نقلوا اليها عالمهم النفسى الخاص ، وعالم ذكرياتهم العزيزة تشدهم الى أرضهم الأم ٠

ورغم ما يوجه الى لغة بعضهم أحيانا ، فان أثرهم فى الحياة الأدبية لا ينكر ، وقد نال انتاجهم من اهتمام واقبال المثقفين العرب ما يستحقه ، وبقيت أسماء ميخائيل نعيمه ٠٠ وجبران خليل جبران ، وأمين الريحانى ، وايليا أبو ماضى ، والقروى وزملائهم ذات أصداء قوية فى الأدب العربى الحديث ، واعلاما لمدرسة مميزة مؤثرة فى البيئة العربية لأكثر من جيل ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤

لابد ان يحدث من تعدد هــذه المدارس وهذه التيارات المختلفـــة صراعات فكرية وثقافية بعضها يميل الى الهدوء والدعة والبعض الآخر عنيف شــديد قد يجر الى معارك بين أصحاب القلم ورجال الفكر والأدب قد تكون هذه الصراعات فى داخل الأدب نفسه ، فى طبيعته ومنهجه وأسلوبه ، وقد تكون بين القـــديم والحـــديث والتقليد وغـــير التقليد والرومانسية والواقعية وغيرها •

وقد تكون أسباب الصراع طابع اجتماعى يتأثر بالحياة من حوله ، حياة الناس وطبائعهم وأفكارهم وتأثير الطوائف المختلفة فى تجمعاتهم •

ولعل أكثر ألوان الصراع بروزا فى تلك الفترة ما كانت السياسة باعثة عليه ومحركة وشعلة لوقوده •

وأعتقد أن هذه الصراعات المتعددة فى حياتنا الأدبيــة ما زالت فى حاجة الى دراسة شاملة •

اذا أضفنا الى ذلك الصراعات العالمية وتأثيرها على المنطقة العربيــة وعلى الأخص ذلك الصراع السياسى والعســكرى الذى أشعل حربين عالميتين خطيرتين وأحدث اضطرابا هائلا بالغا فى القيم والمبادىء والأخلاق الســائدة ، وغير النظرة الى الحياة وهدد معنويات المجتمع الانسانى كله ولون الأفكار والفلسفة والأدب • اذا أضــفنا ذلك تصــورنا مدى القلق والاضطراب والحيرة والحنين الى الطمأنينة والهداية والمعرفة التى كانت تميز عصر المازنى •

لقد اجتمعت هذه العوامل لتشترك فى تكوين شخصــية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المازنى أو لتؤثر فيها تأثيرا كبيرا فمنذ وعيه بالحياة أدرك ما فيها من تناقضات ولعله وجد نفسه فى داخل الصراعات الحادة المتباينة ولعله جاهد جهادا شاقا ليحتفظ بتوازنه ولعل جهاده لم يكن على درجة واحدة فى كل الأوقات ، وهذا يفسر لنا انه كان أحيانا يبدو سعيدا فرحا راضيا وأحيانا أخرى يغلب عليه الحزن والسخط والتبرم ، يختلط التشاؤم بطبيعته المرحة وروحه المصرية الأصيلة ، فيتحول الى عناد ولا مبالاة بشىء ، وسخرية ولكنها سخرية هى الأخرى فكهة أحيانا وأحيانا لا تستطيع أن تخفى ما فيها من مرارة وأسى .

٥

ولقد ساعد المازنى بقراءاته فى الأدب العربى وفى الآداب العالمية على تكوين هذه الظاهرة النفسية والأسلوبية وعلى اذكائها ، فقد تعلق بالجاحظ ، وقرأ له كثيرا وخاصة كتبه المعروفة البيان والتبيين ، والحيوان والبخلاء ، والجاحظ أديب ساخر لا شك فى ذلك وأدبه يمثل أدب السخرية فى عصره .

وقرأ كثيرا لابن الرومى وتأثر به ، وهو ما نعرف من التشاؤم والتطير ومن الميل الى السخرية والهجاء ، ويبدو انه وصل الى درجة كبيرة من التعاطف والتجاوب مع الشاعر . ولعل مصدر ذلك انه لاحظ تشابها بينهما في المنزع والأسلوب والطابع العام (١١٢) .

واتصل المازنى بالأدب الصوفى وهو فى جوهره تزهيد فى الحياة وانصراف عنها الى ما هو أبقى وأخلد ، وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهتمامه هنا موجها بدرجة أكبر الى شعر ابن الفارض (١١٣) ٠

وكانت قراءات المازنى فى الأدب الغربى واسعة ، استهلها « بهازلت » ودواوين « بيرون » و « شيلى » ولعله تأثر كثيرا بجو الأدب الانجليزى وطابعه وهو فى ثقافته الأساسية يعتبر ابنا للمدرسة الانجليزية ٠

وفى قراءاته للأدب الروسى عرف هذا الأدب وهو يصور فترة الاضطراب الحاد والصراع المرير الذى كان يعانى منه المجتمع الروسى استعدادا للثورة ، ومن القصص التى تأثر بها هذا الأدب قصتان هما (سانين) sanin c أو ابن الطبيعة كما ترجمها هو و « الآباء والأبناء » لويشيوفسكى ٠

وقد تأثر بهما كثيرا (١١٤) وان كان بعض الباحثين الروس لا يرون ذلك ، والواقع أن فى القصتين ما يثير فى القارىء روح الاستخفاف ويبرره ٠ فاذا كان المازنى منذ البداية مهيئا لذلك فالأمر لا يحتاج الى جهد ٠

وقرأ المازنى كتاب العهد القديم وتأثر به ، وهو بأسفاره وأناشيده يثير روح التشاؤم خاصة سفر الجامعة الملىء بالسخط على الحياة والتبرم بها (١١٥) فكل ما فيها باطل باطل باطل وقبض ريح ٠

واختار المازنى آيات من العهد القديم ذكرها فى رأس فصول كتابه « ابراهيم الكاتب » فيها حزن على الحياة ، وأسف على سرعة زوالها ، وكثرة مآسيها ٠

وهنا تكمن العــلة الأساسية فى السخرية من الحيــاة ، انها شعور الانســان بانها قصــيرة بالنسبة له فلا تتيح له الفرصة الكافية ليمارسها رغم انها تعمر بعده ، ربما كان هنا شىء من الحقد على الحياة ، الحقد اليائس الذى لا يجــد له صورة ينفذ منها الا السخرية من هذه الحياة والعبث بها كما لو كان رد فعل لعبث الحياة به ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

سخرية المازني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سخرية المازنى

هذه الحياة العـامة التى عاصر المازنى أحداثها وتفاعل معها ، وهذه الحياة الشخصية التى عاناها ومارسها ، وتقلب فى خـيرها وشرها · لا أقول انها جعلت منه أديبا ساخرا ، ولكنها كانت وراء اختياره للأسلوب الساخر ·

لقد تفتح قلبه وعقله للأحداث من حوله ، وأحس أكثر من غيره بالمتناقضات وأدرك مسـئوليته نحـوها فأخذ يغمز ما يراه قابلا للغمز · ويضرب ما يحتاج الى الضرب ، ويعبث ويستخف وينقد فى أسلوب لا يجعلك تحس انه يقصـد الى ذلك قصـدا ، بينمـا هو يعبر عن شخصية واعيـة بدورها وبمصـير الانسـان ومستقبله رغم انه استخف بكل شىء ، مما قد يوحى أحيـانا بأنه لا يعنى ما يقـول حرفيا بقـدر ما يعنى الفكاهة السريعة التى لا طائل وراءها أو الهجاء المجرد الذى لا يعطى أملا فى تغيير ·

وهكذا أصبح المازنى ساخرا ، بكل ما فى السخرية من خفة ، وما فيها من قوة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ــ سخر من الأدب والأدباء ، ومن الانتـاج الأدبى ، وقد يرجع ذلك الى تجارب صعبة مرت به فى علاقاته بالأدباء والى ظروف غير سارة عانى منها فى حيـاته الأدبية ، وقد يكون منها انه على طول عهده بالأدب لم يرتفع بحياته المادية كثيرا على نحـو ما كان يريد ، فزال منه الاحساس بقيمـة الأدب أو بجدواه وكأن الهالة التى يحيطه الناس بها لا تمثل الحقيقـة ، أو ان العلاقة التى يرون انهـا تربطه بالحيـاة لا وجود لها فأصبح يرى الأدب غير ذى أهمية ، لا تزيد الحياة لوجوده ولا تنقص بعدمه ، حتى انه أخـذ يضع الأدباء فى مصاف الناس العاديين لا يفترقون عنهم فى شىء ولا يتميزون عنهم بميزات •

يقول فى هذا المعنى « والكتاب الذين يظهرون فى هذه الدنيا ليسوا كل من يحس أو يفكر رب تاجر يمسى ويصبح بين السلعة جيدها ورديئها ، والمساومات شريفها ووضيعها والمكاسب حلالها وحرامها ، هو أبعـد مدى ذهن ، وأوسع مقترب ذكر من كانت أو كونت أو من شئت غيرهما ، رب حمال يقضى عمـره جاعلا ظهره للأثقال هو أحس بالحيـاة والطبيعة من « ابن الرومى » ، وقد تزدرى أميا جاهلا وهو لو علمت أحكم قطعا من المتنبى ، ولكنه الغرور يخيل الينا ان الحيـــاة تنعم بمن ظهروا أو يظهرون فيهـا من الكتاب والشعراء والفلاسفة ومن اليهم ، وكل هؤلاء الذين نعرفهم نكرات يأتون الى الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخلفون وراءهم أثرا أدبيا ، والدنيا لا تنقص بذلك كما انها لا تزيد بمن لا يعرف من أبنائها المعـارف والحياة كالاقيانونس العظيم

لا يزيده صوب الغمام ولا ينقصه ما نأخذه منه ، وهب الدنيا خلت ممن عليها من الناس وصفرت من كل أصناف الخلق فماذا اذن ؟ لا شيء ... تظل الأرض دائرة حول الشمس ، ولا تكف الشمس عن اضاءتها كما تفعل الآن ، اذ نحن عليها نروح ونجيء ونكد ونسعى ونشقى ونسعد ثم نموت • ونحن نموت أفرادا وجيلا فجيلا ، أليس كذلك ؟ ولا تعود الدنيا موجودة فى نظرنا لو انه بقى لنا بعد الموت نظر ولا نعود نحن اليها أليس هذا هكذا أيضا ؟ فهب جيلنا كان آخر جيل أفنظن أن الدنيا كلها تقضى نحبها من أجل اننا نحن قضينا نحبنا ؟

اذن لا تصوب نظرك يا مازنى الى هذه الحيوات الصغيرة الساذجة التى تبدو لعينيك اذ تطل من نافذتك ولا تبتسم اذ تجتلى مظاهرها ، كانك تزدريها أو ترثى لأصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ولن يعرفوا ما عرفت فانها حافلة بالمتع والعجائب كهذه الكتب نعتنى بها ولا نكاد نحفل بما عداها ، ولعلها لو بلوتها أجدى عليك وأشرح لصدرك مما أضعت عمرك فيه (١١٦) • فهو ينكر أن يكون الأدباء أكثر الناس احساسا ، وأدقهم ادراكا ، كانه لا يريد لهم أن يذهبوا بهذا الظن الى مداه ، ولعل هذا يمثل المقارنة النفسية التى عقدها من جانبه — بين أن يكون الأدباء متمتعين بهذه الميزة وبين حياتهم التى لا تصل الى مثل هذه الدرجة فى المستوى المادى للمعيشة ، أو هو ينظر الى التجار وأصحاب الحرف الناجحين بنفس المقياس ، ويرى فيهم حدة الذهن وذكاء البصيرة ، وينظر الى الناس على مختلف طوائفهم ومستوياتهم التعليمية دون أن يجردهم من تلك الصفات والخصائص التى يظنها الأدباء خاصة بهم •

سخرية من الغرور يوجهها الى رجال الفكر فى غير تردد أو تحفظ ، ليسجل بذلك موقفه من الغرور ، فهو وحده أو هو بدرجة كبيرة مصدر هذه الخواطر ومحرك هذا الشعور ، والباعث على هـذه الحملة الشـديدة المشـحونة بالسخرية والاستخفاف من الكتب وأصحابها ومنـه هو نفسـه ، ومن الجيل كله ، وأثر هـذا الجيل فى الحيـاة ومن الأجيال التى تعاقبت أو تأتى بعد ذلك وضآلة ما تتركه من تأثير لو بقيت أو انتهت • فالأمر هنا لا يعنى التشاؤم فقط الذى هو موقف سلبى ضعيف ، ولكنه دعـوة ــ فى غير أسلوب مباشر ــ الى البسـاطة والتواضع والتخلى عن الغـرور وتقدير النـاس جميعا ، ورفض فكرة التعالى لأفراد معينين أو طبقات بالذات على الآخرين لظروف المهنة أو لفوارق الحظ من الثقافة أو القرب من مراكز التوجيه فى الحياة •

٢ ــ والمازنى فى نقده للكتب عابث ينحو بسخريته الى الاستخفاف المرح ولا يبالى أن يجعل من الكتاب الذى ينقده ومن مؤلف الكتاب أضحوكة مثيرة ، ففى نقده لكتاب « طه حسين » حديث الأربعاء يتخيل مستقبل الكتب عموما ، وقد احتوتها الأرفف فى المكتبات أو فى المخازن ، ومضى عليهـا الزمن ، فسخر بها ومن فوقها الحشرات وكأن بقاءها هـكذا يثير فى هذه الحشرات العجب ، والاستخفاف أيضا • وكأنه يقطع بعدم جدوى الجهود التى يبذلها فى هذه الكتب • لانها ستئول الى الحفظ ، وسينتهى بها الأمر الى أن تكون عبئـا لا طائل منه ، ثقيلا حتى على الحيوانات الضئيلة التى تهوم من حولها ، وتضيق بها اذا عاقت حركتها دون أن تجد فيها أى نفع لها أو لغيرها • انه يتصور ان « سحلية » يقلقها وضع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتب هكذا ، وتضيق بها وبأصحابها ، وتسخر من وجودها ومن أثرها ، وكأنها توافق الكاتب على ما يقول به ، فترى هى الأخرى ان الدنيا لا تخسر شيئا من فقدان هذا الكتاب وأمثاله ، والبشر جميعا لا يخسرون شيئا ان لم يقرءوا .

هذا التصور لا يخلو من عنف ، وهو يذكرنا بقضية التشاؤم التى أشرت اليها منذ قليل ، وان كنت لا أحب أن ألجأ اليها هنا لتفسر لى طبيعة الكاتب بقدر ما أرى انها تعنى موقفا خاصا له من الموضوعات التى تناولها كتاب « حديث الأربعاء » وليس الأمر استنتاجا فقط ، فانه قد مضى فى استعراض للكتاب يحمل سخرية صريحة بالمؤلف دون مواربة، فالدكتور طه ولى من أولياء الله الصالحين يتناول في كتابه « والبة بن الحباب » رضى الله عنه ، و « حماد عجرد » قدس الله سره ، و « أبا نواس » القطب الأعظم (١١٧) ويسخر من رأى الدكتور طه فى القديم والحديث ويدعى انه غير مفهوم ، وانه مجرد كلام ينتهى بانتهائه فيورد كلام الدكتور طه ثم يقول : أفهمت ؟ كلا ، ولا أنا (١١٨) .

ومرة أخرى يرى طه حسين فى مجاهل ومتاهات لا طائل منها ولا عائد ، وان فلسفته لا توصل الى غاية ، وغوصه فى أعماق التاريخ لا يحقق للحياة شيئا ، وسواء تجنى المازنى على طه حسين أو لم يتجن فقد أخذ يقول عنه « وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا الى أعماق مجهولة من الهواء الراكد فيما وراء المادة ولم يزد على انه ذكر لنا تلك السراديب الرومانية التى تذهب فى كل اتجاه ، والتى احتفرتها أيدى الناس بحثا عما لا تدرى ، وخير لنا أن ندع الدكتور وشأنه فى هذه السراديب ، ولنرفض أن ننحدر

وراءه الى هذا الظلام الدامس الذى أصابه على موضوعه ، ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة ، وبين مظاهر الحياة والطبيعة وليهنه البقاء ، نسأل الله له السلامة » ٠

٣ ــ وحين ينكر الدكتور طه حسين وجود مجنون ليلى ؛ يبادر المازنى الى الرد عليه ولكنه يستخدم الأسلوب المماثل لأسلوب طه حسين نفسه ، وكأنه بذلك يريد أن يرفض ما ذهب اليه ، أو انه يرى ان القضية من أساسها غير ذات موضوع ، لأن الأحياء جميعا مآلهم الى أن ينتهى وجودهم ، فيتساوى الجميع فى العدم ، وفى ان النسيان سيشملهم يوما ما ٠ يقول المازنى فى التعبير عن هذه الأفكار : « ان صديقى الدكتور طه حسين الذى سمعتم به وقرأتم ما كتب عنه شخص لا وجود له فى دنيانا هذه وانه من مخلوقات الخيال ليس الا ، أتهزون رءوسكم انكارا ؟ يا سبحان الله، وهل هو أضخم شأنا أو أحق بأن يكون مخلوقا حقيقيا من « هومر » الذى يذهب الكثيرون من جلة العلماء المحققين الى انه اسم خرافى ؟ أو من « شكسبير » الذى يزعم بعضهم انه اسم انتحله واستتر وراءه خلافه ؟

كلا ، لا محل للانكار ورفض التصديق ، والقدرة الالهية التى تفنى الموجود لا يعجزها الا توجده أصلا والمرء بعد أن يعود ترابا فى تراب تحت تراب ، كما يقول الخيام يجرى ذكره على بعض الألسنة ثم يقل وروده عليها يوما بعد يوم ، حتى تطوى صحيفته وينتم محوه ، فكأنه ما كان، وذاك مرجوعنا باذن الله فى هذه الدنيا التى لا تتسع لنا الا فوجا اثر فوج ، وهبوا الدكتور حقيقة مادية نلمسها ونحسها اذا شئنا فماذا يضره أن ننكر وجوده ؟

أليس الثابت على كل حال ـ انه بعد عمر طويل ان كان يشتهى طول العمر ـ سيحور صدى تتجاوب به كهوف بعض النفوس ، أو على الأكثر كتاب أو كتب تتداولها الأيدى • نعم ما أحسبه يطمع فى أكثر من هذا ، لانه ليس ثم ما هو أكثر من ذلك وهذه كتبه بين أيدينا فماذا اذن ؟ ما حاجتنا الى صاحبها،لماذا ينبغى أن يكون لها صاحب موجود ؟ (١١٩)•

بهذا الأسلوب الساخر انفرد المازنى بنقد هذه القضية فى وقت تعرضت لنقد الكثيرين ، ولكن بأساليب أخرى ومباشرة ، ومهما كانت هذه الأساليب فقد نرى ان سخرية المازنى على هذا النحو كانت أكثر فاعلية ، وأبعد أثرا ، لانها من الأساس تهون من أمر الموضوع ولا ترى لبحثه ضرورة ، رغم انه يتصل عند صاحبه بحرية الفكر وضرورة النظر من جديد فى تراثنا وحضارتنا بمقياس الفكر الحر والبحث العلمى الصريح •

ورد المازنى بهذه الصورة يجعل الأمر على طرفى الخلاف الذى اشتجر فى هذه الفترة سهلا وبسيطا ، والمهم ليس وجود مجنون ليلى أو عدم وجوده ، بل الأثر الذى بين أيدينا ، والذى يشغل الفكر بأدبه وروايته بأكثر ما يهمنا أن نشغل بحقيقة وجوده • كما ان مجنون ليلى ليس وحده فى التاريخ الذى منى بالانكار أو اتهم بانه مدعى من الآخرين ، فهناك من أعلام الفكر والأدب فى العالم من جرى عليهم ذلك ، وليس فى أيدينا أدلة لاثبات الوجود والعدم ، ولا يعنينا ذلك كما ظهر من الجدل انه لا يعنينا كذلك أوجد الدكتور أم لم يوجد ، ويكفينا منه ما بين أيدينا من أدبه وفكره اذا كان لنا أن نريد ذلك ، كما يكفيه هو الآخر أن يكون له فى النهاية

هذا الأثر يذكرنا به بعض الوقت قبل أن يغلب النسيان على أثره وأثر جيله كله ٠

وكما يستغل بعض الآراء للدكتور طه حسين ليتخذ منها مادة لسخريته ، وينسج على منوالها حديثه فيبدو منطقيا فى نقده لا سيما وانه يعلم ان الكثيرين سيفتحون له صدورهم وعقولهم ، ويبادلونه نفس الموقف ، كما يستغل بعض الآراء على هذه الصـــورة ، فانه يستغل أحيـــانا العوامل المادية أو الحقائق التى قد يسلم بها غيره ويعتمد عليها فى أن تبدو سخريته كأنها نقد عادى يبحث عن العوامل والأسباب ويعلل للظواهر والخصائص المميزة للأشخاص ومن هذا النوع قال بعنـــوان « العمى والغريزة النوعيـــة » (١٢٠) الذى يبدؤه بقوله « ليس الأعمى كالبصير » ويلح على هذه الفكرة ليجعل موقف طه حسين ضعيفا ويعطى لرأيه القوة والتأييد ، وكأنما كل ذلك كان تمهيدا لما يريد أن يذهب اليه وهو أن فكرة الدكتور طه عن الجمال محدودة ، وتصوره له ضيق ولا يمثل كل جوانب الجمال ، وذلك لانه نفسه لا يستطيع أن يعرف عن الجمال كل جوانبه فهو كفيف والجمال عند الكفيف مرتبط بالأنثى ومميز لها لا يوجد الا بوجودها ، ولا حياة الا معها ، والمرأة عنده فى الأعم أنثى يصبو جسد الرجل الى جسدها وأداة يرضى بها غريزته » (١٢١) ٠

ومن هنـــا يستطيع أن يذهب الى اتهـــام كل تصـــور من الدكتور بأنه ليس شاملا أو يجنح فى تهيئة النفوس لما يريد أن يقوله عنه ٠

٤ ــ وسخر من عبد الرحمن شكرى صديقه وزميله فى

حياته الكفاح الأدبى والرأى الحر ، وهنا تزداد سخريته عنفا بقدر ما كانت علاقته بشكرى .

السخرية هنا عنيفة ولاذعة ، وتسودها روح الرغبة فى التشهير على النحو الذى يناسب ما فهم أو سمع عن حملة شكرى عليه ومساعيه ضده .

٥ ـ ويبدو ان صراعه مع أنصار القديم كان حادا ، وان هذا الصراع ترك آثارا عميقة فى نفسه ، جعلته يتخذ من القديم والقدماء موقفا معينا . فأخذ يحمل على المتمسكين بالقديم والمتعصبين له ، فيراهم وقد صموا عنه لا ينصتون آذانا ولا يطوعون عقولهم لمناقشة ، ويرى فى مذهب القديم عنتا وعنادا وبعدا عن العقل والفهم لا يملك من عوامل الصمود والمقاومة الا اعتماده على الجهل المتفشى وعلى غفلة النفوس واعتماد الجماهير على القديم وركونهم اليه واستغلال الصعوبات الطبيعية التى تقابل كل من يعالج تحويل التيار ويحاول صرف النفوس عما ألفت ويلفت النظر الى اتجاهات جديدة أو آراء لم تكن متداولة أو كانت بعيدة عن منهجهم الذى ألفوه طويلا واستكانوا اليه ، مهما كانوا فيه من ضلال .

٦ ـ ويستخدم طرافة الأسلوب ليكسب سخريته قبولا وتأثيرا ـ ويحول حديثه الى ما يشبه الحقائق المسلم بها كأنها الحكمة لا سبيل الى انكارها ، فيجمع بين التناول الشخصى الذى يبدو ذاتيا ، وبين الحكم العام الذى يخلق لرأيه جمهورا ، وفى نفس الوقت لا يبدو هذا التعميم منفصلا عن امكان اعتباره نتيجة شخصية لها صلتها التى لا تخفى بما تقدم ، وعلى هذا النمط يعالج موقفه من « كتاب » للأديبة المعروفة

« مى » أهدته اليه ــ فيقول « تلقيت كتاب الآنسة « مى » (الصحائف) وظلمات وأشعة فى ساعة نحس وكنت قد باعدت بينى وبين الأدب ، وطلقته ثلاثا ، أو على الأصح فترت عنه وضعفت عندى بواعثه ، ثم قلبت القضية وعكست المسألة وحملت الأدب عيبى ، وزعمته أصل البلاء والداء العياء واذن فالنجاء منه النجاء » ، ويستمر قائلا : « وفى الكتاب كما فى الناس المجدود والمنحوس والمرموق من القلوب والبغيض الى النفوس ، وهى تلقى من تصاريف الأيام ، وانتقال الأحوال مثل ما يلقى كتابها وقراؤها وغير كتابها وقرائها سواء بسواء ، وكم من كتاب جليل لازمه الخمول ، فكأنه حين خرج من المطبعة سقط فى جب ، وكم من مؤلف قيم أغار « هولاكو » على جثته ، وآفاض روحه فى وثبته ، وليس الناس وحدهم يموتون ، ولكن هى الكتب أيضا تحيى وتموت وتطول آجالها وتقصر » .

ومن آرائه الطريفة فى الكتب ما ينم عن تأمل ذاتى خاص ، وادراك مرهف لما قد تتركه من آثار على هوائها المغرقين فيها والذين لا يعرفون شيئا عن حياتهم الا عن طريق الكتب . وكأنه أخذ يراقب بعض هؤلاء وقد أصبح شبه معزول عن الواقع الذى يعيشه ، لا يجد انساله الا فى الكتاب . نسى العالم ، وانصرف عن المجتمع ، وترك نفسه تتجنب الآخرين حتى انفصل بفكره وروحه عن معاصريه وأصبح غريبا أو كالغريب . فاذا خرج الى الناس يوما فهو بينهم صورة قريبة منهم ولكن روحه بعيدة عنهم ، وأفكاره لا تعيش فى واديهم ، أو غير مألوفة منهم . يعبث المازنى بهذه الظاهرة ويرى الكتب مسئولة عنها ، فهى تجعل من صاحبها شخصا محبا للمثل العليا ، على حين لا يجدها فى

الواقع وتباعد بينه وبين شخصيات المجالس التي يدلف اليها أو تجمعه بها المناسبات والظروف ، فان زميل الكتب المصاحب لها يصبح ولا ينقصه الا أن يوضع على الرف الى جانب اخوته ويحول مستواه بينه وبين أن ينزل الى مستوى أقل ٠

ويضرب المثل على ذلك من نفسه حين يرى أن طول عهده بالكتب جعله يقف منها موقفا معينا حيث يقول « وما من سبب فى انى لو كنت أصغر مما أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة لخرج المقال من يدى على غير ما يخرج الآن ولكان الأرجح فى الاحتمال أن أشيد بذكر الكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من أجلها ، ولكن لسوء حظها كبرت وبلوت من جرائرها ما أسخطنى عليها وبحسبى من ذلك أن صارت مجالس الناس وأحاديثهم عندى غثة لا تكاد تساغ ولا تستمرأ ، وانى مضطر أن أعالج نفسى لأطيقها وأصبر عليها ولا أقول لأستمتع بها ٠ وليس ذلك لعزوف طبيعى عن الناس وكراهة لمخالطتهم ولكنها الكتب قبحها الله ردتنى كالمترف الذى تؤذيه خشونة العيش ، ويستطرد « ألست قد عشت بين خير العقول وأحسن النفوس وألفت أن أتناول عصارة الأذهان وخلاصتها النقية الممحصة واعتدت الصقل فى سوقها والفن فى عرضها وابرازها ؟ فما عسى الصبر اذن على أحاديث المجالس الخاوية ، المكررة المبتذلة ؟ » (١٢٢) ٠

ونكاد نحس هنا بالسخرية من الجانب الآخر فى نفس الوقت ، الجانب الذى لا يعرف الكتب ولا يرقى اليها ، ونكاد نحس السخرية بهذا الجانب أشد وقعا وأكثر صراحة ، حين ننصت الى الكاتب ، وهو يستطرد بعد ذلك قائلا : « وما مثلى الا كمثل الذى نشأ فى بيئة أرستقراطية كما يسمونها ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودرج على عاداتها وتقاليدها وآدابها ، مثل هذا لا يحسن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطهاة أو العملة وباعة الأسواق ، ولا شك انه يحادثهم أحيانا ويحتك بهم قليلا ، ولكن هذه ليست معايشة ، وأكثر ما يكون اتصاله بهم حين يصدر الى واحد منهم أمرا أو يبتاع سلعة أو يفعل ما هو من هذا بسبيل (١٢٣) .

ومع هذا فهو لا يخفى رأيه فى تأثير الكتب على النفس، وكأنه صور الحاجز الذى يفصل ما بين هواة الكتب وبين غيرهم نوعا من الشيخوخة يعترى النفس فيشيبها قبل أن تشيب الرأس وينتقل أثره الى العين فيطفىء ما فيها من بريق .

وقد أخذ يميل هنا الى المبالغة والانتقال من حالة نمو فى النفس بما لديها من حصيلة فكرية وثقافية كبيرة الى حالة من الشيخوخة والشيب ومصدر هذا على ما يبدو سخطه الشخصى فقد يرى غيره ان ما تضفيه الكتب على أصحابها وان جعلهم فى مصاف الحكماء الكبار فانه فى نفس الوقت يشيع فيهم من الحيوية ونشاط الفكر ما يفتقر اليه الشباب الخاوى من الثقافة البعيد عن مجالات الفكر .

٧ ــ ويبدو ان المازنى عانى كثيرا من فقر المجتمعات التى كان يرتادها ، هذا الفقر الثقافى الذى يصاحبه ادعاء بارتياد ميادين الفكر ، فى جرأة وكأنهم من الرواد فى كل فن والمحيطين بكل موضوع ، يسخر المازنى من هذه المجالس ورجالها قائلا : « وأتعس المجالس وأثقلها على نفس الأديب تلك التى تتألف من الأوساط أدعياء الثقافة فيها يدور الحديث على الآداب والفنون ولكنه حديث منقول عن الصحف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمجلات يلوكون فيــه ما تكتب لهم ، ويفســدونه افسادا لا سبيل الى الصبر عليه ، وعذرهم واضح وعذرك أوضح ، فالموضــوع الذى يرونه منك اليك لا يعنيهم كمــا يعنيك ولا يستمدون البــاعث على طرقه من أعمق أعماق نفوسهم مثلك ، وقد لا يدرون عنه الا بعض ما التقطوه منك ، وتشعر بالتقزز اذ ترى القوم يمزقون بأنيابهم خواطرك ومعانيك ويلقونها اليك فرقا قذرة ، وتصدك الآداب العــامة عند تنغيصهم ويقضى ذلك على صدق السريرة ويذهب بالاخلاص ويفيض من جراء ذلك معين اللذاذة المستفادة من الاجتماع ، ومن هذا الضرب أفراد يحفظون من الكتب أسماءها وأسماء مؤلفيها وبعض ما يقال عنها ، ويدورون بهذا على المجالس يعرضونه عليها كالاعلانات ، حتى لكأنهم فهارس حيــة أو قوائم متنقلة (١٢٤) .

وقد يكون المازنى هنا قاسيا بعض الشيء لاننا لا يمكن أن ننتظر من كل الناس أن يكونوا أدباء ولا أن يكون اهتمامهم بالثقافة والفكر كاهتمام الأدباء بهما ، ولا يمكن أن نفترض في كل المجالس أن تكون من مستويات رفيعة ترقى الى المفكرين وأصحاب الرأى كما لا ينبغى أن نحرم متوسطى الثقافة من أن يتحــدثوا فى هــذه المــادة التى تكونت منهــا ثقافتهم النصف .

انها بنفس المقياس الذى نقيس به المفكرين وأصحاب القلم ــ هى حياتهم فكيف ينفصلون عنها ؟ قد يكون منهم من يردد آراءك أو آراء غــيرك فكيف نمنعــه من ذلك ؟ وكيف نطالبه بأن يكون هو صاحب الرأى ومنشئه ، كيف نفرض

عليه أن يكون ناقدا ، وألا يردد آراء غيره ، وهذه حدود علمه ومبلغ حظه من الثقافة ؟

ماذا على متوسطى الثقافة وعندهم بعض الأفكار والمعلومات عن الأدب والفن والسياسة والفكر ؟ هل يخزنونها فى نفوسهم ، بدعوى انه لا حق لهم فى أن يجعلوها مادة حديثهم ، أم نتيح لهم فرصة مناقشتها ، وفرصة الاستمتاع بها فى مجالسهم ومنتدياتهم ٠

ان هذا هو شكل الحياة الطبيعى ، وجوهرها وحقيقتها ، فقوم يفكرون ويعبرون وقوم يعيشون على أفكار هؤلاء وعلى ما يقولونه لهم ٠

وربما ظهر من بينهم من يملك القدرة على التغيير والتأثير ، والنقد البناء ، وربما كان منهم العباقرة الذين لم يكن حظهم من العلم والثقافة كبيرا ولكنهم بعد قليل كان لهم شأن أى شأن ٠

اننا لا ينبغى أن نضيق بمن يمارسون حياتهم على النحو الذى يرضى حبهم الى المعرفة ، وميلهم الى الأدب والفكر والفنون لمجرد أن رأينا فيهم انهم ليسوا من أعلام هذه الميادين ٠

٨ ــ وسخر المازنى من قراءاته ومن عدم جدواها ، وموضع العجب هنا ان هذا الموقف يعتريه عند كل قراءة ، وان كان من الممكن أن نستنتج ان هذه الظاهرة حدثت له أيضا بعد أن قرأ كثيرا ولم يجد فى النهاية لقراءته أثرا على النحو الذى كان يريد ٠

وكأن الذى سيطر على المازنى ان الحياة لا تزيد بما يضيفه

أبناؤها اليها من أدب ، ولا تخسر اذا لم يضيفوا فهل يريد من ذلك أن يقول ان الحياة من القوة والاكتفاء بحيث لا تحتاج الى عمل الآخرين ؟ ان هذا الفرض بحرفيته قد يكون بعيدا وان كان مضمون سخرية المازنى يشير اليه ٠

وهو فى نفس الوقت يتعارض مع ما نراه بديهيا أمام أعيننا ، ويشهد بما يحتاج الى اثبات ان الحياة فى كثير من صورها من صنع الانسان ٠

لعل الكاتب يريد أن يؤكد قوة الحيـــاة فى مسيرها وان فردا أو أفرادا لا يحسبون شيئا بالايجاب أو السلب بالنظر الى قوة الحيـــاة نفسها ، وان الخط الذى تسير فيه ممهد لها ومسلوك رغب الآخرون أم كرهوا فعلوا أم لم يفعلوا ٠

ولقد أجرى المازنى المقياس على نفسه ، ونصب لها نفس الميزان ، فى اطار الاستخفاف بانتاجه وانتاج الآخرين والحكم على ما قرأ أو كتب بالهباء : « كلما قرأت شيئا أسأل نفسى ، هبنى لم أكن قرأت هذا ، أو لم يكتبه صاحبى فماذا كنت أخسر ؟ ولقد نصبت هذا الميزان لنفسى فانتهيت الى انه لا خير فيما قرضت من الشعر وان الأدب المصرى لايزيد به ولا ينقصه اذا فقده فكففت عن النظم » ٠

ولكن لو أن المازنى خطر له أن يسأل نفسه ، ماذا لو كف الجميع عن الكتابة والقراءة ؟ أكان يمكن أن يظل على رأيه ؟

أغلب الظن انه لم يتنبه الى ذلك ولم يشغل به ، ولم ينظر الى القضية من هذا المنطلق العام ، انما هو فى حدود تأثراته وتجاربه الشخصـــية ، وظروف ما يقرأ ومستواه وتطلعاته والنتائج التى حصل عليها من عمله فى الأدب وصلته بالحياة الأدبية ومستوى فهم الآخرين لأدبه ٠

انه يحزن لانه يرى الاهتمام بالشكل يسيطر على قرائه ، ولا يرى نفس الدرجة من الاهتمام توجه الى المعانى التى يقصدها ، والموضوعات التى يريد أن يعالجها ، كأن آراءه وتجاربه وعواطفه لا وزن لها عند الناس ولذلك فهو يشعر بالضياع لان حقيقته ليست فى دائرة الاهتمام وحقيقتهم أيضا لا تشد انتباههم انما اللفظ فقط هو ما يعنى القارئين .

« يا ضيعة العمر ، أقص على الناس حديث النفس ، وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد ، فيقولون : ما أجود لفظه أو أسخفه ، كأن الى اللفظ قصدت وانصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم لو تأملوها نفوسهم بادية فى صقالها ، فلا ينظرون الا الى زخرفها واطارها وهل هو مفضض أو مذهب ، وهل هو متملح فى الذوق أو مستهجن ، ما لهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطآنه ، وكثرة صخوره . يا ضيعة العمر » (١٢٥) .

ولهذا يسخر المازنى من القراء ويعبث بعقولهم وكأنما اللفظ الذى يهتمون به أكثر من غيره لا يقنع المازنى فى أن يستخدمه للسخرية والتهكم بقرائه ، فيعدل عنه أو يضيف اليه الحركة التى يعرفون دلالتها لعلها تذكرهم بالمعنى الذى لا يفطنون الي أهميته فلم يجد أمامه الا أن يخرج لهم لسانه، حين يراهم لا يهتدون الى ما يبغون وان كانت تحت أنوفهم (١٢٦) .

على اننا نجد فى بعض كتابات المازنى تقديرا للقراء ، ودفاعا عنهم حين يقول : « وأحرى بفلسفتنا أن ترضى القراء وأن تكسبنا ثناءهم حتى اذا لم يفهموها كما هو المنتظر ، ذلك انها دفاع عنهم » .

ويقول بعد ذلك : « وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء ، نكتب لهم طلبا لاعجابهم والتماسا لثنائهم ، ونشدانا للشهرة واستفاضة الصيت بينهم ، وتأبى لنا طباعنا المنكرة الا أن نجعل الاستخفاف بهم وسيلتنا الى اكتساب ذلك : يعرض أحدنا على القراء بضاعة مزجاة فاذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق وانها لا تتحمل الا الخسيس الرخيص من الأصناف ويصغى ثان ويغدو كالدجاجة التى انقطع بيضها فيكبر عليه أن يقول فرغ رأسى ويروح يقول : ان الأرض غير صالحة للبذر ومن الحمق أن أحاول زرع أرض ظهرها صفوان وقد علم ان العيب عيبه لا عيب التربة » (١٢٧) .

فهو هنا يقف الى جانب القراء ، ويلتمس لهم العذر ، ويعترف بالاهتمام بهم ، ونشدان اعجابهم ، حتى الاستخفاف بهم وسيلة للحصول على هذا الاعجاب .

٩ ـ وسخر المازنى من غير الأدباء :

فسخر من الفلاسفة « هؤلاء الذين لا يصلح كلامهم الا لنعزم به على الجن (١٢٨) .

ويسخر من المؤرخين الذين أرخوا لابن الرومى ، الذين أتحفونا بطائفة غير صالحة من نوادره وفضائله ورذائله ، رواها بعضهم عن بعض بالتواتر كما هو مألوف العرب وديدنهم ، وهو مذهب أشبه بالعمليات الحسابية منه بالتحليل الأخلاقى ، وليس فيه تصوير للنفس ، ولكنه قياس لطول الصورة وعرضها » (١٢٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستطرد عـلى عادته ، وأغلب الظن ان الاستطراد فى أسلوبه ناشىء عن اشتغاله بالتدريس مدة ليست بالقصيرة ٠

ولعلنـا نهتم بظـاهرة الاستطراد فى الأسـلوب الأدبى فنعطيها بعض العنـاية وندرسها فى علاقتهـا بالكاتب أو بالموضـوع أو فى تأثيرها عـلى المعنى تأكيدا أو اضعافا أو تشتيتا أو جمعا لعناصر متعددة للصورة الواحدة فى أبعادها الفنية والشخصية ، فنعالج بذلك جانبا أعتقد انه حتى الآن لم يدرس دراسة كافية ٠

ونعود الى المازنى فى استطراده ليكمل لنا الصورة عن المؤرخين العـرب من حيث كونهم على تعـدد منـاحيهم فى الكتابة ، وكلفهم بها وفنونهم فى السرد والقص والرواية لا يعطون فى رأيه من النتائج ما يناسب هذه الفنون وهذه الجهود التى يعانيها القارىء فى البحث فيها ومتابعتها » وانك لتقرأ للمؤرخ من العرب السفر الضخم ذا الأجواء العديدة والحواشى والتعاليق وتعانى فى تصفحه من البرح والعنت ما تعانى ثم لا تظفر الا بأشياء لا تستحق ما عالجت فى سبيلها من الشدة وبذلت من الجهـد وأنفقت فى طلبها من الوقت والمال والعافية ، ولا تجد الا قصصا وأخبارا لا ترى عليها طابع العقل ومبسم التفكير كأن لم يكتبها انسان وهبه الله عقلا وفهما وفؤادا ذكيا ، وذهنا يتفكر وقلبا يتدبر أو كأنما كانوا يكتبـونها وهم رقود حتى ابن خلدون الذى عاب من سبقه من المؤرخين وفطن الى مواضع الضعف فيهم وليس خيرا منهم حلا » (١٣٠) ٠

وسـخر من الأساتذة الثرثارين الذين ـ على الأرجح ـ لا يركزون فيما طلب منهم بل يحـومون هنا وهنـاك وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يطيلون فيما لا يحتاج الى الاطالة ، ويضيفون ما لا داعى له ، ويظنون انهم فى أحسن حالاتهم كسبا لاعجاب طلابهم بينما ينتظر هؤلاء الطلاب الفرصة التى تسنح لينفضوا أيديهم من المحاضرة •

(فى قصة ابراهيم الثانى ، وفى حوار له مع احدى شخصياته « ميمى » تقول له متهكمة بعد أن انتهى من محاضرته : لقد كانت المحاضرة يا سيدى الأستاذ مدهشة ، وأظن اننا نستحق شيئا من الراحة بعدها ، فهل تسمح بأن أدق الجرس ـ وكان قد ظل طويلا يحاورها ويداورها محاولا اقناعها بانها تحب (صادق) وبانه يصلح لها لو أحسنت معاملته ـ قال لها نعم ، وان فى وسعك أن تدقيه من اللحظة الأولى ، ومعذرة اذا كان موضوع المحاضرة يا تلميذتى النجيبة قد ثقل عليكم » ـ وأخذ يسخر من الأساتذة فيقول : « ولكنك تعرفين الأساتذة ثرثارين لا يكاد المرء يفتح لهم بابا حتى ينطلقوا كالقنبلة » (١٣١) •

١٠ ـ وسخر المازنى من الناس عامة :

من يعرف ومن لا يعرف ، قريبا أو بعيدا عاديا أو رجل سياسة أو مجتمع •

سخر من الانسان وعبوديته للدنيا ومغالطته لنفسه ، حين ينشد السيادة ويتطلع الى الراحة خداعا لان الحياة أمامه لا تعطى الأمن ، ولا تهب الحرية انما هى سجن مظلم ملىء بالأوهام •

ومع ذلك فهو ذاهل عنها فى أحلامه يفيق أحيانا فيشكو ويلجأ الى البكاء ، « ولكنك عبد للحياة ، عبدها الباكى الشاكى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بفنـائه ، الذى لا يعجب الأحرار الطلقـاء ، وأحسب انك معذور اذا بكيت سارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك » .

« لا بأس ارسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعا ، نعم غن وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطـرد عن نفسـه المخاوف » .

« احلم ــ على الرغم من المرض والأسى ــ بالخلود ، وغالط نفسك وقل ان الجمال وحى ، وان الحب ... لا أدرى ماذا أيضا ، ولكن ألا تسمح لى أن أسألك ، ما وحى الأزاهر الذى يذكى أنفاسها ؟ وكيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيجاء الثمار ؟ وأين وحى الينبوع فاضت به الأصلاد » ؟

« لا بأس ، غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى » .

١١ ــ ويسخر من غرور الانسان وكبريائه وتوهمه انه محور هذه الحياة وجوهر الوجود ، ومركز الدائرة فالكل له ومسخر لمشيئته ، والسماء والأرض ما خلقتا الا له ، يقول على لسان صاحب الذكرى فى قصته «كأس على ذكرى» (١٣٢)

« ان هذه السـماء ليست مجهولة للانسان مهما تكن علة وجودها ، وانه لا شىء فى الأرض أو فى السماء مجهول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود بل ليس أقدر من هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته أو لاشيئته اذا شئت » .

والواقع انه عالج هنا فكرة يميل الى الأخذ بها كثيرون. ولا أدرى لماذا يسخر منها ، وهى تؤكد أهمية الانسان وقوة أثره فى الحياة ، وتشعره بالمسئولية ليظل قائما بدوره فى المحافظة على هذه الحيـاة وفى ترقيتها .. ولعـله يريد أن

يناقش فكرة كون الانسان محورا للوجود كله ، ولا يريد أن ينفى أهميــة الانســان فى عالمه الصــغير ، وكأنه متــأثر بما لا يؤيد العلم احتماله ، ولا يعارضه ، وهو امكان أن يكون هنــاك عوالم أخرى وناس آخرون فى هــذه العوالم الموجودة فى الكون الواسع ٠

ولهذا لا ينبغى أن يقنع الانسان بمكانته من الحياة ، فان هناك عوالم أخرى ينبغى أن يسعى الى التعرف عليها وفهم حياتها وطبيعة وجودها ، فلا يظل مكتفيا بنفسه وبحيــاته الصغيرة تحت الوهم بانه وحده القوة العاقلة المدبرة لهــذا الوجود ، وربما كان كثير من المشاكل التى عانى منها الانسان على المستوى العالمى راجعا الى أن هذه الفكرة جعلت صــورة الحياة فى نظره محدودة وضيقة وأعطتــه احساسا مضاعفا بعظمته وقوة سلطانه ٠

١٢ ــ ويضيق بما فى الانسان من ميل الى الغش والخداع ، ويرى ان هذه الصفة أصل فيه ، ولا يبرىء نفسه من ذلك ، ويبالغ فى حكمه ، فيذهب الى ان الذى لا يغش فليس ذلك لانه أمين وشريف ، ولكن لانه ضعيف وجبان ٠ ويؤكد هذا فى نظــره ان التوجيـــه دائما يقصــد الى الخــير ، وليس العكس (١٣٣) وهــذا فى نظرى حرص من الموجهين على أن يجنبوا الانسان ما يمكن أن يكون مستعدا له من ألوان الشر ويغلبوا جانب الخير فيه حتى يحققوا للحياة أقصى درجة من الاستقرار والأمن ٠

ولكن المازنى لا يبرىء أحدا من الميل الى الغش ، « ولولا الصعوبة وخوف التورط فيما لا يسهل الخروج منه لغش كل انسان كل انسان ، ولكن من العسير أحيانا أن تركب الترام

الى حيث تريد دون أن تنقد العامل ثمن التذكرة ، وأشق من ذلك كثيرا وأوخم عاقبة أن تسافر على قطار حديدى بلا تذكرة ، وأنا أعترف انى اذا كنت على شيء من الشرف والذمة والأمانة والنزاهة فليس ذلك لانى خلقت متحليا بهذه الفضائل ، بل لانه ينقصنى القدر الكافى من الجرأة والاقدام أو بعبارة أخرى ، لان نصيبى من الجبن فوق المتوسط ، فليس لفضيلة فى انى لا أنشل ما فى جيوب الناس اذا لاحت لعينى متضخمة بما فيها من أوراق النقد ، ولكن لانى أجد نشل الجيوب أشق على وأبعد مطلبا من الكتابة باللغة اليونانية التى لا أعرفها ، وكثيرا ما تخايلنى التحف الثمينة فى الحوانيت من وراء الألواح الزجاجية ، فأشتهى أن تكون لى بلا ثمن ، وأتمنى لو استطعت أن أمد اليها يدى ثم أمضى فى سرعة ورواح وأمن واطمئنان ولكن هذا الخاطر وحده ــ ودع عنك الفعل نفسه ــ يحلل قواى ويفكك أعصابى حتى لا أحس ان بى حاجة الى من يأخذ بيدى ويعيننى على السير . وربما فكرت فيمن يزيفون ورق النقد ، ويتخذون ذلك حرفة وتجرا ، فيطير النوم من عينى ليالى عدة هول ما يقدمون عليه من المخاطر ، وما أظن لو انى كنت نشأت بين اللصوص والسراق الا أن جبنى كان قمينا أن يؤدى الى تنبيه الشرطة والحراس الى ما أنوى الشروع فيه لفرط ما أعتقد انه كان ينتابنى من الاضطراب (١٣٤) .

ولا شك ان الكاتب هنا تأثر بظروف معينة وتجارب خاصة مر بها ، وقد لا نقره على النتائج التى خرج بها ، وأصبحت تؤثر فى تكوين آرائه حتى وصل الى اعتناق هذه الفكرة عن خداع الانسان ونفاقه لا يستثنى من ذلك أحدا ،

حتى نفسه لا يرى فيها شذوذا عن هذه القاعدة ، وان بدت فى بعض تصرفاتها انها تنهج نهجا خيرا • قد نختلف مع الكاتب ، وقد نرى ان الخير هو طبيعة وأصل فى الانسان ، وان ظروفا ما قد يكون للانسان دخل فيها ، وقد تفرض عليه أحيانا ، تحتجزه عن الخير ، وتحول بينه وبين أن يظل فى الطريق الموصل اليه ، وهنا قد لا يستطيع الانسان أن يصمد لاغراء الشر •

لقد تعرض الكاتب لغدر كثير من أصدقائه على ما يبدو ، وربما لغدر غير مباشر حين تعاونت بعض الظروف عليه فعانى منها متاعب مادية وجسمانية ونفسية ، وعاش فترة مريرة فى حياته العامة حفلت بالآلام لوطنه وللانسانية •

عاصر حروبا فى مختلف أنحاء العالم ، وعاش صراعا مريرا بين وطنه وبين المستعمر ، بين الشعب كله وبين الغزاة الذين ظلوا يتواردون أو يستوردون على فلسطين ، حتى وصل الصراع الى مرحلته الخطرة والحاسمة فى سنة ٤٨ ، والغدر والنفاق يسيطران على الجو العربى ، وعلى الجو العالمى والكذب يميز السياسة العالمية ويحرك الجبهات الرئيسية التى تشكل قوة لها وزنها وفاعليتها فى الأحداث التى شملت المنطقة العربية على وجه الخصوص •

حاكم أجنبى يغدر بالوطن ويخدعه ويخدع الأمة كلها وحاكمون يخدعون المحكومين ويغدرون بهم ويسوقونهم فى قمة الموقف الى الموت خداعا وغشا ، يتاجرون بالشعارات وبالمبادىء ، وآمال الأمة وشبابها وقادة على مستوى المسئولية يتآمرون على البلاد ، ويزيفون الحقائق ويبيعون الوطن فى الظلام •

ربما يكون فى هـذا جنوح منى الى جـو عاطفى يرضى مشاعر خاصة لدىّ حركتها الذكريات ، وأحداث التاريخ وأشعلتها الأحداث المعاصرة التى هى فى الواقع امتداد لتلك الأحـداث التى عاشها الكاتب وتأثر بهـا وحكم على أخلاق الناس وضمائرهم من خلالها .

ومع ذلك فلا أرى انها جنحت بنا بعيدا عن الموقف الذى نعالجه ، فما زلنا مع المـازنى الساخر ، الذى كان مرهف السخرية لكل شىء ، حتى تتحول الأحداث التالية الى مكونات للنظرة العامة والحكم الشامل .

وفى هـذا الاطار يمكننا أن ننظـر الى ترجمـة الكاتب للقصيدة الساخرة « لتوماس هاردى » وعنوانها « أتحفر فوق قبرى » .

انها تمثل تجرد الدنيا من الوفاء حتى من الحيوان الذى عرف بوفائه وأصبح مضرب الأمثال ، فكأن الأحداث التى مرت بالانسانية فى النصف الأول من هذا القرن قد غيرت من الحقائق وأشباهها ، وأفسدت ما كان عصيا على الفساد .

والقصيدة تشكل حوارا بين سيدة ماتت وانتقلت الى حيث يترك الأحيـاء موتاهم ثم يعودون اليهم بين الحين والحين — تنتظر السيدة أن يزورها أحبابها وأقرباؤها ، وتحمد لهم وفاءهم ولكنها تكتشف فى النهاية انها كانت واهمة وانهم جميعا نسوها حتى كلبها .

وأعتقد أن فى اختيار المازنى لهذه القصيدة ايماء رمزيا وتجـاوبا مع هذه السـيدة المسـكينة التى افتقدت أحبابها وكأنها ليست وحدها ، وليس فقدها لهم فقط متعلقا بالموت، أو من جانب آخر ليس فقط بين الأحياء .

ويبدأ الحوار هكذا :

ـ « أهـذا أنت يا حبيبى تحفـر فوق قبرى لتغـرس غصنا ؟

ـ كلا لقد ذهب أمس ، وتزوج فتاة حبيبة ربيبة غنى ، وقال عنك انها لا يمكن أن يسؤها الآن ألا أكون وفيا ·

ـ اذن من يحفر قبرى ؟ أهو أدنى أقربائى ؟

ـ كلا انهـم يجلسـون ويقولون أى جـدوى من غرس الأزهار ؟ ان المنـاية بقبرها لا تخلص روحهـا من شباك الموت ·

ـ ولكن من الذى يحفر فوق قبرى ؟ أهى عدوة لى ؟

ـ كلا ، انها لما سمعت انك اجتزت الباب الذى يوصـد على كل حى عاجلا أو آجلا ، لم ترك بعد ذلك أهلا للبغض ، ولم تعد تعبأ بك أو بجدودك ·

ـ اذن من الذى يحفـر فوق قبرى ؟ فانى أتألم من التخمين ·

ـ انه أنا يا سـيدتى العزيزة ، كلبك الصغير لا يزال يعيش قريبا منك ، وأرجو ألا تكون حركاتى تزعجك ·

ـ آه ، نعم انت تحفر فوق قبرى ·· كيف لم يخطر لى اننى خلفت قلبـا وفيا ورائى ، أى احساس ان الانسـان لا يضارع وفاء الكلب ·

ـ سيدتى لقد حفرت فوق قبرك لأدفن عظمة تكون ذخرا لى اذا جعت وأنا أطوف بقرب هذا المكان · وانى آسف ولكن نسيت ان هذا مرقدك » (١٣٥) ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أليست نهاية هذا الحوار بالغة التعبير عن الألم للجفاء ، والتنكر ، والنفعية التى تسيطر على الكائن الحى ، وتحكم تصرفاته وموقفه من الآخرين ؟

كأن الكاتب والمترجم يريد كل منهما أن يقول ان الوفاء لا وجود له ، حتى الميت الذى لا يكلف الوفاء له شيئا لا ينال حتى وفاء أحبابه وأقرب الأقرباء منه وحتى الكلب المشهور بالوفاء ، فان شهرته هذه كذب وهراء •

وكأن الحيـاة لا تمل العبث بالناس حتى بعـد الموت ، فينساهم أحبابهم ولا يجد أعداؤهم ما يغرى بالشماتة •

ربما كان الكاتب هنا كذلك مبالغا ولكنه الى حد ما يصور أهمية الوفاء ويجسمه ويعطى صورة باهتة للحياة وهى خالية منه وهنا تكمن القيمة الحقيقية للسـخرية حين تؤكد القيم العظيمة ، وعناصر الكمال فى الحياة بأسلوبها الخاص •

١٣ ــ ومن النفاق الذى سخر منه المازنى تظاهر بعض الناس بالتزهد فى الحياة وادعاؤهم ان الموت لا يهمهم وانهم لا يكترثون له ، « وقد يدعى بعضـنا العجب ممن يعـدون لذهابهم عدته ويجمعون له أهميته ، ويحرصون على ما يكلف من نفقة يدخرونها لذلك اليوم الذى يرحلون فيه ، ويطلبون أن يكون تشييعهم على أسلوب معين ، غير ان الأمر لا محل فيه للعجب ، وما يدرينا لعلنا نريد أن نتفادى أن يقال عنا انه ليس أجدر بنا ولا أمثل من هذا الرحيل ، وما أكثر ما نزعم ان الأمر لا يعنينا ، وانا لا نكترث له واننا سنذهب حين يأتى ذلك بقـدم ثابتـة ، وقد نحب أن نمسـح أعثـار قلوبنا بالسلوان ، فنقول ان الموت مسألة تافهة ، واننا نلقى اليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحياة كما يلقى أحدنا أعقاب السجاير ، واننا مللنا أن نظل ندفىء أيدينا أمام موقد الحياة ، واننا متأهبون للرحيل ، وسنلبس له أبهى الحلل ، ونلف فى أزهى الحرائر وأغلاها وسنوضع على أجداثنا الرياحين والأزاهير ، ويذكرنا الناس على حين نتساهم ، ونفضل عنهم ، هذه صفة تميز بها الانسان عن سائر الحيوان ، ونعنى قدرته على أن يدعى انه لا يكترث للموت » (١٣٦) ٠

والمازنى هنا يعلن عن حبه للحياة على الرغم من سخريته منها واستخفافه بها فى أحيان كثيرة وعلى الرغم من اننا قد نتوهم انه لا يبالى بالموت ٠

فهو لا يريدنا أن نذهب بأوهامنا عند هذا المذهب ، رغم ما نعرفه عنه من تأثر بغدر الأصدقاء وضيق بالنفاق وحسرة على الوفاء الذى يعتبر عزيزا على الأحياء والأموات ٠

ويؤكد هذا الاتجاه باتهامه الصريح للزهد فى الحياة بانه الكذب والمغالطة « نعم من الأكاذيب ومغالطة النفس أن يدعى أحد الزهد فى الحياة والشوق الى الرحيل ، وأن يتظاهر بالارتياح الى ذكره بعد ذهابه ، حتى التيقن من خلود الذكر ليس فيه سلوان » (١٣٧) ٠

١٤ ـ ويسخر المازنى من انحراف الرجال عن رجولتهم وانحراف النساء عن انوثتهن وان كان لا يمانع فى ممارسة كل منهما لحريته ولا يخفى اعجابه بالتطور الذى وصل اليه الرجل والمرأة فى حسن المظهر والعناية بالشكل « الناس فى هذه الأيام آنق أزياء وأنظف ثيابا ، وأفخم بزة منهم فى أى عهد مضى ، ولست أنكر انى قبل خمسة وعشرين عاما كنت

أرى أفنديا يلبس طربوشا مبطنا بالخوص والحرير أو يرتدى غير الشدة الاستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى ياقتهما على الرقبة والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، ولم يكن الشيوخ يعنون على الأعم باحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم ، أو يتحرون أن يكون لون الحزام مجاوبا لصبغة القفطان أو بأن تكون لفة الشال على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر ، أما النساء فكان زيهن اذا برزن الى الشوارع يصد العين عن النظر ، ولم يكن الواحد يدرى أهى دمية تلك الملفوفة فى ملاءتها أم حشوها امرأة •

والآن صارت العين تتعب من النظر الى جمال الذوق حتى فى الطرقات ، ودع عنك المجتمعات والسهرات ، وصحيح ان الرجال والنساء تقاربوا ، حسن ، ليس فى الامكان أبدع مما كان ، لا أدرى ممن سمعت أو أين قرأت ان الله سبحانه وتعالى وكل الى ملك مقيم من ملائكته ، أن يسبح بحمده جل وعلا ، على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل ، الله وحده أعلم بصدق ذلك ، ولكن أحسب الملك الموكول اليه هذا الواجب ان صح الخبر قد جدت على صلاته نبرة تهكم لاذع ، علينا نحن بنى آدم الفانين ، ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل ان النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهم ، وان الرجال يحلقن •• معذرة فيختلط الأمر بين هم وهن •• من أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع (١٣٨) •

١٥ ــ ويسخر من بعض أصحاب الحرف الذين بقوا حيث هم بينما الدنيا تتقدم من حولهم وتخلفوا عن الركب ، حتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصبح الواحـــد منهم يصلح أن يكون مثلا يضرب فينسحب الى النوع كله ٠

ونختار من هؤلاء « حلاق القرية » ومن حسن الحظ أن للمازنى تجربة ذاتية معه ، عرف فيها هذه الشخصية جيدا ، ومارس ما عرف عنها وما اشتهرت به ، وصور ذلك كله فى براعة ودقة « عرض على مضيفى أن أستعمل موساه ، فأبيت، وقلت ما دام للقرية حلاق فعلى به ، فحذرنى مضيفى وأنذرنى ووعظنى ، ولكنى ركبت رأسى وأصررت أن يجىء والحلاق، فجاء بعد ساعات يحمل ما ظننته فى أول الأمر مخلاة شعير ، وسلم وقعد ، وشرع يحيينى حتى شككت فى أمره ، واعتقدت ان الحلاق شخص آخر ، وان هذا الجالس أمامى ليس سوى طلائعه ، ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية ، فابتسم وشط لحيته بكفه وأنبأنى ان الحلاق محسوبى يعنى نفسه ، فلعنته فى سرى وسألته متى ينوى أن يحلق لحيتى أم لابد أن يضرب الرمـــل والحصى أولا ويحسب الطـــالع قبل أن يباشر العمل ، فلم يفهم ، وأولانى صدغا كث الشعر ، وقال : هيا ، فظننته حم وصحت به : أريد أن أحلق ، فسره صياحى جدا ، فدنوت من أذنه ، وسألته هل فى القرية فيل ، فقال فيل ؟ لمـــاذا ؟ فأشرت الى المقص ، فضحك وقال هـــذا مقص حمير ولا مؤاخذة ، فقلت ، ولماذا تجيئنى بمقص الحمير ، احمار ترانى ؟ ويظهر ان معاشرة الحمير بلدت احساسه ، فانه لم يعتذر لى ، ولا عبـــأ بسؤالى شيئا ثم أخرج موسى من طراز المقص (ومكنة) من هذا الفيل أيضـــــا ، فعجبت له لمـــاذا يجىء الى بكل أدوات الحمير ، وسألته عن ذلك ، فقال ان الله مع الصابرين وبعد أن أفرغ مخلاته كلهـــا ، انتقى أصغر

الأدوات وأصغرها أكبر ما رأيت فى حياتى ثم أقبل على وقال تفضل ، قلت ماذا تعنى قال اجلس على الأرض ، قلت لماذا ؟ قال ألا تريد أن تحلق ؟ قلت ألا يمكن أن أحلق وأنا قاعد على الكرسى ، قال وأنا ؟ قلت فى سرى وأنت تذهب الى جهنم ونعم المصير ، وهبطت الى الأرض كما أمر ففتح موسى كالمبرد ، فقلت : ان وجهى ليس حديدا يا هذا ، فقال لا تخف ان شاء الله ، ولكن خفت باذن الله ، ولا سيما حين شرع يقول باسم الله الله أكبر ، كأنما كنت خروفا ويبصق فى كفه ويسن الموسى على بطن راحته ، ثم جذب رأسى فذعرت ووليت هاربا الى أقصى الغرفة ، فقال ما هذا ؟ قلت أتريد ان تحلق لى بمبرد ، ومن غير صابون قال ماذا يخيفك ؟ قلت يخيفنى ؟ لقد دعوتك لتحلق لى لحيتى لا لتبرد شعرها ، فقال يا أفندى لا تخف ، وأسلمت أمرى الى الله وعدت فقعدت أمامه فنهض على ركبتيه ، فتناول رأسى بين كفيه ، وامال صدغى اليه ، ثم وضع ركبتيه على فخذى ، ولف ذراعه حول عنقى ، فصار فمى مدفونا فى صدره ، فصحت أو على الاصح جاهدت أريد الصياح لعل أحدا يسمعنى فينجدنى غير ان طيات ثوبه كانت فى فمى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارىء أن يعلم أنها افقدتنى الوعى ، ولا أطيل على القارىء ، فقد هوى الرجل بموساه على وجهى فسلم قطعة من جلدى فردنى الالم الى الحياة ، وانا فى القوة الكافية للصراخ على الرغم من الكمامة ، ووثبت أريد الباب • وكأنه كان على كبر سنه أسرع منى ، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى ان يكون المران قد علمه ان يكون يقظا لامثال هذه المحاورات فردنى بقوة ساعده فتشهدت وتذكرت قول المتنبى :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واذا لم يكن من المـوت بد
فمن العجز ان تموت جبانا

ثم جاء هذا السفاح بطشت يغرق فيه كبش ووضعه تحت ذقنى ، وصب مادة على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ليغسل الدم الذكى الذى أراقه ، وأخـرج من مخـلاته منشفة هى بممسحة الأرض أشبه ، فاعتذرت وأخرجت منديلى وسبقته الى وجهى ، فهى معـــركة لا تزال بجـلدى منهـا ندوب وآثار (١٣٩) ٠

١٦ ـ ويسخر من الناس عامة ، ويضمن سخريته هـذه رأيه فى فساد الناس وهو رأى بناه على التصور والخيال حين يرى أن الناس وصور الحياة الأخرى علامات فساد للكون ، أو أن فى وجود الأحياء دلائل فساد فشأنه شأن العجوز الذى أدركته الشيخوخة وتناوبت عليه العلل « يخيل الى ان من الممكن أن نكون نحن الآدميين وغيرنا من صور الحياة علامات فساد وانحلال ، وعسى أن نكون ظهرنا فى هذه الدنيا كمـا يظهر الدود فى الجبن أو المش ، ومن يدرى ؟ لعلنا حشرات طفيلية يغص بها كيان ضخم فهى تعبث فيه ، كيان ظل موجودا أكثر مما ينبغى فقد صار جديرا بأن يرمى أو يمحى » ٠

وترتب على هذا كمـا هو واضح ان فساد النـاس فى تصوره ، لا يأتيهم من الخارج ولكنه شىء ثابت فى داخلهم ، وانهم بذلك يفسدون الحياة ويحولونها الى صـــورة تعافها النفس ٠

فأى مرارة لاذعة تجدها فى مثل هذه السخرية ؟ انهـا تحمل نتائج التجارب المرة لسنوات طويلة وفيها من وصف

الأسى ما يجعلها أقرب الى الشكوى والتحسر ، ومع ذلك فهى سخرية دون شك ٠

١٧ ـ وأجرى المازنى بعض أفكاره الساخرة على الشخصيات المرحة التى اختارها لقصصه فاذا هى على طريقته تتبادل التهكم واللوم وتناقش الأمور فيما بينهـا بأسلوب الكاتب ولكن فى غير تكلف أو افتعال ٠

ففى قصته « ابراهيم الثانى » تتهكم «ميمى» «بصادق» المنولوجست الذى يخرج مع الفتيات بسيارته الضخمة الى الأماكن الخلوية ليدربهم على القاء المنولوجات ٠

انها تحتقره على الرغم من قرابته لها ٠ وعلى الرغم من انه أبدى اعجابه بها ، وانه يرغب فى الزواج منها ، انهـا لا يمكن أن تستجيب له ، ولا تجد فى نفسها ما يحملها على قبوله برغبتها ، وهل تستجيب المرأة لرجل تحتقره وتحتقر منولوجاته السخيفة ، وترى فيه أضحوكة هزلية ، هذا الفتى الذى يتعقبها ويطاردها بحبه المزعوم ، وكأنه لا يرقى الى درجة الحب الحقيقى الذى يعرفه الرجال ، ومع ذلك فانه يطمع فى أن تستجيب له ، وتبادله حبا بحب » منولوجست يعوج طربوشه وفمه وساقيه ويروح يتحرك حركات مضحكة وينطق بهراء أو يلبس جلابية حمراء مخططة وعلى وسطه حزام من حبل ، وقدماه حافيتان لأن المنولوج قد يقتضى هذا المنظر البلدى أو يلبس طرطورا ويصبغ وجهه ٠

وتخاطبه فى تهكم واضح وترفض موقفه منها فى صراحة ، حين يحاول أن يفرض عليها حبه ، ويدعى ملكيته لها فتقول له :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« انك تبنى على أساس من الرمل ، وتسمى هذا حبا » ؟

وعلى هذا النحو يمضى الحوار بينهما ويلجأ صادق الى نفس الأسلوب ، كأنه يدافع عن نفسه بذات السلاح ، فيأخذ هو الآخر التهكم بميمى وابراهيم الذى تحبه ، والذى تفضله عليه وليس أهلا لها ولا لأى امرأة أخرى ٠

ويأخذ فى تجريحه وابراز عيوبه التى منها أن يترك سيارته لامرأته ، ويخرج معها بدونها ، ويصاحبها دون احترام لشعور المرأة الأخرى التى هى زوجته ، والتى لا بأس بها فى نفس الوقت « ذلك الذى له سيارة ، ولكنه يتركها للزوجة المسكينة يضحك بها عليها ويلهيها بها ويخرج معها فى تاكسى أو مركبة خيل ، هذا الرجل لا سافل ولا نذل ، ولا وغد ولا شىء مما تفضلت به على من النعوت الجميلة وأنا السافل ، أنا النذل ، ليس لى زوجة ، وانما لى قريبة أحبها ، ومن حقى أن أحبها ، وهى أيضا ليس لها زوج ، ومن واجبها أن تتوقع أن يرغب فيها من كان مثلها لا امرأة له ٠

ويستمر فى هذا الأسلوب الساخر الذى يعرض بابراهيم الزوج الذى يحب ميمى وهى تحبه ، ويصادقها رغم ان له زوجة ، وتصادقه ، وهى تعرف ان له امرأة أخرى ، ولا ترى فى ذلك ما يستغرب بل ترى انه هو الطبيعى » « ولكن الطبيعى ليس هو الطبيعى فى نظر المدموازيل ميمى لان المدموازيل ميمى ترى أن تهب نفسها لرجل له زوجة ، وتضن على رجل ليست له زوجة ويصبر هذا المحروم بغير حق ، ويطول صبره حتى ينفد ولكل شىء آخر ، وبعد أن ينفد صبره تستغرب المدموازيل ميمى انه لم يبق له صبر ، وتقول انه نذل نذل ، لماذا ؟ لأنه يحبها بحق » ٠

١٨ ــ وهذه حكمة ساخرة ، أو سخرية تعالج مبدأ هاما يتعلق بموقف الانسان من الحيـــاة فتبدو وهى تنطوى على الجدية وتفسر معنى الخير وكيفية الوصول اليه ٠

فيقول على لسان صادق موجها كلامه الى عايدة احــدى صـــديقاته ، وهى تبــدى حيرتها أمام الحيـــاة وتسأل عن جدواها « ما فائدة الحيـــاة ، وما الخير الذى نصيبه فيهـــا » فيجيبها اجابة الخبير بالحياة العارف بدور الانسان فيهـــا ، اجابة لا تخلو من العبث ٠ بسؤالها ومستوى فهمها للحياة ، وطريقة تناولها لها » ٠ ان هذا سؤال من العبث أن نلتمس له جوابا ، فالحياة لا يسأل فيها عن الفائدة منها ، وانما علينا أن نحياها على خير وجه وأصلحه ، ويستطرد فى لومه الصريح « ثم أنت أنت الملومة اذا كنت لا تصيبين منها خيرا ، الدنيا كلها أمامك فماذا يمنعك أن تنشدى هذا الخير الذى تسألين عنه ؟ تمسكين عن التماس الخير ونشدانه والسعى اليه ، ثم تروحين تلومين الحياة وتسخطين على الدنيا هل هذا عدل ؟ ويرتفع بأسلوبه الى درجة أكثر سخرية فيلجأ الى الصـــورة القريبة الذاهلة ، « تقعدين وفمك مفتوح منتظرة أن تحشوه لك الملائكة ســكرا ، ثم تشكين اذا حشــته الأيام ترابا ، لا يا سيدتى ، لومى نفسك » ٠

فهو هنا يقرر فلسفة الخير أو مبدأ أساسيا فى تحقيقه ، لكى تنال الخير يجب أن يكون لك رغبة وارادة وعمل ، لكى تحقق النجاح ، وكيف ينجح فى الاستمتاع بالحياة من يقعد ذاهلا عنها ، مترهلا ينتظر أن تأتى اليه وحدها دون أن يبذل عناء فى مد يده ليضع قطعة السكر فى فمه ، انها سخرية من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكسل والتواكل والعجز عن فهم حقائق الحياة رغم انها معروفة ٠

١٩ ـ ويستخدم الصورة والحركة الى جانب اللفظ لكى تشمل السخرية الجو كله :

ولكى يتعرف القارىء على صور الشخصيتين المهاجية والمهجوة ، فميمى أيضا حين تتحدث عن « فتحية » احدى صديقات صادق التى تهوى الغناء وتظن أن صوتها جميل ، تختار صوتها لتجعله مادة لسخريتها ، وتستبعد من الصورة صفاتها الأخرى ، حتى يكون التركيز مفيدا فلا تنكر أن يكون لها شىء من الجمال ، ولكن صوتها غير مقبول ، ولا تحسن الغناء ، ثم تمط شفتيها ، وتأتى بحركات ساخرة ، ثم تلجأ الى الوصف مرة أخرى فتقول ان صوتها لا يطاق وتجسم الموقف فتشبه صوتها بزمارة ينفخ فيها من لا يحسن الزمر (١٤٠) ٠

ومن هذا النوع ما يحكيه الكاتب عن نفسه حين أخرج لسانه من خلف ظهر معلمه ليشرك الآخرين من زملائه فى العبث به أو حين يلتقى بشخص فى الترام ويتظاهر بأنه يعرفه ، ويصافحه فى حرارة وشوق ، ثم يتركه وينزل ، فينزل الرجل وراءه ، ويتابعه بنظراته كمن يحاول ان يؤكد لنفسه انه يعرفه ، أو أنه يستحث ذاكرته لتسعفه به ، فيستدير صاحبنا له ليؤكد هذه المعرفة بأن يخرج له لسانه الطويل ٠

هذا لون من العبث اللاهى القريب من تصرفات الصبيان،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نوع من الاستجابة لرغبات النفس الهازلة أحيانا دون هدف ، الا اذا كان الترويح عن النفس أو أرضاءها ٠

٢٠ ـ وله مع زوجته حوار فكه يسخر من اهمالها له ، ومن تناقضها معه بأسلوب كان يسخر فيه من نفسه ، أو من غرور الرجل بصفة عامة فى وقت واحد ، بحيث نشعر ان السخرية هنا منصبة على الموقف نفسه الذى يتكون من صورتين متناقضتين ٠

ويمضى الحوار على هذه الصورة فيقول لزوجته « ان من الواضح ان تربيتك ناقصة جدا ، هذا انا بجلال قدرى أكلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية ، وانت لا تجيبين » ٠

قالت الزوجة أخيرا : وألقت ما بيدها وكان شيئا تطرزه ولا يدرى هو ما تعنى به « انى لست اليوم كفئا لك ولهزلك فاسكت من فضلك » ٠

قال لها : « هذا بدل جميل من الاعتذار الا تستحين يا امرأة ؟ ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك ؟

قالت : أرجوك ٠ أرجوك يا مسلم ثم ان الطباخة خرجت » ٠

فانتفض واقفا وصاح بها « نهارك أسود »

٢١ ـ وليست سخريته من زوجته على هذا النحو ضربا من المعابثة ، بل يمثل رأيا خاصا له فى ضوء تجربته الذاتية وظروفه البيئية الخاصة ، وان أصبح الرأى ينسحب على الزواج بصفة عامة حتى انه فى أحد الأوقات وهو يتحدث

مع زوجته ، يخطر له خاطر ، هو ليس جديدا فى الواقع ، ولكن الغريب ان يخطر له وهو فى جلسة عائلية أو زوجية هادئة ، ولا يطرد هذا الخاطر بل يبتسم له ، ويسترسل ويطيل السباحة معه ، يخطر له « ان الزواج يشبه لبس الحذاء والاعزب كالذى اعتاد الحفى ، فاذا لبس الحذاء شعر بالضيق والكرب والزوج الذى يهمل زوجته زمنا يكون كالذى ترك حذاء وتحذى سواه فاذا عاد الى الأول أتعبه وأحس انه ناشف لايلين لقدمه أو ان رأسه المستدق أضيق مما ينبغى أو ان لسانه قد لون ، أو ان جانبه قد تقبض أو أنه يزم زما محكما ، والصبر والمواظبة لا غنى عنهما حتى يلين الحذاء ويعود مريحا كما كان »

وهذا الاستطراد والاطالة والصبر على الموقف يتجاذبه ويلح عليه ان يولد منه أكثر من جانب ويتناول كل جانب على حدة ، هذه الخواص من الصفات المميزة لأسلوب المازنى الساخر ·

يريد أن يخفف عن نفسه ما أثقلت عليه خادمته ، ويريد ان يصور سوء فهمها له ويبرز التناقض العجيب بين أفعالها وبين ما يطلبه منها ، فلا يمل ان يضع بين يدى القارىء أكثر من نموذج « لا أطلب منها شيئا الا وتجيئنى بخلافه ، أقول هاتى الكبريت ، وليس فى لفظ الكبريت ولا حروفه ما يمكن ان يتلبس بالجبن الرومى ، وهى ليست بالصماء ، فان سمعها كسمع القطط ، وأنا خفيض الصوت ، ولكن أتوخى معها أن ازعق وأصيح حتى يبح صوتى ويوجعنى حلقى وأمرض يوما أو يومين ، ومع ذلك لا تكاد تسمعنى أطلب الكبريت حتى تقول حاضر ، وتعمد الى ملاءة سوداء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلقيها على نفسها ، فانها حيية وتخرج فتشترى لنا جبنا قد يكون روميا غير مزيف أو مقلد ، ولكنه لم يخطر لى على بال ، ولا كانت لى رغبة فيه ، وأراها مقبلة على تحمل على كفيها صينية عليها طبق فيه الجبن الرومى وشوكة وسكينة وفوطة ولقمة ، فانها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة الى تلقين ان الجبن الرومى لا يؤكل وحده فلا بد من خبز معه ومادام سيدها يأكل وقد اشتهت نفسه الجبن الرومى فهل تتركه يوسخ يده ؟ معاذ الله وهذا هو تفسير الشوكة والسكينة .

وانظر الى هذا الذى على يديها فاتميز من الغيظ وأكاد أطق وأنفلق ، ولكنى ألم نفسى بجهد وأهز رأسى وأروح أتعجب لقدرة ربى على خلق كل هذه الاصناف من الناس ، هذه امرأة لها كل مالى تقريبا من الاعضاء وليس ينقصها شيء وهى تتكلم العامية التى نتكلمها ، ولا أعدت لها لغة غيرها ومع ذلك فلكل لفظ فى هذه اللغة معنى غير معناه عندنا ، فالكبريت معناه الجبن الرومى والكتاب معناه طاحونة اليد ، والكلب معناه الخيط والابرة ، والكمون معناه السجاير حتى لقد خطر لى ان الألفاظ التى تبدأها بالكاف هى التى انفردت عندها بهذا الحال المعكوس وأنى أخص هذه الألفاظ ايثارا للراحة وأثبت معانيها الى جانبى ليتسنى لى ان أخاطبها بلغتها ، فأقول لها مثلا خذى اشترى لى كمونا ويكون مرادى السجاير أو هاتى كلبا وخيطى هذا الزرار ، واذ مررت بالصانع الذى يصلح طواحين البن خذى هذا الكتاب فأصلحيه عنده أو اشترى لنا كبريتا آى بترولا .

٢٢ ـ ويسخر من الاحزاب السياسية التى كان يراها من حوله تتصارع من أجل المصالح الخاصة والأنانية وحب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثروات تحكم تصرفاتها ، وتحرك نشاطها وليست المصلحة الوطنية ولا رغبات الشعب ·

ولا يرى ان الاحزاب السياسية تختلف كثيرا عن جماعات الصبيان التى كانوا يكونونها فى الحارات والمناطق الشعبية ، أنه يريد ان يتهم هذه الأحزاب بالصبيانية وبأنها رغم ثقافة أعضائها ورغم ظهورها على المستوى العام ، والمهام الكبيرة المنوطة بهـا فانهـا لا تختلف كثيرا عن مجتمع الصبيان ، ربما الا فى التكالب على السلطة ، والعمل من أجل التفرد بالحكم ، وهذا أيضا لا يفترق بعيدا عن صراع الصبيان من أجل الحصول على شىء أو من أجـل الظهور بمظهر القوة أو تحقيق السيادة على موقف ، وهو عمل من أعمال (الفتونة) التى نعرفها ·

ان المـازنى يرى فى الاحزاب السياسية عودة الى نظام الاشراف الذى انتهى من ضمير العـالم وأصبح غريبا على مجتمع الانسان « ما هذه الاحزاب السياسية التى نراها ؟ أليست صورة أخرى للاشراف الذى عفا على عهدهم الزمن ؟ الذين كانوا لا ينفكون يقتتلون على السلطان والمجد ؟

والاحزاب تطلب الحكم ، وتزعم انها صادقة لان غرور الانسان يجعله يتصور أنه أقدر ما عداه ، ولكنها كاذبة حين تزعم ان غايتها الخير للجماعة وحدها ، وأنها لا تبغى لنفسها جاها أو سلطانا ولا يفيدها ان تنعم بمزايا الحكم » ·

ويصور الصراع فى داخل الحزب الواحد قائلا « وكل حزب فى الدنيـا عبارة عن أحزاب شـتى ، كل أعضـائه يتصارعون فى سبيل الصعود والارتقاء الى القمة ، والحرب

دائرة أبدا بلا فتور ، والسلاح لا يلقى فى ليل أو نهار ، هذا يؤخر نفسه ويقدم سيره ويتخذ من مظهر انكار الذات وسيلة للكيد لمنافس له وما يقدم غيره على نفسه الا ان يكون آلة فى يده » .

ويقارن بين الاحزاب بشكلها الذى عرفه ، وبين عصابات الصبيان فى الماضى حين كانت احداها ترسل صبيا لجر شكل عصابة أخرى فيلقى بالواقعة لتثير الشلة ويترتب على ذلك نشوب عراك حاد ، فكان الصراع اليوم بين الاحزاب هو صورة متقدمة لهذا الصراع الذى كنا نعهده فى الحارات والذى كانت تقوم به عصابات الصبيان .

يقول المازنى « لقد مضى ذلك العهد بشره وخيره ، ان صح ان له خيرا وجاء عهد آخر ليس فيه فتوات ، فقد انتظمت شئون الامن واستقر النظام ، وتهذبت النفوس ، ورقت أيضا ، ولكنى كلما فكرت فى الأمر بدا كأن طرازا من الفتوات قد نشأ وحل محل القديم وكأن ضربا جديدا من جر الشكل قد بدأ فى الوجود ، طرازا لا يتقابل فى الحارات ولا يفسد الزفات ولا يحمل ليالى الغم الصارخة كوما من التحطيم والهرس ولكنه يعفن الحياة ويسود وجوه العيش وجر الشكل لا يتحكك بالافراد ولا يرسل (الرائقة) ، تشرخ الرأى وتفتح اليافوخ وتقطع الانف والصدغ ، ولكنه يتصدى للجو فيكدره ، وللنفوس فيثيرها ، ويوهج الغبار ويرسل القذائف يضرم بها النار ثم يمدها ويغذيها بما يؤرقها ويدعها تزغرد ، تلك على الترتيب الأحزاب وصحفنا .

وهذه الاشارة الى الصحافة فى نهاية الفقرة تعطى صورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لمفهوم العلاقات فى دنيـا الصحف عند المـازنى ، ولم تكن تختلف كثيرا عن دنيا الاحزاب ، بل هى كانت جزءا منها ، وبعض صنائعها ، فلا أقـل من ان تمثل ما يجـرى فيهـا ، وكانت لسانها وبعض أدوات الصراع الالسنة وهى مجـال للتصـارع والتباهى واظهـار العيوب وتكتيل القوى ضـد الأطراف الأخرى ، ثم هى من منطق المعـارك والخصـومات تعتبر فى مقام جر الشكل • »

ويتذكر المازنى نفسه فى هذا الاطار ويعجب لانه كان فى بداية حياته وفى نهايتها يمثل دور جر الشكل (١٤١) •

« كـم رحت أعجب لقسـمة الحظ ، كنت فى حـداثتى لا أتردد ان أؤدى وظيفة جر الشكل فى معارك الحارات وقد شببت عن الطوق جدا ، ولكنى أرى آخرتى مازالت معقودة بأولادى ، فقـد طوفت ما طوفت ثم انتهيت الى الصـحافة وعدت كما كنت أجر الشكل •

هل يعنى بذلك ان بعض الاحزاب كانت تلجأ اليه ليقوم بهذه المهمة لحسابها ؟ أو يعنى ان طبيعة المهنة تسمح له بأن يقوم بهذا العمل ، أو ان هذا العمل هو شأنها أو ان الحياة فى نظره لا تتقدم كثيرا ، أو على الأقل بالنسبة له ، فالدور الذى كان يؤديه فى صباه ، هـو نفس الدور الذى وجـد نفسه يؤديه رغم تقدم السن والثقافة والتجربة •

٢٣ ــ ويذكره زيف الاحزاب بزيف الدول ، وكما تدعى الاحزاب النزاهة والشرف والاخلاص فان الدول أيضا تدعى شرف المقصد ونزاهة السلوك •

وكما تغلب الاحزاب الحقائق من أجل مصالحها الخاصة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتستخدم الاخلاقيات والمبادىء ستارا تعمل من ورائها لحساب أغراضها الذاتية وأطماعها من أجل الحكم والسلطة فان الدول هى الأخرى تقلب الحقائق وتزعم غير واقعها وتبنى سياستها على عكس ما توهم به الآخرين ٠

ان الرغبة فى السيطرة والتحكم والاستعمار هى المحرك القوى لبعض الدول الكبرى فى الوقت الذى تدعى فيه انها تعمل من أجل السلام وحده ، وكل مساعيها من أجل تحقيق أهدافها لا من أجل تحقيق مطالب الانسان ٠ اننا نرى بعض الدول الكبرى تتحدث عن السلام وهى تستعد للحرب ، وتظهر ايمانها بالعدل ، وهى تنشر الظلم والتميز علنا بلا أى حياء ٠ وتدعى لنفسها الزعامة وهى تخلو من كل مبدأ اخلاقى تعتمد عليه الزعامة ٠

ولقد تأثر المازنى بهذه التناقضات بين الدول وبين مبادئها المعلنة ، بين المثاليات التى تدعيها والواقع المكشوف الذى يصور حقيقتها ٠ « ألست ترى الى الدول كيف تعلن عن فضائلها ومحاسن صفاتها ومميزاتها وهى قد أوتيت كل الرذائل والمقابح والنقائص وكيف تدعى شرف العقل ونيل المقاصد والمنازع وهى فائرة القلوب بالحقد والضغينة ، وكيف تتظاهر بالزهد والعفة عما فى يد الغير وهو شاغل شباب مطامعها ومالىء جو آمالها ، وكيف تزعم انها تفيض عطفا على أمم العالم وحبا للبشر وايثارا لخيره ، وهى قد أكل قلبها الكره والاحتقار وكيف تقاوم كل حركة رقى وهى تباهى بأنها مولد الآراء الجديدة ، وكيف تفاخر بما تقيمه من قلاع الرقى وانجاد الرفعة ، وهى تجر رجلها وراء أصغر الشعوب ؟ وكيف تتشدق بمبادىء العدل وهى تظلم الضعفاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتسرفهم وتسلبهم حريتهم وتنتهك كل حرمة ، وتفجر فى كل عهد ، وتنتقض كل وعد ، والناس يسمعون هذه الدعاوى الخلابة وتسحرهم فتنتها ، ويصـــدقونها ولا ينتبهون ولو نبهتهم الى ان اليد لا تكترث بما يجرى به اللسان ، واذا كان هذا مبلغ التبجح بالباطل فماذا عسى ينبغى ان يكون مقدار الجرأة فى الحق (١٤٢) ٠

واعتقد أنه فى نفس الوقت يســـخر من هؤلاء الذين لا ينتبهون ولو نبهتهم ومن هؤلاء الذين مازالوا حتى يومنا هذا ، يتغافلون عما حولهم ، ويتشدقون بهـذه الدول التى كانت ولا تزال وراء كل مشـــاكلنا ٠ وكأنهم لا يحســـون شيئا ، ولا يعلمون عن ماضيهم القريب وحاضرهم المعاصر الا عكس ما يعلم الناس ٠

ان كثيرا من النـــاس يتجاهلون الحـــق ولا يريدون ان يسيروا مع الرأى العام لان هذا يضعهم مع الشعب فى قالب واحـــد وهم يحرصون على التميز فى الانتماء المتخـــاذل الضعيف الى قوى الظلم العالمى ، التى جرت علينا وعلى وطننا وجيلنا كل النكسات التى نعانى منها ٠

ان المازنى على ما يبدو يسخر من هؤلاء بمثل سخريته من الدول الظالمة ، فكلاهما مشترك فى تزييف الحقـــائق ، فاعل للظلم أو متستر عليه ٠

ويسخر فى نفس الوقت من الدول الصغيرة التى لا تعمل من أجل قوتها ، وتعيش على انتاج غيرها وهى لا تعلم أو لا تبالى بأن هذا يعنى دوام فقرها وضعفها ، وتخلفها الأبدى ويأخذ مثالا على ذلك انتاج السيارات ولم تكن مصر قد بدأت فى هـــذه الصناعة « أحسب ان بلادنا هى الوحيـــدة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجتمع فيها هذا العدد الضخم من السيارات الفخمة من كل طراز أوربى أو أمريكى ، أو لعل الاصح ان أقول ان بلادنا ونظائرها من البلدان لا تصنع السيارات وانما تقتنيها ، ولا أعد ذلك مظهر غنى بل آية تخلف ، والمثل العامى يقول : « رزق الهبل على المجانين » ٠

ونحن الامم المتخلفة فى ركب الحضارة العالمية ، المجانين الذين تجد أوربا وأمريكا رزقها عندهم » ٠

سخرية من الحياة

٢٤ ـ سخر المازنى من الحياة ، لانه على قدر ما عاش فيها لم يفهم جدواها ، أدرك منذ الصغر نهايتها وربما بأعمق من أدراكه لبدايتها ، فنشأ لديه الاستخفاف بها وبكل ما فيها ٠

كان سكنه بجوار المقابر ، وفى أطراف دنيا الاحياء ، يطلعه على هذه النهاية فى كل وقت ، وفى حركاته ذاهبا أو عائدا وفى جلساته فى شرفة بيته ، وهو يتأمل شمس الأصيل ، أو لمعان النجوم فى الامسيات فيجد ان كل شىء من حوله مختلط بالنهاية ٠ وقد يكون ذلك مفزعا بصورة غير محسوسة وقد تتولد عنه ظاهرة نفسية معقدة هى تنبه الانسان لمصيره على نحو قد يكون مرضيا فى بعض الاحيان فاذا هو كل لحظة يتمثل ما يؤكد له المصير المحتوم الذى ينتظره كما ينتظر غيره من الاحياء ٠

وقد نتمثل نحن ذلك ، ولكننا لا نشعر بتأثيرات مرضية أو بقلق زائد ، ولكن اذا كان التمثل مؤيدا بالمشاهدة ، اليومية ، أو المعاناة أو المكابرة عن قرب فالأمر يختلف ٠

وقد لا يتأثر الآخرون بمثل ما تأثر المازني لانه مهيأ لهذا التأثر ، ولأنه مرهف ، ولم يكن في حياته وفترة صباه ، ما يجذبه الى ان يستغرق في الوجود وينسى معه عدمية المستقبل الذي يستحضر قربه دائما .

ولذلك لا ندهش اذا رأيناه يعتبر هذا القدر الذي نعيشه من الحياة تافها ، مادام الموت ينتظره ويتساءل لماذا خلقنا ؟ ولماذا كان هذا الوجود ؟ ويستخف بكل شيء في غير مبالاة .

وليس عدم المبالاة هنا يعني القوة والاندفاع وحب المغامرة ، ولكنه يعني الاستهتار أو عدم الاهتمام . وقد يكون هنا مفتاح سخريته أو موضع التعرف على البذور الأولى لها . لقد تفتح وجوده على العدم وبدأت حياته ترسم التناقض الكبير الهائل أمامه ، ولم تساعده على حل المشكلة أو مواجهتها كما واجهت غيره من الناس ، هذا التناقض الهائل يكون علامة بارزة في طريقه ويلون كل شيء في عينيه ويشكل كل صورة تظهر له ، حتى ان الارض التي تضم الوجود والعدم على هذه الصورة ، ويبدو انها طيعة لذلك في صمتها وهدوئها ، هي في الواقع تنطوي على حيرة ، وتضج بحيرتها ولا تفهم شيئا ولا تلك الا ان تسخر هي الأخرى « ما جدوى هذه المساعي ؟ ما خير ان تزخر على ظهري الحياة ؟ لأية غاية أو في أي سبيل ارهاقي وكدي واملالي على الادهار ؟ انه عبث متواصل في الوسع رفع مئونته بالمحو والسلب ، وقد تكون لهذا حكمة ، ولكنها حكمة كانت تكون عندي أعدل لو انها شاءت الا تكون هذه الحيوات » (١٤٣) .

وبعد هذا التساؤل الذى تصــور المــازنى ان الارض تضيق به • يسترسل فى الحديث عن نفسه ليضع أيدينا على المفتاح الصريح الواضح « وما ضربت فى هــذه الصحراء أو صافح وجهى نسيمها ، أو سفت الرياح على رمالها . أو أدرت عينى فى عريهــا الازلى ، الا هتف بى من ناحيتهــا هاتف ، يقول ابن داود ، « باطل الاباطيل ، الكل باطل ، ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودور يجيء والارض قائمــة الى الابد •• كل الانهار تجرى الى البحر ، والبحر ليس بملآن ، كل الكلام يقصر لا يستطيع الانسان ان يخبر بالكل ، العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلىء من السمع ، ما كان فهو ما يكون والذى صنع فهو الذى يصنع ، فليس تحت الشمس جديد ، أنا الجامعة ، كنت ملكا على اسرائيل فى أورشــليم ووجهت قلبى للســؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمــل تحت السموات ، فاذا الكل باطل وقبض الريح • »

ويقــول المازنى معقبا على ذلك وأنا أيضــا كالجامعة ، وجهت قلبى الى المعرفة وامتحنت نفسى بالســؤال وعللت روحى بالتفتيش ، بنيت لنفسى امالا ، غرست لنفسى أوهاما، عملت لنفسى جنات وفراديس ، غرست فيها أحلاما من كل نوع وثمر • وهــذا كان نصيبى من كل تعبى •• قبض الريح (١٤٤) •

الأسلوب هنــا متشــائم على الرغم من اننا لا نرى هــذه الدرجة من التشاؤم فى مواقف أخرى للمازنى •

ولا أميل الى عتباره من بين المتشائمين ولكن هذه الحالة تنتابه خصوصا عندما يكون تحت تأثير التأمل فى الأرض التى

نشأ عليها وفى المكان الذى طلع على الحياة منه أو يمكن ان نقول طلع على الموت منه ٠

أكاد أشعر أن هـذا النوع من رد الفعل للتعلق بالحيـاة ، الذى هو فى نفس الوقت صدى للخوف من العدم أو التعرف المستمر على صوره ومظاهره ٠

وأعتقد ان مظاهر العدم هنا لا تستطيع ان تطغى كلية على تأثير مظاهر الحيـاة ، ولعل الحيرة منشـؤها الصـدمات المتوالية التى يتلقاها أبنـاء الحياة نذيرا بالفناء رغم اننا لا ننكره ولا نجحده ولكننا نحب ان يكون ادراكنا له هكذا فى غموض ، ومن غير تذكر مستمر ٠

وهذا الهمس الخافت للمازنى ينقله الينا على حالته بين النقيضين موزعا بين الحياتين « بيت على حدود الابد ـ لو انه كان للابد حـدود ـ وليس هـو بيتى وان كنت سـاكنه ، ما أعرف لى شبر أرض فى هذه الكرة ولقد كانت لى قصور ولكن فى الآخرة ـ بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع ووقفت معلقا بين الحياتين ، كما سكنت على تخـوم العالمين (١٤٥) ٠

ويبدو أنه لا يترك نفسه معلقا لمدة طويلة هكذا ، لان التعلق يعطى معنى الاهتمام أو معنى الجبرية على موقف قد يكون مفروضا عليه ، وهو ليس مهتمـا على الدوام ، كمـا أعتقد أنه لا يعيش تحت سلطان الجبر ٠

أنه يعترف بأن الفرق بينـه وبين « هملت » ان هملت معنى بالحيـاة والموت ٠ وبأن يكون أو لا يكون وبأن يبقى على نفسه أو ان يفجعها أما المازنى فكما يروى هو نفسـه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« لا يعنينى شىء من هذا ولست أرانى أحفل ، لا الحياة ولا الموت ولا الوجود ولا العدم ، ولعل الاصح والاشبه بالواقع ان أقول ان وقتى لا يتسع للتفكير فى ذلك » ٠

هذه كما نرى علامة صحة ، علامة اختبار موقف واع من الحياة وتأثر بالبداية والنهاية ولكنه مستخف بالتناقضات التى يراها بينهما ٠

ألسنا نستطيع أن نجد فى هذا موقفا مثاليا يعيننا على تقبل ما يصادفنا فى حياتنا من ظروف غير مقبولة ، ومن ظروف نشعر بأنها تتناقض معنا أو مع المثل الأعلى ؟ الا يفيدنا ان نتعالى عليها ونجنح الى نوع من الاستخفاف أقل مظاهره الا نشغل أنفسنا بالوجود والعدم ؟ أو بمعنى أبسط ان نعيش الوجود والعدم دون ان ننحنى لهما أو نعطيهما من الاستغراق الفكرى بالا نكون بحكم طبيعتنا فى حاجة اليه ؟

بهذا الأسلوب وقف المازنى عبر الحياة وهو الأسلوب الذى فسره بعض الباحثين بأنه افتقار المازنى للحياة بكل ما فيها وايمانه بتفاهتها ٠٠ « ومن مظاهر هذا الاحتقار أنه مهما اتضع أو تواضع فلن يهبط الى أقل من مستواها العام ٠ »

ولقد ضاقت مساحة الحياة فى نظر المازنى حتى وصلت الى كونها لا تزيد عن « جيئة وذهوب » ٠٠

« لا شىء سوى اننا نجىء الى هذه الدنيا من حيث لا نعلم ثم نحس اننا جئنا اليها وصرنا فيها ثم نمضى عنها ولا ندرى اننا مضينا ٠ (١٤٦) ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى أى حد يقترن هذا بخواطر الخيام :

لبست ثوب العيش لم استشر
وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم
ادرك لماذا جئت ؟ أين المفر ؟

هل كان كل من الرجلين يريد ان يعرف مقدما لماذا يجيء ؟ ولماذا ينتهى ؟ أم هو يصور مدى احساسه بالسلطة المفروضة في وجوده وعدمه ، وأنه فى أصل هذا الوجود والعدم ملك لقدر لا يحفل برأيه ولا يعطيه التفسير لما يجرى عليه ، حتى أنه فى ساعة الوجود أو العدم لا يعرف أنه وجد أو مضى ، بل انه يولد ومعه كل شيء عن نهايته ، وما يحدث له فى حياته ، وهو لا يدرى عن ذلك شيئا .

ويردد المازنى ما قاله « مترلنك » فى بعض رواياته « اننا ننحدر الى دنيانا هذه وفى يمين كل واحد منا حقيبة يحمل فيها المقدر له والمقضى به عليه ، ويظهر ان الموكل بتحميلنا هذه الحقائب أشد يقظة من ان يدع واحدا يهبط الى الارض فارغ اليد ، أترى لم يحاول أحدنا ان يفلت ليجيء خالى الوفاض ، بادى الانفاض كما يقولون . وكيف يا ترى تكون حياته اذا جاء الى الدنيا كالصفحة البيضاء ، التى لم يخط فيها حرف ؟ أيبقى كالدرهم المسيح لا تتناوله أيدى الصروف ولا يتعاقب عليه من الحياة لا خير ولا شر ؟ ومن الذى يسعه ان يرسم لنفسه صورة ما قبل الحياة؟ (١٤٧)

وعلى الرغم من ان المازنى قد عرفنا بمنهجه فى الحياة ، القائم على ان يعيشها دون ان يشغل نفسه بالتفكير فيها ، أو دون ان يتسع وقته لهذا النوع من الفلسفة على الرغم من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك فهو لا يستطيع ان يخفى اهتمامه بموقف الانسان من الحياة ، وليس فقط الحياة التى يحياها ، ولكن أيضا ما بعدها وما قبلها ، ويرى غريبا من الانسان ان يحفل أكثر بما بعد الحياة ، ويعجز عن ان يتصـــور ما قبلها بالنسبة له حيث يقول :

« ومن الغريب ان الانســان فكر فيما يكون بعد الموت وتصوره على وجوه شتى ، واعياه ان يرجع البصر الى ما كان قبل هذه الوفادة الى دار التحول » (١٤٨) ٠

وليس فى هذا غرابة على ما يبدو وليس على الانســان اذا عجز عن التعرف على ما كان قبل وفاته ، لانه فى هــذا مشغول بالمستقبل ٠ حتى يستعد له أو يكون على حذر منه ٠

ولكن الانسان مع ذلك لم يهمل فى التعرف على الماضى ، ولعله قد شعر أحيانا انه تجاوز الحد فى كلفه بهذا الماضى ٠ ومن هنــا تتجدد الدعوات من آن لآخر الى الاهتمام فقط بالمستقبل ٠

ولعلك تلاحظ ان العلم لم يقصر فى دراسة ما قبل الحياة على النحو الذى اهتم فيه بالتنبؤ لما بعدها ٠

بل ان العلم قد وصل الى اعتبار الماضى حقائق دخلت فى حيز التأكد ، وليس هكذا نظره الى المستقبل البعيد وحقائق الكون فيما بعد حياتنــا قد تكون من قبيــل التخمينات ، وليست هكذا حقائق الماضى ، ولقد اهتم الانســان بحياته هو فى الماضى والمستقبل ، وتفرعت عن ذلك مذاهب شــتى والعدم ملك لقدر لا يحفل برأيه ولا يعطيه التفسير لما يجرى عالجتها الفلسفة وتفسيرات الروحيين والديانات ٠

ولكن المازنى ـ على ما يبدو ـ يعنى بحديثه هذا الانسان الذى تضطرب به الحياة من حوله ليس الانسان العالم الذى حفل باسرار الحياة وما قبلها وما بعدها ، انما الانسان المادى الذى يعيش ببساطة ، ولا يحمل نفسه عناء البحث فى نفسه أو حياته ، وتشغله الأفكار المعروفة ولا يحاول أن يأتى بجديد ويعنى فقط بما يرى من حوادث الميلاد والموت ويرى الناس يتحدثون فقط عما بعد الموت ولا يتحدثون عما قبل الحياة فلا يشذ عنهم ، بل يمضى معهم فى الركب ، من غير عناء ولا توليد ٠

والمازنى متأثر فى ذلك « بتوماس » هاردى الشاعر فى قصيدته « ساعة السنين » والتى يروى فيها عن حوار بينه وبين الروح « قال الروح : انى أستطيع ان أرد ساعة السنين فتكر عقاربها راجعة ولكنى لا استطيع ان أقفها حيث تشاء فان اتفقنا على هذا ، فاصدر بها راجعة ، فانه خير من ان اتصورها (يعنى حبيبته) ميتة ، فاجابنى « سلام » ونشر صورتها كما كانت فى آخر عهدى بها ، ثم صارت ترجع أصغر فأصغر ، حتى عادت الى يوم عرفتها أول مرة ناضجة الصبا ريا الشباب ، فصحت قف وكفى ، دعها تبقى هكذا أبدا ، ولكنه هز رأسه ، واأسفاه ٠ لا سبيل الى الوقوف فمضت تعود حبيبة فطفلة ، ويتضاءل وجهها شيئا فشيئا حتى صارت لا شىء كأن لم تكن ، فتوجعت وقلت ، لقد كان خيرا من هذا ان تبقى عندى ميتة ، اذن لبقيت حية بذكراها ، أما الآن فلا سبيل الى ذلك فقال فى جفوة (انك انت الذى اخترت ان تغير المقدور وتفسده) (١٤٩)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والى هذا الحد يبدو ايمانه بالقدر ، وبأن محاولة تغييره افساد له ، وافساد للحياة نفسها ٠

ثم يفسر لنا ذلك تعلق كل من المازنى وهاردى بأيام الشباب ، والرغبة فى العودة اليها والبقاء عندها ، لان ما قبل ذلك عودة الى الضآلة والصغر وما بعده دخول فى الزيف ٠

والخريف يؤذن بالنهاية ، ويضع الانسان أمام حصيلة لحياته ضعيفة وتافهة بالنسبة لآماله التى كان يعيش بها فى عهد الشباب ، فكأنه ينتهى الى الضآلة أيضا ثم الزوال ٠

ان كل شيء قد أوشك على الزوال أو زال فعلا حتى الآمال فقدت حلاوتها وأصبح الباقى من رحلة الانسان وجودا فقط ، وبمجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى التناول من التزام خطوات الى جانبه ، حين ذلك يعرف المرء ان اذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر اذا هتف بالنفس هاتف من آمل أو طماح يخفق بلا احتفال ، ولا يخرج من دقه عن الانتظام وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ، وتندى زهرتها من أوراقها وتصغر وتتساقط على الارض ، ويطيرها النسيم هنا وهناك » (١٥٠) ٠

هكذا كان احساسه بخريف العمر ، وهو الرجل المرح الذى كثيرا ما تناول الحياة بأكثر من البساطة ، بالاستخفاف وبأنه لا يعنيه منها شيء ٠ وهكذا يتأثر من كل جانب ، ويبدو متشائما أو يائسا ، وكأن هذه المواقف تذكره بما لقى فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حياته من متاعب وما عانى من لوعة اليتم والاحساس بالحاجة الى الكمال ·

والا فهل هو وحده الذى دخل مرحلة الخريف هذه ؟ وان كل من يطـول به عمره يشهد هـذه الفترة ويقضيها بخيرها وشرها ، وقد لا يتأثر الى هذا الحد ، وقد لا يشعر بظلمة ، ولا يحس بفقدان الامل ولا فقدان حلاوته · انما هو المزاج الخاص والتجارب التى دخلت فى تكوين هذا المزاج ·

ان المازنى وان نجح فى الاستعلاء على الاحداث ، فانه لم ينجح فى التخلص نهائيا من آلامه الشخصية ، وظلت هـذه الآلام تعـاوده من آن لآخر كلما حدثت تغيرات فى حيـاته « لذلك فاننا نشعر بطعم خاص لسخريته من الحيـاة ومن الزمن ومن التقلبات التى يمر بهـا طعم المرارة والتأثر بالتجارب ، طعم التعبير الحى المفعم عن انسان عانى وصارع ، واراد تلقائيا ان يضع تفسيراته أمام القارىء لكل ما ينفعل به أو يتأثر ، وقد يكون فى هذا كمن يستخدم لغة اراد الغير ان يتعرف الطريق اليها ليهتدى بها وليس القصد من ذلك ان يكون معلما للآخرين أو لسـانا عنهم ، وانما هو يمثلهم تلقائيا فيما لو وجدوا أنفسهم فى مثل ظروفه ، وكأنه بذلك يوفر عليهم ان يجهدوا أنفسهم فى البحث عن حل اذا عجزوا عن ان يلتمسـوه فى أنفسهم ، وفى ردود الفعل الطبيعية عندهم ·

ان سخرية المازنى من الحيـاة فى أطوارها المختلفة التى تمر بالناس جميعا ، تسـاعد على قبـول هـذه الاطوار واحتمالها ، وتخفف العبء عن هؤلاء الذين ثقـل عليهم العبء وناءوا به ، واختلطت عليهم السـبل فعجزوا عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التكيف على النحو الذى يناسب الحياة ويناسب قدراتهم فى مختلف مراحل العمر ·

ولم يترك المازنى مرحلة من هذه المراحل دون ان ينفعل بها ، ويقف أمامها ، حتى الحركات التلقائية ، حتى صراخ الطفل ساعة ميلاده ، وساعة استقبال الحياة تشغل هذا الذهن المرهف بتناقضها مع استقبال الاهل له بالفرح والبهجة ، والبشائر والزغاريد ·

ولندع التفسير العلمى لظاهرة الصراخ لدى الطفل ساعة الميلاد جانبا فما يعنينا هنا هو تفسير الكاتب لها · وهو لم يطل الوقوف عندها الا بقوله «أحسب ان أول حياتنا شرها» ، ثم تركنا لابن الرومى حين يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد

والا فما يبكيه منها وانها
لأرحب مما كان فيه وأرغد ؟

اذا أبصر الدنيا استهل كأنه
بما سوف يلقى من أذاها يهدد

ويتركنا كذلك لشاعر عربى من نفس الطراز يقول : « جئنا الى هنا باكين وانك لتدرى اننا لانكاد ننشق الهواء حتى نصيح ، نصيح حين نولد لأننا جئنا الى هذا المسرح الكبير للمجانين » (١٥١) ·

ثم يعود المازنى الى نفسه لا ليسترسل فى تأكيد ما تصوره الشاعران من خوف الوليد من المستقبل ، ولكن ليوضح لنا ما يلفت اهتمامه ، وهو فى الواقع موهبة استحضار النقائض

ووضعها فى مواجهة كل منهما الآخر · انه يقارن بين الصراخ وبين الزغاريد ، ويقابل بين احتفال الناس بنا حين نولد ، وبين اهمالهم لنا بعد ذلك ، وبين طبيعة الاحتفال عند الميلاد وطبيعة احتفال آخر عند الوفاة قد يشترك صاحبه فى الاعداد له قبل رحيله ، وكأنه لم ينس لحظة واحدة المسافة الضئيلة التى تقطعها رحلة الحياة على الارض لكل حى ، تجىء وتذهب ، وكأنها فى مجموعها تجىء وتذهب فى كل لحظة ، حتى يبقى الاستحضار لبداية الحياة ونهايتها ماثلا فى ذهنه فيواجه الجيئية الأولى قائلا : « لعل هذه هى الجيئة الوحيدة التى تلقى فيها الحفاوة الحارة : نهبط الى الدنيا عرايا عاجزين باكين صارخين فى غير أدب أو رفق فيحتفل بنا ، وتزف البشائر بمقدمنا ، وتترى التهنئات من أجلنا وتبذل العناية براحتنا وتتوخى مرضاتنا ويسام الخير من لمحاتنا ، وتؤنس آية الرشد من حركاتنا ويستشف فينا العرف ·

وكأنه يدرك مدى صدق ابن الرومى فى تأملاته ، أو فى توافق نظرة كل منهما للحياة ، فيهرع الى شعره يلتمس عنده التصديق ، ويمضى فى المقارنة « ثم لا حفاوة ولا احتفال وبعد ذلك أولا حرارة فى الحفاوة على الاصح ، وانه لمن سوء الأدب ولا شك ان نستهل حياتنا بكل هذا الصخب ، وان نعلن مقدما بمثل هذه الضوضاء ، ولكن عذرنا ان هذا أول عهدنا بالمسرح ، واننا اغرار تعوزنا الدربة وينقصنا التهذيب وانا كنا لا نحس الافادة ، ولا نتحدى اداب الدخول ، فحسبنا ان نكفر عن ذلك حين نخرج ، ونعنى بأن يكون خروجنا لا شذوذ فيه وان يكون على أسلوب يقبله الذوق وتقره الآداب » (١٥٢) ·

وهكذا تصبح المقارنة والتنبه المرهف للتضاد بين الأشياء من الخواص البارزة فى المازنى ، وقد سبقت الاشـــارة الى العلة فى ذلك وهى الصدمة التى تلقاها منذ مطلع حياته أو هى الصــــدمات اليومية المتتالية التى أكدت عنده تناقض الحياة من أساسها ، فأصبح مجـــرد التقابل بين الأشياء يثير انتباهه وأحيانا يثير ســـخطه . ومن ذلك كان التقابل بين الخـــير والشر والحسن والقبح ــ هو الآخــر لا يأتى بمفهوم مقبول لدى الكاتب على نحو التقابل بين الوجود والعــدم ٠ كله فى نظره يعطى معنى اللامعقولية للحيـــاة وما فيها ٠ ويوحى بأن الحياة صماء تتسمع ما حولها ولا تصـــل اليها أصوات الانغام النشاز المنبعثة من هــذا التناقض ، وعمياء لانها لا ترى التناقض الواضح بين الجمال والقبح وبين سائر الاضواء على ما يبدو ، ويبالغ فى تصوراته فيرى أنه لو كان الحياة لتناول ما أخرجته كفاه من الارض وحطمــه وذره فى الرياح ٠

وحين يتعاطف لحظــة مع المــوت ويظنه راحة من العناء ويعود بذهنه الى صور أخرى من صور الموت تجعله يخشاه ، ويفقد رضاءه عنه ، هذه هى صـــور النسيان التى تحــدث للانســـان من أصدقائه ان النسيان فى نظر المـــازنى موت ، وفراغ وليل مظلم ، فما بالنا بالموتى انهم لا يمر بهم الا ليل دائم مظلم ٠

ولا تنحصر نظرة المـــازنى الســـاخرة أو الســـاخطة فى الارض التى فيها ما عانى وطلع فيها فى كل يوم على جديد يؤكد له الحق فى سخطه وفى سخريته ، فان السماء العريضة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواسعة ونجومها اللامعة الجميلة ، وما فيها من زينة وضوء ،
كل هذا فى نظر المازنى لا يثير البهجة ، ولا يسعد النفس
انما هو مصدر كآبة للانسان • ويذكرنا ذلك برأيه الذى
كان يردده ، وهو ان الوجود لم يخلق للانسان ولا شىء فى
الوجود مخلوق من أجله وليس للانسان أهمية كبيرة فى
نظر الكون والأشياء التى توجد حوله •

والواقع ان نهاية الحياة والانسان والكون قد حددت من
قيمة الموجودات كلها فى نظر المازنى كأنه كان يتمنى ان
يرى الخلود فى شىء لكى يعتبره عظيما وجميلا ، أما ان
نعتبر ما يفنى شيئا ذا قيمة ، فهذا مالا يرى المازنى ان
يقتنع به ، وربما كان هذا وراء نظرته هذه الى السماء « هذه
السماء التى تسحق النفس لهولها المرعب ويهول الخاطر ان
يقذف به فى اجوازها اللانهائية ويعارض الآخرين فى
احساسهم بجمال السماء « ليس جمالها الذى يسحرك بالخالد
ولا الباقى » •

والشمس أيضا بضخامتها ووهجها وأشعتها الهائلة ، فان
« مرجوع وهاجها رماد » •

والنجوم •• انظرى هذا النجم الذى يكاد يخبو وميضه
بين أخوته نجوم الدب الأكبر ، لقد كان منذ بضعة قرون
يخفق مثلها لمعانا ، فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعى
الرثاء ، وتصورى هذه النجوم كلها وقد خمدت تصورى
عقلك يتلمس طريقه فى سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان
يضىء •• تصورى عقلك يصطدم فى ظلمة الكون بقطعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كابية من هذه الكواكب فى عينك غضى بصرك عن السماء اذا أردت ان تستبقى بشاشة نفسك » •

بهذه الحساسية نحو ما يذكر الانسان بالفناء تناول المازنى الحياة من حوله الميلاد يذكر بالموت وكأن هذا الذى انطلق وعبر عن نفسه بالصراخ يجب ان يعود الى هدوئه فيسكن ويلوذ بالأدب وهو يغادر الارض التى جاء اليها •

والارض التى انجبت الاضواء ومارست وجودها بالانتاج الوفير كان أولى بها ان تحكم على كل هذا فتقدمه وتلقى به للرياح ، أى تجهض الحياة وتبكر بايقافها فلا داعى فى الاستمرار لشيء لن يطول أمده الى الابد •

والسماء التى تزين الدنيا بهذه النجوم والاضواء والشمس المشرقة الساطعة ، هذه السماء التى تموج بهذه الاضواء ليلا ونهارا ولا تستطيع ان تحفظ على الانسان بشاشته لانها مهددة بالظلام ، بانحلال هذا الضوء ، وتفحم الاشعة وبالفناء •

وهكذا نرى سخرية المازنى من الحياة والكون من حوله ، سخرية ذات طابع خاص ، نكاد نحس فيه أثرا لفلسفته خاصة ، أو نظرة شبه واقعية ولكنها تفتقر الى الامل الانسانى الخلاق الساحر الذى يحول عوامل السخط الى حركة عارمة من أجل البقاء ، أو نكاد نلمح أثر النظريات العلمية التى غزت الفكر الانسانى فى هذا العصر وتناولت الموجودات على أساس التطور التاريخى الطبيعى الذى يحدد البداية والنهاية للأشياء ، وان كان هذا فى الواقع ليس جديدا على الفكر العربى ، فاننا نعرف ونؤمن بنهاية كل شيء ، وقد يتجاوز

ايماننا ما يقول به العلم ، فنرى نهاية للكون أشمل وأكمل مما يرى فقد يتردد العلم فى القول بالنهاية المطلقة والعدم التام ولكن ايماننا لا يتردد فى ذلك ٠

وقد يتلاقى ايماننا مع العلم حين يقول بالحياة الأخرى ، وحين نفسر ذلك على انه يعنى تجدد الحياة بصورة من الصور٠ ولكن ايماننا على كل حال يعطى الامل بصورة أقوى ، ولا يدع لشىء السلطة أو المبرر فى ان يحطم بشاشة الانسان أو ينهى سعادته تحت ايهام الفناء والنهاية ٠

وحين تكون النهاية بداية لحياة جديدة يصبح الأمر سهلا، ولكنه من جانب آخر قد يكون مبررا آخر للاستخفاف بالأشياء ، والدعوة الى الزهد فيها ٠

وربما كانت من هنا نقطة الانطلاق لافكار الزهد والتقليل من شأن الحياة والاستهانة بها ، والترفع عما يفوت أو يصعب الحصول عليه منها كأن هذا هو الاسلوب البديل للسخرية من الحياة فى بعض جوانب الفكر الاسلامى ٠

وعلى هذا لا يكون المازنى قد اشتط فى تناوله للحياة على هذه الصورة ، فهو لم يبعد كثيرا عن دائرة الفكر الذى ورثناه ، والذى نعيش عليه ٠

انما الجديد فيه والخاص هو المازنى نفسه بأسلوبه الفريد وسخريته الفريدة التى استطاعت ان تجمع بين الجانب الضاحك منها وبين الجانب الساخط فى قدرة على الاحتفاظ بالخصائص الأصيلة للأسلوب ٠

سخريته من نفسه :

٢٣ ـ أحس المازنى بعيوبه الجسمية قبل ان يحس بهـا غيره وبالطبع أكثر مما يحس بها غيره فمضى يتحدث عنهـا بأسلوبه الساخر الفكه ، كان قصيرا ضئيل الجسم ، وفيه عرج ظاهر بعض الشيء ، فجاءت بعض أحاديثه وتصريحاته وهى تعكس الشعور المجسم بهذه العيوب ، وكأنه بالضحك عليها كان يحاول ان يتخلص من الاحساس بها ، ويتخفف من اعبائها على نفسه ، والرغبة فى الكمال طبيعية فينا جميعا وربما وصلنا فى ذلك الى حد الطمع أحيانا ، يتمنى كل انسان ان يجد نفسه فى أكمل الصور وقد يمضى فى خيالاته الى درجة الحلم بها واضفائها على نفسه ، وتصور المواقف والظروف التى تمر به وهو على صور تناسب احلامه ، وكأنه ينسى واقعه حتى أن المرء أحيانا لا يقنع بما هو عليه من كمال الخلقة والتكوين ، وهو كذلك فعلا ، فتسحره الخيالات الى حد الشطط فاذا به وقد استرسل فى تصورات يبز بهـا كل اقرانه وربما كان بدون هـذه التصورات متفوقا عليهم بالفعل • ولكنه الطموح الذى قد يصل الى الشذوذ •

لهذا فنحن لن نظلم المازنى كثيرا وسنلمس له بعض العذر ولن نسترسل فى وصف مركبات النقص التى كان يعانيها والتى املت عليه ما يقول لاننا على هـذا النحو من الفهم لطبائع الناس أو محاولة تفهمها لا نرى المازنى يقف وحده على حافة هذه الهاوية التى نسميها النقص فلكل منا حظه من الرغبة فى الكمال ليس فى كثير من الاحيان على قدر حظه من الاحساس بالنقص ، ولكن على قدر ما يتيحه له خياله وطموحه وحبه للتفرد والتفوق (١٥٣) •

مهما يكن تقديرنا للباعث الكامن فى احساسات المازنى ، ومهما كان ميلنا فى هـذا التقدير الى جانب السـلب أو الايجاب ، الى جانب الاحساس المرضى بالنقص أو الاحساس الصحى بسحر الكمال والانجذاب اليه ، مهما يكن الأمر فى ذلك فان المازنى كانت لديه القدرة على السخرية من عيوبه الى الدرجة التى يمكن أن توحى بأنه لا يهتم بها فى الوقت الذى يمكن ان يحملها غيره على العكس من ذلك ، وفى النهاية وعلى أى الاحتمالين فقد تعـالى على احساساته وتعـالى على عيوبه لتصبح أقل مدعاة للسخرية من جانب الآخرين ، الذين أتاحت لهم سخرياته من نفسه مادة جديدة تشغلهم عن الاصل فالصورة أهم والصورة أمتع والصورة أقدر على جعلنا نحس بها ، فاننا فى احيان كثيرة قد لا ننتبه للاصل ، أو لا نعطيه نفس الدرجة من الاهتمام كما يتوهم البعض ٠

وفى كثير من الأحيان لا يكون احساس الناس بشخص ما ـ وعيوبه بصفة خاصـة ـ على قدر ما يحس هو بنفسـه أو بهذه العيوب ٠ فانه فى العادة يجسم لنفسه صورة العيب ، فى الوقت الذى يكون فيه الآخرون مشغولين بنفس الحالة التى هو عليها ولكن بالنسبة الى أنفسهم ٠

فالساخر من نفسه قد يلفت النظر اليها على عكس ما قد يتبادر الينا من ان رغبته ان يشغل الانظار عنه ٠ وقد يكون ذلك عن عمد ، وليس عن صدفة ، وهو بهذا العمد يريد ان يشير الى قدرته على التصريح بعيوبه والاعلان عنها ، كأنه يوحى بالانفصال عن هذا العيب والتخلص النفسى منه ، وهذه ميزات تصل الى درجة الموهبة ٠

هكذا يبدو انه مهما ذهبنا فى تحليل المازنى والتعرف على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما وراء سخريته من نفسه ، فلن نجد أمتع من السخرية نفسها وليكن الباعث عليها ما يكون ٠

يكفى ان نستعرض معه اللقطات التى صورها لنفسه فى بعض المواقف لنستمتع بها ودون ان تفسد علينا الاستمتاع باحتمالات لبواعثها ومصادرها قد لاتغنينا الآن فى قليل أو كثير ٠

يدعى المازنى أن أحدا لو رأى سيارته وهى تمرق من بعيد لظن انها بدون سائق أو ان سائقها عفريت قمىء ٠

ويزعم ان أحد السحالى أحبته وأطمأنت اليه لانها ظنت انه كان سيخلق على صورتها ثم عدل الله عن ذلك الى ما هو اهون ٠٠ الى صورة الاناس » ٠

ونجده يتسلل بين أرجل الناس خوفا من جاره الذى توهم انه سيلكمه » ٠

ويدعى ان الذى يجرئه على لقاء اللصوص ويجعله لايتهيبهم انه كما نعلم أو كما لا نعلم ضامر ضامر ظاهر الضآلة بادى الضعف ، وأوجز تعريف بالنفس يحضره هو انه امرؤ فارغ الثياب » ٠

أليست هذه مقدرة ؟ أليس هذا نوعا من التوازن الواعى لا يستطيع كل الناس ان يحققوه لانفسهم على هذا النحو ؟

ولقد تمادى المازنى فيما هو آكثر من ذلك فصرح بدمامته وقبح وجهه ، الذى استحق فى نظره ان يسب قائلا « فقبح من وجه وقبل حامله » وكان ينظر فى المرآة ٠ ويقول هذا على كل حال وجهى ولا حيلة لى فيه ، وهو على دمامته أحب الى من وجوه الناس » ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت للمـــازنى آمال لم تتحقق ، ولم ينل من اشتغاله بالأدب والصحافة ما كان يتمنى ، وكان يريد ان يعيش حياة ترضى طموحه وأمانيه ، ولكنه لم يحقق من المكاسب المادية ما تمكنه من ان يحيا الحياة التى يريد رغم انه كان مسرفا ومتلافا ، فكان يحس بأن جهده ضائع وانتاجه هباء ، ولولا الحاجة ما وجد نفسه مشجعا على الاستمرار فى الكتابة وأعود الى حديثه السابق عن نفسه حين يقول :

« وجهت قلبى الى المعرفة ، وامتحنت نفسى بالســؤال وعللت روحى بالتفتيش ، بنيت لنفسى آمالا غرست لنفسى، أوهاما عملت جنات وفراديس غرست فيها أحلاما من كل نوع .. وكان نصيبى من كل تعبى « قبض الريح » .

وأكاد أشعر هنا بأن الكاتب يأخذ على نفسه المغالاة فى الامل ، والتعلق بالاوهام الزائدة والاحلام البعيدة أكثر من كونه واقعا تحت تأثير ضـــار للاحساس بالحرمان ، انه لما لم يحقق كل آماله ولما لم يكن هناك فى الامكان أن يرى ما يريد رأى العين تحول كل شىء فى يده الى قبض الريح .

هكذا المغـــالاة فى الآمال والاسراف فى الطموح شـــأن المازنى مع الاسراف فى كل شىء وأكاد أحس هـــذه المغالاة وهذا الاسراف فى تخيلاته مع اشباحه ، فقد أخـــذ يحادثها وتحادثه وتزامله فى صحرائه الواســعة وتسخر منه وتقهقه وتشبهه بصورة ميتة . وهو يجاريها ويذهب معهـــا نفس المذهب فيرى معها انه فعلا أشبه بالأموات أكثر منه بالاحياء ويتساءل وماذا انا الآن ؟ « حى من الاحياء لا يدرى الناس اننى مت منذ سنين وانى قبر متحرك كشمشون ملتون أو جثة لم تجد من يدفنها أو صورة باهتة لما كنته في حياتى ، وما أحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخمن انى لا ازال على قيد الحياة لا لانى ينقصنى ان تكتب لى شهادة بالوفاة • (١٥٤) •

أليست هذه مغالاة وأليست هـذه المغالاة نوعا من لفت النظر والتحايل بالأسلوب الذى يملك زمامه لكى يستحوذ على اهتمام القارىء ويسحره ويشده اليه ، لا لينتهى أثر هـذا الجذب انتهاء القراءة ، ولكن ليبقى هذا الميت حيا فى نفوس اقرانه مدى الحياة •

ويمضى فى سـخريته من هـذه الصحبة الطويلة مع الأوهام ، وانه ضيع حياته وشبابه معها حتى امتد به العمر ولا يستطيع ان يعود الى شبابه ، أو يأتى بما يأتى به الشباب، وكأنه فقـد كل أحاسيسه وما هو الا هيكل يتحرك ، أو آلة تسير على نحو ما ، « أروح وأجىء وأكتب وأتكلم وأضحك وأكل وأشرب ، ولكنى لا أرجو ولا أغضب لانى لست حيا » ، فهل هذا استمرار فى الوهم ؟ أو أنه افاق من هواجسه وهاله ان يغيب معها هذا الغياب كله ، ويبدد (على حبهـا) أيامه ولياليه « لا فى لذات ومتع بل فى بلابل ووساوس وهواجس ما انزل الله بها من سلطان » ، « ليت ان من الممكن الحجر على الشباب كالحجر على المال ، اذن لأمكن أن يحجر أحدهم ، أمى مثلا أو تحية زوجتى ، على شبابى فيظل محفوظا مصونا حتى أرشد كما أكاد أرشد الآن ، حتى أفيق وأصـحو من غاشية الأوهـام ، وأستطيع ان أحسن الانتفاع بهـذا الذى يولى ولا يتمهل وليت العمر يرفى كما يرفى الثوب كلما بلى منه شىء » •

ان المازنى يعز عليه ان يولى شبابه ، ما كان يريد ان يكبر ويمتد به السن ، أو كان يمكن ان يقبل مرور الزمن عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لو انه احتفظ بكل قواه ، وحقق كل ما كان يريده ، وعاش مع حياته فى أحسن أيامه ٠

ليتنا نقنع بالحياة كما هى ، ونقنع بالعمر الذى قطعناه فيها ، ولكننا مع الأسف لا نريد لحياتنا أن تفنى ولا نريد لها أن تنقص شيئا ولا نسلم بسهولة لعوامل التغير الطبيعى ان تلعب دورها كأننا فقط الذين تعنى بهم الحياة ولا أحد غيرنا ، نستمتع بالحياة فى شبابنا ونطلق معها كل احلامنا لتكمل لنا المتعة ، ونتناولها بكل أعماقنا ، ثم يمضى بنا الوقت فاذا كل ما مضى كان أوهاما وهواجس ٠

انه أوهام لأننا لا نستطيع أن نحتفظ به على نفس الصورة من الحياة ٠ وكنا نريد ذلك ٠ ولكن لا يمكن أن يكون كل هذا وهما ، أنه فى مجموعه وكل صوره وحتى هواجسه كان الحقيقة نفسها ، كان واقع حياتنا ، وواقع مكابدتنا لها ، على لينها وشدتها ، ورغدها وشظفها ، وعطائها ومنعها ،وما كان يسعدنا يتحول فى مستقبلنا مصدر حزننا لاننا فقدناه ، لأنه لم يعد بين أيدينا ، فهل كنا فى وهم وأفقنا الآن لنحس أننا أعطيناه أكثر مما يستحق واننا أضعنا معه زهرة شبابنا وازهى أيامنا ٠ وأنه كان منا كالمغتصب لهذه القوى العزيزة علينا ، وقد تمادى فى غيه فلم يردها علينا فى وقت نحن أحوج ما نكون اليها ٠ هل الأمر كذلك أم ان هذه فعلا كانت الحياة وغيرها لا يعتبر حياة كاملة ولا يعتبر امتداد لها ، فاذا ما فقدنا الشعور بهذه التى نظنها أوهاما فقدنا الشعور بالحياة نفسها ؟

انها سخرية حائرة ورغم التمنيات بالصحو والافاقة والحجر فانها لا تريد ان تهتدى ، انها سخرية من النفس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصلت الى حد التجريد والتعرية للانسان الذى لا يقنع بشىء ولا تهدأ له رغبة • ولا يريد ان يكف عن ممارسة حياته كانسان حتى لو عارض الحياة ، وعادى أيامه ولياليه السابقة ومرتع صباه وملهى شبابه ، حتى لو انقلب متجنيا على نفسه التى انطلقت لتأخذ من كل شىء فى فترة معينة ثم لم تشدد قبضتها على ما أخذت لكى لا يفلت منها وتشعر بعد ذلك بالحسرة •

أليست هذه صورة الانسان فى مراحل حياته ، أليس المازنى بهذه الصورة التى رسمها لنفسه واحدا منا ولكنه عبر عن أزمته وعن أزمتنا فوفر علينا ان نمر مستقبلا بحدتها على النحو الذى كان له ان يعانيه •

ومن قبل المازنى كثير من الشعراء والأدباء الذين أبدوا فزعهم من وصول المشيب اليهم وتخطيهم فترة الشباب الناضرة وتركوا لنا ما يصور تعلقهم بالماضى وتحسرهم عليه •

والمازنى واحد من هؤلاء الذين كانت لهم مع شبابهم الفة ومع حياتهم فى هذه الفترة تجارب عاطفية •

وقد ترك لنا بعض اللقطات السريعة التى تصور مدى شعوره بتقدم السن معه ، وحيرته بين عهدين يعى كلا منهما تماما لا يريد ان ينسى عهد الفتوة والشباب ، ولكنه لا يلبث ان يشعر بقوة الواقع عليه • ونعرف ان عهد المازنى بملاحظة التناقض بعيد وعميق وتلقائى وكأنما أصبح هذا قدره الذى لا يستطيع ان يتجاوزه ، أو هو قدرته الأساسية التى جمعت اليها مواهبه •

يعجب بعايدة ويفتن بها ، وتحدثه نفسه « ان يركب الحياة ـ معها ـ بما يركبها به الشباب » ولكنه يعود فيضحك من نفسه ، ويستكثر عليها ان تفكر فى ذلك أو تسعى اليه ، وكأنه يسخر من وقفته أمام الفتاة وليس لديه ما يتقدم به اليها « لم يكن باقيا الا هذا ، أمسح لها شعرى بكفى أو أعبث على مرآى منهـا بوردة أرجوانية أو أبعث اليها مع النسيم بقبلة ... » .

ولا يرحم نفسه عندما يحس بأنه ينفر من كلمة الحب ، أو لا ترحمه محدثته «ميمى» التى تصحح له معنى نفوره فى غير اشفاق عليه ، ولا هوادة « ولماذا كل هذا النفور بل الفزع من ذكر الحب ؟ .

أتراك أصبحت كمصاصة القصب التى ذهب عصيرهـا ، فانت تفر مما لم تعد قادرا عليه ، لانك جففت ونشفت ؟ » .

ويسخر من تناول الأمور العاطفية بعقله ووضعها أمام المقاييس ، وهى التى لا تقبل هذا النوع من الحساب . ومتى كان للعاطفـة ان تحتكم الى المنطق وهـل تنتظر العواطف الملتهبة حتى يحكم الجدل المنطقى لها وعليها ؟ وهـل هـذا يعتبر جـدلا وهو نوع من الصراع مع النفس يعنى التردد والتهيب ، والخوف وعدم القدرة على مجاراة الحياة ولمـاذا ؟ والطريق غير الطريق ؟ هـذه عايدة تعاتبه على موقفه البارد منها ، وتمنعه عليها مع ان التمنع عادة من خصال النساء ثم تهدده وبماذا ؟ بأخطر مما يظن بالخطر الذى قد يكون غافلا عنه أو يكون وهمه أو منطقه قد حجباه عنه مع ما حجبا من حقائق الحياة التى لم يعد يراها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تهدده بأنها ستلقى بنفسها على أول رجل تصادفه ان ظل على تمنعه وعناده وأى موقف أدل فى التعبير عن نفسه من ان يكون جوابه على ذلك هو ان يستمهلها ليفكر فى الأمر ؟ لقد كشف أمامها حقيقته وأتاح لها ان تسخر منه بأسلوب المرأة وتتهكم بهذا الهروب الذى يدعى فيه اللجوء الى العقل والقياس « لابد أن يكون كل شىء بالمنطق وكل شىء لابد أن يوزن ويقاس ، الآن اقتنعت انك لا تستطيع أن تحب امرأة ، انك آلة مفكرة من لحم ودم » ٠

ويسخر منه صادق مخاطبا « ميمى » التى يظن انها مالت اليه : « ماذا أعجبك من ابراهيم هذا : سفاهته وثرثرته فلسفته العجز ؟ ماذا بالله ؟

وتسخر منه زوجته تحيه حين يحاول اعداد فنجان شاى فتضطرب يداه ويقع الفنجان منهما وينكسر ، وكأنما أرادت الزوجة أن تنتقم منه ، أو ترد له بعض ما قدمه اليها فى كثير من المناسبات من لوم وتقريع أو كأنما هو ينتقم من نفسه لزوجته التى طالما عانت من سخرياته ٠ ولعله كان يحس بموقف كثير من الزوجات فانتهز هذه الفرصة لينتصف لهن من الرجال ، فهذه زوجته تسخر من غرور الرجال وأدعائهم وهم لا يستطيعون ان يعيشوا بدون المرأة لحظة بينما المرأة لو أتيح لها ـ تستطع ان تعمل كل ما يعمله الرجال وكأنما تريد ان تقول : انظروا اينا عالة على الآخر ٠

« هذا يثبت انكم معشر الرجال أطفال تزعمون انكم انتم المجاهدون فى الحياة ومع ذلك لا يحسن الواحد منكم ان يصنع فنجان شاى أو يغلى أو يسلق بيضة وتدعون ان النساء لايصلحن الا لشئون البيت وانهم أداة للنسل ليس الا ، يطبخن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويحملن ويلدن ولا خير فيهن لغير ذلك ، حسن ولكن ماذا يحسن الرجل ولا تستطيع المرأة أن تحسن مثله هل يعجزها أن تجلس الى مكتب في ديوان وتدخن وتشرب القهوة وتكتب بضع رسائل قصيرة ؟ واذا تلقت من التعليم كفايته أن تكتب مقالات كمقالاتك أو اذا تعلمت الطب أو الهندسة أن تحذق ذلك كحذقكم ؟ — وانظر الى براعتكم فى الهندسة جعلتم البيوت كالمقابر لا شمس ولا هواء وبراعتكم فى الطب كل طبكم تخمين وتجارب كالذى يمد يده ليتحسس فى الظلام وأى امرأة متعلمة يعيبها ان تتولى الحساب فى المصارف ؟

وقبل أن ننتهى من هذا الحديث عن سخرية المازنى من نفسه ، واستخفافه بها حتى انه انكر عليها الشاعرية وأنكر قيمة ما يكتب وقيمة النتائج التى حصل عليها من عمله ، أحب ان أذكر هنا رأيا للاستاذ العقاد يحاول به ان يتعرف على الدوافع الكامنة لدى المازنى ، والتى تجعله يقف من نفسه هذا الموقف ، وذلك رغم ما سبق من الاشارة الى ان هذه المحاولات قد لا تكون ضرورية بالقياس الى ما يضيفه الاستعراض نفسه لمواقف المازنى الساخرة من متعة ذهنية خاصة ولكن لا باس فى ان تلحق نهاية العرض ببدايته لعلها تلقى على الصورة ضوءا مكملا أو موحيا ·

يرى العقاد ان السر وراء سخرية المازنى من نفسه ومن أعماله الأدبية هو أن المازنى يستصغر حياة الانسان فى جانب آمال الخلود ومصائر الأقدار ، ولأنه ينظر الى أعلى ولا ينظر الى أدنى ، فيقيس ما عمل بما أراد ان يعمل ، فاذا هو دون ما أراد أن يعمل وان كان فوق ما أراده عاملون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخــرون (١٥٥) ، وهــذا يعنى الطموح الذى ذهبنــا اليه وأرجعنا اليه كثيرا مما أوردنا للمازنى من مواقف ٠

ويذهب الاستاذ العقـــاد كذلك الى ان المـــازنى كان ذا شخصيتين أو ذا قسمين متلازمين « يسخط أحدهما فيتناوله الآخر » بالعبث والتعزية ويشمخ الشـــامخ منها فيغض منه المطمئن الوادع ، ولا يندر فى كتابته ان نرى له دلائل هذه التثنية المباركة » ٠

وأعتقد أن هــذه الثنائية التى يقول بها الاستاذ العقاد طبيعية فينا جميعا ، فلا يختص بها المازنى ، وهى فى رأيى ليست ثنائية التقسيم والتجزئة ولكنهــا التفســـير الرقمى لمناقشة الانسان لنفسه ولما يمكن ان يكون لدى بعض الناس من تردد ، أو لما يعتبر من قبيل التأثر بالاحــداث والمواقف كل موقف على حدة ، وقد يدفع حدث ما أحدنا الى ان ينظر الى الحياة بالبشر والتفاؤل ، ويظل على هـــذه الحال الى ان يصـــــدم بحدث آخـــر يغير نظرته أو يلون بعض جوانبها بما يجعلها تبدو مغايرة للنظرة الأولى الانســـان فى مراحل عمره قد لا يظل على رأى واحد أمام الحياة والأشياء وقد يتغير أسلوب تناوله للحياة كما تتغير أفكاره ، دون ان نحس بأنه انحرف أو ضل الطريق أو خلع شخصيته ليلبس شخصية أخرى غيرها وقد يزداد البعد بين ما كان عليه الانسان وبين ما صار اليه ، لأنه يمارس حيـــاة حافلة بالأحداث وألوان الصراع والأفكار والمذاهب والمفـــاجآت ، وقـــد ينسى ما كان لأنه مستغرق فى حاضره أو مهتم كل الاهتمام ببناء مستقبل من نوع خاص يتفق مع أمانيه ٠

أليس هذا تطورا ؟ قد يحس الانســـان بهذا التغيير فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه ، وقد يزداد هذا الاحساس حتى يصل الى حد الشعور بالغربة حتى عن الذات وليس فقط عن المجتمع الذى تضطرب فيه . واعتقد ان هذا اثر من آثار الانطلاق الحى مع الحياة . لا ينبغى ان نسجن أنفسنا فى ذواتنا والا عشنا حياة ناقصة وحرمنا من استمرار التجربة . وهل اذا تحدث الانسان مع نفسه يكون حديثه مع انسان آخر ؟ .

يقول المازنى لنفسه ، ولا يمكن ان نقدر ان الحديث بين شخصين متقاربين ، أهـذا الذى ركبه الله لك يا مازنى بين كتفيك رأس كرءوس الناس ؟

ويقول : « هب جيلنا ، كان آخر جيل ، أتظن ان الدنيا كلها تقضى نحبها من أجل اننا قضينا نحبنا ؟ اذن لا تصوب نظرك يامازنى الى هذه الحيوانات الصغيرة الساذجة التى تبدو لعينيك اذ تطل من نافذتك ولا تبتسم اذ تجتلى مظاهرها ، كأنك تزدريها أو ترثى لأصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ، ولم يعرفوا ما عرفت ، فانها حافلة بالمتع والعجائب لهـذه الكتب التى نعنى بها » (١٥٦) .

والعقاد يعتمد على تصريحات للمازنى توهم هذه الثنائية التى ذهب اليها وان كانت لا تعنيها على ما أرى :

يقول المازنى :

انى ارانى قد حلت وانتسخت	مع الصبا سـورة من السور
وصرت غيرى فليس يعرفنى	اذا رآنى صبايا ذو الطرر
ولو بدا لى اليـوم انـكره	كأننى لم اكنه فى عمرى
كاننى اثنـان ليس يجمعنا	فى العيش الا تشبث الذكر
مات الفتى المازنى ثم اننى	من مازن غيره على الاثر

هذه الثنائية فى الواقع لا تحمل معنى التعدد وان صرح بها المازنى نفسه ، لانه لا يرى اجتماع الشخصيتين معا ، ولكنه يعنى التغيير والتطور حتى انه أصبح مغايرا تماما لما كان عليه فى مطلع حياته ٠

وهل يبقى الفتى منا كما هو عندما يصبح شيخا ؟

قد تبقى صورته وملامحه أو معظمها ، ولكنه بحكم السنين والتجارب قد يلاحظ كثيرا من التطورات التى تركت أثرها فى تكوينه النفسى والعقلى بمثل ما تركت على شكله وصورته وربما أكثر ٠

ويمكن القول بالاضافة الى ما سبق ان المازنى باستخفافه بنفسه يمثل استخفافا بالانسان عموما ، الانسان المغرور الذى يذهب بعيدا فى تقدير نفسه ويظن العالم كله خلق من أجله ، فتستبد به الرغبة فى السيطرة على كل شىء ويرى كل ما يحصل عليه ضئيلا بالقياس الى ما يريد وما يناسب حاجته ٠ وهو فى طموحه الشخصى يمثل الطموح الانسانى بصفة عامة ، ذلك الذى لا يعرف حدودا لأطماعه ، ولا حدود الزمن ٠ ولكن أنى له ذلك وكيف يمكن أن تحطم قوانين الحياة والكون من أجله وكيف يمكن ان يسمح للانسان بأن يتمادى الى ما لا نهاية فى تحقيق رغباته وملذاته وأطماعه ؟

ان الذى يظل أسير هذه الأمانى لا يجنى الا السخرية ، لأنه يحاول أن يتجاهل قانون الحياة ٠

طابع السخرية :

من خلال نظرتنا الى كتب المازنى ومقالاته نستطيع ان نتبين أن السخرية كانت ظاهرة أصيلة فى أسلوبه لم تفارقه فى حديث أو مقال أو قصة أو كتاب ، حديثه مع الاصدقاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاهل ساخر وقصصه مليئة بالمواقف الساخرة وشخصياته على منواله تجنح الى التهكم وتميل الى التعبير بالفكاهة وصراع الشخصيات قائم فى معظمه على تبادل السخريات ٠

ومقالات المازنى لا تخلو من هذا العنصر العذب المشوق الذى يجعل لها لونا خاصا ويضفى عليها مسحة مميزة « بل ان بعض هذه المقالات يمكن ان تعتبرها هزلية خالصة مما نجد لها أمثلة كثيرة فى كتبه : « صندوق الدنيا » ، « ع الماشى » « خيوط العنكبوت » ، وأكثر هذه المقالات يدور حول المازنى نفسه وذكريات طفولته وشبابه ، وفى كل ما كتب المازنى من تصوير للمناظر الطبيعية فى طريقه أو لرحلة قام بها أو لقوم زارهم ، أو لفريق من الناس جمعته بهم الصدفة ، أو حادث مر به ، فى كل هذا نجد نفس الأسلوب الساخر لا يترك موقفا دون أن يتخذ منه وسيلة للفكاهة والسخرية ٠ حتى يمكن أن نعتبر أسلوبه فى حقيقته ساخرا ، ولا نجده يعتمد على فن بعينه من فنون السخرية ومنها المبالغة والفورية والتجسيم الذى يصل الى حد التصوير الكاريكاتيرى ٠ انه يستخدم كل هذه الفنون ويستخدم أكثر منها بل انه يستطيع ان يكون ساخرا من مجرد وضع الكلمات بعضها الى جانب بعض ، ومن النغم الخاص الذى نحسه بين الكلمات ، ومن حسن استخدام العبارات للمواقف المختلفة ٠

ولكننا لا يجب ان نظن كما سبق أن ظهر لنا ، ان سخرية المازنى كلها من النوع الضاحك وان كان الكثير منها كذلك ، فان كثيرا من النماذج التى اطلعنا عليها تبدو منطوية على حزن وأسى ، وكأنها تحمل آلام السنين ٠

وقد عرفنا من حياة المازنى وظروفه الشخصية ما كان له

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آثار بعيدة المدى على انتاجه وعلى أسلوبه وعلى نظرته للأمور من حوله • كانت له طفولته التى لم تخل من الآلام ، والمشاكل التى امتدت به حتى سن الشباب ، وقاسى من اضطرابات الحياة العائلية والمهنية والمالية والأدبية ، وربما تخلفت عن ذلك اثقال على النفس اتخذت مظهرا متشائما قائما أحيانا ، وكان يمكن أن تظل هذه نظرته الى الحياة ، لولا أنه يملك هذه الموهبة القادرة على مواجهة كل شيء بالتعالى والاستخفاف •

وهذا هو السر فى أن المازنى لم يفقد مرحه ، ولم يضيع هذا الجانب العذب من شخصيته فبقى مثلا للروح المصرية فى خير مظاهرها من حب الفكاهة الى درجة الولع • وارسال النكتة على سجيتها فى أى المواقف والتغلب على الشدائد بالمرح واللامبالاة •

لولا هذا الطبع المصرى الاصيل لما ترك لنا المازنى هذا الأدب الساخر وهو فى مثل هذه الظروف العصيبة التى عاشها وتأثر بها فى مراحل حياته •

ولا أدعى ان السخرية ترجع الى مصر فقط ، فان فى كل مكان من العالم ساخرين ، ولكن سخرية المصرى تمتاز بالاشراق ، وفيها روح النضال الحى ، الصابر ، والمتفائل لولا أن المازنى له طبع مشرق وخصائص وقدرات خاصة على مواجهة الصراع تغذوه روح مصرية قوية اكتسب منها الكثير حتى أصبحت الفكاهة عادة أصيلة وأسلوبا خاصا يتميز به ، ويدل عليه •

لولا هذا لما استطاع أن ينتصر على الشدائد التى مرت به ، ولما تغلب على الصدمات القاسية التى كان يمكن ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجعل منه انسانا حزينا منطويا على نفسه منصرفا عن المجتمع ، انعزاليا فى انطوائه وانصرافه ، ولكنه بفضل هذه الروح ، وبفضل القدرة على ادراك التناقضات والعلاقات الخفية بين الأشياء جذبا أو تنافرا ، استطاع ان يحقق انتصارا كبيرا على كل عوامل الحزن وعوامل الاحباط ، وكانت السخرية سلاحه فى تحقيق هذا النصر ، وكانت فى نفس الوقت المظهر الحى المعبر له .

وسواء كانت السخرية من الحياة أو من الناس أو من نفسه أو من الأشياء فهى سخرية تصويرية نابضة بالحركة والحياة . ترسم المناظر ، وتحدد أبعادها للقارىء حتى يتمثلها ويتفاعل معها ، يبتسم لها ويعجب بقائلها ويحس لها بوجود حقيقى يملأ عليه المكان .

كيف نراه يشبه نفسه بعربة الرش التى تمتلىء لتفرغ وتفرغ لتمتلىء ولا نضحك ونذهب مع الصورة لنتأمل تفاصيلها ، ونحاول أن نقف منها للكاتب على أبعاد كثيرة تتعلق بالمهمة التى يحس انه مسئول عنها والدور الذى يؤديه والآلية التى يشعر بأنه يقوم بها ربما لأنه لا يجد نتيجة مرضية لما يفعل تشجعه وتجدد أمله ولا يشعر انه فقط لا عمل له الا التفريغ والامتلاء .

وهل نبتسم فقط عندما نراه ينقر على رأسه كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو ؟ « وربما اسفت لانى لا استطع ان اتناول رأسى هذا وان أقلبه بين كفى وأفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ » (١٥٧) .

ويصف شخير ناظر المدرسة وصفا تصويريا يعتمد على التجسيم والاستمرار فى عرض الصورة وايراد الأوصاف

المتتابعة لها كأنه يحاول ان يستنفذ جميع التأثرات التى تركها هذا المنظر وملابساته عليه ، وعبر هذه التأثرات وعمقها يشخر شخيرا عاليا مختلف الطبقات متنوع النغم على كل درجات السلم الموسيقى فهو بذلك لم يقف عند حدود الحالة أو المنظر ، ولكنه يرسم شخصية بكاملها عن طريق منظر واحد التقطه لها لا يمكن للقارىء أن يتجاهل معالم هذه الشخصية المسئولة عن مدرسة وعن طلاب وعن حياة تعليمية واسعة ثم هو مغرق فى النوم الى هذا الحد غير المسئول وغير المشغول بشىء ..

وفى طريقه الى مكة ، وأوصافه كلها وتعليقاته تشدك الى مرح عذب خفيف وكأن الألفاظ تداعب نفسها ، أو كأنها بطريقة انسيابها تدل على صاحبها وكأنه يريد أن يضحك من شىء ، ولا ينتهى به الموقف حتى يكون قد وضع نفسه فى اطار مثير للقارىء ، والصورة فيه صريحة ومعبرة ولا حرج فيها من تصوير مدى قصره وفى مناسبة قد لا يكون منذ البداية مضطرا لان يعبث فيها ، على حين انه حولها منذ البداية الى النهاية مثارا للعبث والدعابة .

يقول المازنى فى وصف الدخول الى مكة : وانطلق البوق يرد الناس عن الطريق ، ومضى السائق اللعين يخطف بسيارته كأنه يقربها من الموت ولا يمهلنا حتى نتأمل الناس المحتشدين على الجانبين ، والدكاكين المضاءة بمصابيح البترول أو الزيت فما أدرى والطريق طويل يشق مكة من بابها الى آخر الكعبة ومن ورائها الى السوق ، وقد قطعناه بالسيارة فى سبع دقائق ثم وقفت بنا أمام قصر الضيافة على المسعى بين الصفى والمروة وأمام باب السلام ، فنزلنا وأقبل علينا ناس كثيرون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يسلمون علينـــا فقلت هـــذه فرصـــة ولعل بعض قومى بينهم (١٥٨) أتوا مستخفين فملت عليهم أو على الاصـــح شـــببت اليهم وتملقت بأعنـــاقهم وطوقتهم بذراعى وساقاى أيضا ذراعاى حول أعناقهم وساقاى حول خصورهم واهويت عليهم آقبـــلهم وألثم أفواههم وخـــدودهم وأنوفهم وآذانهم ورءوسهم ، وكان كل منهم يتلقى مظاهر شوقى بما تستحقه و تستوجبه من السرور والجلد ثم يحطنى على السلم (١٥٩) ٠

والظاهرة أنه كان يحلو له أن يضحك الآخر على قصره أو انه يميل تلقائيا الى العبث بهـــذه الهيئـــة كأنه متذكر لها دائمـــا ، أو كأنه يتحداها أو تصيبه بما تصـــيب العاهات أصحابها من ضعف أو تخاذل فما ان تأتى فرصة حتى يظهر تعاليه على هـــذه الفكرة حتى ليبدو أحيانا أنه يفتعل ذلك افتعالا ، والا فلماذا يلح عليه دائما ، انه ما ان يرى حفاوة الحجازيين بأميرهم حتى يعلن عن أن نفسه تحدثه بأن يشترك معهم فى الحفاوة فيتمنى كرســـيا ليصعد عليه وينال شرف تقبيله ٠

وهكذا لم تكن سخرياته كلها من النوع المباشر المقصود منذ البداية ولكنه كان يحسن استغلال المناسبات ويحسن ان يورد خلالها من الاشارات ما يدل على خفة روحه وذكائه فى ربط الأشـــياء بعضها ببعض من غير ان يكون بينهما أصـــلا علاقه ما ٠

لقد رأى فى الحجاز ان الناس هناك يمجدونه ويوقرونه لان لحيته قد طالت بعض الشىء وان ظلت أقصر من غيرها من اللحى ، فيسر لذلك ، ويتمنى لو كان قد اطالها أكثر من ذلك خاصة وان النساء هناك محجبات فلن يرينه هكذا ، ويحكمن

عليه بما تنم عنه لحيته البيضاء ، ولم ينس المازنى أن يميل ناحية الأدب الذى أضاع فيه عمره عبثا فيقول : « وقد أسفت وأنا هناك على عمرى الذى أضعته فى الاشتغال بالأدب » ، وأنفقته فى هذا العبث الذى لا يجدى فان لحية واحدة بيضاء ترجح هناك مائة كتاب من خير ما أنتجت العقول ، ولو كنت أعرف هذا من قبل لجملته وكدى لا الكتابة والتأليف ، كلا فان هذا كله عبث بل معالجة لحيتى لتشيب » . (١٦٠)

ونرى قدرته على نقل الصورة وتتبع تفاصيلها والجدية التى يضفيها عليها رغم ما يتخللها من فكاهة ومن هزلية الموضوع كهؤلاء الذين يتحفوننا بنكاتهم ويبدعون فى القائها مستخدمين اللفظ والصورة والحركة دون ان يبدو عليهم أى أثر للضحك .

ومن هذا النوع قصته مع حماره عندما كان يركبه فوق قنطرة فلما توسطها « الجحش » بدا له ــ والحديث للمازنى ــ أن يقف ، وراقه منظر الماء فأجال فيه عينيه برهة ثم خطا الى حافة الجسر ولم يكن له حاجز ، ومد عنقه الى الماء ، فظننت انه قصير النظر وانه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء طلعته البهية فى صقاله ، ولكنهم قالوا لى انه كان يريد ان يشرب فنزلت عنه وقلت له يا عزيزى ان من دواعى أسفى أنى مضطر أن أتركك الى الماء وحدك فان ثيابى يفسدها الماء وهى غالية اذا كانت حياتى رخيصة ، ولكن بعد أن فكر قليلا غير رأيه ، اما لأن الصورة التى طالعته فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكاشفنى بها .

ويندمج المازنى مع الفكرة التى يريد ان يبرزها فيتحول بكليته اليها ، يعبر عنها بأكثر من جملة وأكثر من عبارة ، وتظل تتخلل حديثه ، يتحايل عليها بالنكتة والدعابة والتلميح والتصريح ، بالتعبير المباشر والتعبير من بعيد ٠

من هذا النوع كتابته عن رحلته الى الشام (١٦١) حين قرر مجلس نقابة الصحفيين ندبه للسفر الى دمشق لحضور الاحتفال بمهرجان المعرى ممثلا للنقابة ٠ حيث يأخذ منذ البداية فى اظهار تهيببه من الحضور فى هذا الملتقى الذى يضم كبار الأدباء فى البلاد العربية ، فيقول : « وماذا يصنع صعلوك مثلى بين كل هؤلاء الملوك » ٠

ويمضى فى هذا الاطار ليبدى مزيدا من مخاوفه ، ويبحث عن طريقة للهروب أو للحيلولة بين هؤلاء الاعلام الذين يخشاهم وبين حضور المهرجان حتى يخلو له الجو ليصول كما يريد ٠ أو يستنهض فكره ليأتيه بالمعاذير ، أو يلجأ الى الأقدار لتسعفه بالحل حتى ولو كان فى حادثة أليمة حدثت له أو لغيره ، ولكن الاقدار تعانده وكل شىء يمضى على غير هواه حتى وصل مطار دمشق ، ومثل أمام رجال الجمرك فلا ينفصل عن هذا الجو الذى عاش فيه وعاش معه القارىء فيستمر « ولم يكن معى شىء (فى المطار) الا ثيابى ، والا الكلمة التى أعددتها لمهرجان المعرى ، وقد أظهرتها لهم وأطلعتهم عليها ، فتبسموا وتركوها لى فى الحقيبة وليتهم أخذوها ، اذن لوسعنى ان اعتذر بأنها معهم ، وانى لا استطيع من أجل ذلك ان ألقيها ، فأتقى سواد الوجه ، ولكن كل شىء كان لمكيدتى فلا مفر من الفضيحة على ما يظهر بين هذا الحشد من اعلام الأدب والبيان « والأمر لله » ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبمثل ما كانت فكاهاته ودعاباته الســـــاخرة دقيقة ورقيقة وحسنة الوقع معبرة عن الموقف تمثل الاندماج معه والتخلص له من كل شيء •

بمثل هذا كله كانت تحسراته الســاخرة أيضــا وآلامه العابثة • فلا تقع عينه على منظر يثير أشـجانه ويوقظ فيه ما تعنى حياته يستهين به ويستخف باثاره الا وظهر كل هذا عليه ، فــلا يملك أن يتجاهله / وبنفس النظرة الســاخرة يمضى مع نفسه وانعكاسات المنظر الأليم عليها •

وقد لا يكون المنظر فى ذاته أليمــا ، وقد لا يثير عنــــد الآخرين نفس الاحساس ولكنها الذكريات الخاصة لا تلبث أن تعود واذا لم تكن على شكل سرد للوقائع واستعادة للأحداث ، فأنها تكون وصفا للنفس فى مجموعها وفى صورتها الحقيقية .

فاذا جلس على شــاطىء البحر لا يخلو فقط للاستمتاع بلحظات سعيدة ، يرضى بها الانسان نفسه ويستجم ، ويستعيد نشــاطه وجهه للحياة ومن يدرى لعل هذه طريقته الخاصــة للراحة ، والبدء من جديد فتراه وقد أحس بالضيق واختلطت عليــه الذكريات وانتقلت اليه من البحـــر الهائج ثورته ، وضجيجه ، واضطراب صــفحته ، تجلده الرياح فى غدوها ورواحها الصراع فى داخله وعلى شاطئيه •

فى هذا المشهد لا يجد المازنى غير الرياح ينشدها عواطفه وألمه وماذا عساه ينشد سواها ؟ •

فى أى أذن أفرغها وأهمس بها ؟ فى أى نفس انسانية أجد لنفسى كهفا يتجاوب بأصداء عواطفى وخوالجى ؟ عنــد من من الخلق أفوز بالتجاوب الذى تمنحنيه الرياح ، ولعــله

رغم سوط الرياح يشعر بأنها يمكن أن تحمل زفراته ولا تردها عليه ٠

وتتحول الطبيعة كلها لتكون لوحة خاصة لها ايحاءات خاصة مع نفسه ، وغابت الشمس وانتشرت على الأرض غيابات الطفل ، فعدت الى مقعدى أنظر الى الموج المشرئب ، وجاش صدرى مثله ، وجعلت طيوف الماضى تبرز من ظلامه ، وتخطر أمامى ثم تغيب ويلفها ما هو أظلم ، ولكن طيفا واحدا ظل ماثلا لعينى فى حيثما ادرتها ، ومالئا شعاب نفسى بالاحساس به ، ومناجيا لى من زفيف الرياح وتهزم الامواج ، وفيه وفى تمثل الحب المفقود والامل الضائع ، وخامرنى هذا الخاطر وألح على حتى خلتنى جثة غريق ردها الموج الطاغى الى رمال الشاطىء ، ولج بى هذا الوهم حتى ملت عن الصخرة الى الرمال ، ورقدت عليها ، وأومأت الى الأمواج أن اركدى فقد ذهب كل شىء : انتسخ الامل وغاض معين الحب وجفت الحياة » (١٦٢) ٠

وينظر الى فوق فاذا الطيور ذوات المناقير السوداء ــ والتى كان يظنها شقية فى حياتها ــ لا تحفل بحياته ، ولا تبالى بما ينعم به حين كان يتصور انه بالنسبة لها يعيش فى نعيم ورغد ، واذا هى تقول له فى سخريتها الخاصة « يا من كان يفاخر بغبطته ماذا انت اليوم ؟ ماذا صنع الله بامالك التى أنشأتها وربيتها واعتززت بها ، واحلامك التى نسجها قلبك حول حياتك ؟ انظر الظلمة التى تغشى ذهنك ، وتأمل الخفافيش التى تمرح فيه ، أليس الماء الملح الذى تكرع منه وقذائف البحر التى نلتقطها اهنأ وأرغد » واذا هو يطرق

ويقول « أى والله صدقت » ولشـــد ما أتمنى أن يكون لى منقارك الأسود » (١٦٣) ٠

ثم لا يلبث المازنى على ذلك طويلا ، فيتمرد على المنظر الذى أمامه ، ويهرب الى صحرائه التى نشأ عليها فى طفولته ، وصــباه ، وتأثر بها التأثير الذى يغلب كل تأثير يأتى من سواها وربما كانت نشأته فيها هى سر حياته كلها ٠ أو هى البذور الأولى لهذا السر الدفين ٠ ولقد أصبح له مع هــذه الصحراء ألف خاص ، وكأنها فى مثل هــذه المواقف تمثل منقذا خاصا له يهرع اليه من دنياه ويفزع اليه اذا استشعر الضيق والشدة ، ويتمثل ذلك فى قوله للبحر بعد أن كان يحس نوعا من الشبه بينهما « كلا : صحرائى أرفق بى من هذا البحر العاتى الذى يتغير منه شىء » ، ٠٠٠ ويتمنى أن ينقل الصحراء معه الى حيث يكون ، كأنها منه ٠ بمثابة الام يستشعر عندها الحنان والقبول مهما كانت الحياة معها سعيدة أم شقية ٠

« ومن لى بالقدرة على نقل هــذه الصــحراء التى ألفتها وأحببتها معى ، فى حلى وترحالى وفرشها وبسطها حولى فى حيثما أكون من الارض ؟؟ ٠

نعم ليت هذا فى وسع انسان : اذن لاستطعت ان أطويها كلما غادرت بقعتها ، وان ألفها مع ثيابى وأشــــيائى فى حقيبتى ، حتى اذا نزلت مكانا واستوحشت نفسى أنست بأن أخرجها وأنشرها أمامى وأتاملها وأذكر بها ليالى فيها بما اشــــتملت عليــه من خــير وشر ، وسرور وحــزن وغبطة واكتئاب ، ورضى وألم ، ومن أحق بها منى أوبى منها ؟ ٠ »

ولعل السبب فى حبها وايثارها أن لى مشابها منها ، وانى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجتلى من انبساط رقعتها وترامى أطرافها وتقاذف أرجائها وجدبها وعريها وتجردها من كل زينة تحفل بها .... رقع الارض الأخرى صورة من نفسى التى تتبسط للحياة ، ولا تزيد الحياة بها ، وللدنيا لتحسب عليها ومنها ، ولا تزيد الدنيا بها عمارا . » (١٦٤) .

دلالات سخريته :

سبق ان بينا دلالة السخرية على الحياة النفسية والسياسية والاجتماعية فى مصر ، وبنفس المنهج نحاول هنا أن نستشف من سخرية المازنى ما تمثله من حياته ومن شخصيته .

١ ــ نستطيع أن نحس آثار القلق الذى عاش فيه المازنى وعاش منه والذى تعرف اليه منذ مطلع حياته ولازمه فى مختلف مراحل عمره ولا أريد ان أعتبر هذا القلق حالة مرضية شديدة تمثل اضطرابا نفسيا وتعبر عن أعصاب تالفة .

وان كان المازنى على ما عرف من تاريخه قد تردد على الأطباء أكثر من مرة ، أو بدت عليه آثار من اضطرابات النفس ، فهذه ليست حالات شاذة عند المازنى ، وقد لا تعنى انه مريض بالفعل ، فكثير من الناس يدركهم الخوف على حياتهم لأمر ما وقد يبالغون فى ذلك ، وقد يترددون على الاطباء أكثر من مرة ، ولكن هذا لا يعنى انهم قد وقعوا تحت تأثير المرض النفسى بمعناه المخيف .

والقلق الذى عاناه المازنى ناشىء عن الاحداث والظروف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى مر بها فى حياته وعن حساسيته المرهفة بكل ما حوله ،
أو ان هذه الحساسية كانت مظهر القلق •

ولقد استطاع المازنى أن يتغلب على قلقه بالانطلاق بحواسه المرهفة مع الحياة ومع كل ما يقع تحت هذه الحواس ، حتى ظهرت قدرته النفاذة على ادراك الحقيقة ، والتغلغل الى صميم الأشياء والصور ، واستبطانها ، وادراك ما فيها من متناقضات • والتعبير عن هذه المتناقضات بالأسلوب الذى يكشف عنها للآخرين ويبرزها بكل ما يمكنه من ذلك من كلمات أو حركات واشارات ••

٢ ــ وتصور سخريته انه لم يكن على وفاق تام مع جسمه ، كان قصيرا وكان اعرج ، ولم يكن جميلا فى نظره بل انه كان يظن نفسه دميما أحيانا وربما كان مبالغا فى ذلك ، فان صورته لا تبدو الى هذا الحد الذى يعتبره دميما • بل انها كما يبدو لى لا تخلو من وسامة ، ولعل هذا نوع من التجسيم الذى برع المازنى فيه • واستخدمه كثيرا فى صوره الساخرة • ولقد عالج المازنى هذا الشعور بعدم الوفاق ، عن طريق أشبه باستعراض العيوب الجسيمة ، وما يقابلها من مظاهر الموهبة ، فكانت له فرصة التعالى والتعويض •

٣ ــ كان المازنى دائم الشعور بذاته ، ربما نشأ ذلك فى البداية من عدم الوفاق الذى أشير اليه قبل ، ومن الشعور بأن انقطاعه للأدب وعمله الكثير لم يعودا عليه بما كان يأمل من رغد العيش ويسر الحال كما كان يعيش الكثير ممن لا يتمتعون بمثل هذه المواهب •

لذلك نجد كثيرا من فكاهاته الساخرة تدور حول نفسه

ونسبة كبيرة من انتاجه أدب شخصي ، يتحدث كثيرا عن حياته ، وعن تجاربه الخاصة ، عن قصره وعن شكله وعن ظروف معيشته ٠

يسخر من بيته الذى ليس فيه ما يسرقه اللصوص اذا دخلوه ٠ « لست أخشى اللصوص فما معى ولا فى بيتى ما أخشى عليه الضياع ، وأتقى أن أمنى فيه بالخسارة ، ولو أن لصا كريما فيه مروءة دخل بيتى ، أو حيث أقيم فما هو بيتى ، وحمل ما فيه من ضياع لحملته شكرى » ويصور نفسه كالهازلين المتجولين الذين يستجدون عطف الناس بما يعرضون من صور مضحكة ٠ وهو بهذا يغمز أدبه ، ويعرض بما يقول للناس أو بأسلوب الناس فى استقبال ما يقوله لهم « كنت أجلس الى الصندوق أيام طفولتى ٠ وأنظر الى ما فيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وأجمع صور العيش فيها عسى ان يستوقفنى نفر من أطفال الدنيا الكبار فاحط الدكة ، وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا أو يعجبوا ساعة بملاليم قليلة يجودون بها على هذا الاشعث الاغبر » (١٦٥)

٤ ـ وتدل سخريته على أنه كان ذا عقلية متحررة يميل الى التجدد والمرونة ، ويمقت أسر العادات وعبوديتها ، ويكره التخلف بينما القافلة تسير ٠

ورغم ذلك فليس كل جديد بأسره مهما كان براقا ٠ سخر من حلاق القرية وهو صورة شعبية قديمة لم تتطور ، وفى نفس الوقت نراه يسخر من جديد طه حسين على الرغم من الضجة التى أثارها حوله ، ولعل ذلك لانه لم يرض عن الطريقة التى عالج بها الدكتور طه موضوعه ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ ـ بقدر ما كان المازنى يدرك التناقض بين الأشياء كان فى نفس الوقت واقعا تحت تأثير صفتين متناقضتين يعملان فى داخله وأغلب الظن أنهما كانتا تتصارعان ، وكانت الحرب بينهما سجالا تظهر احداهما اليوم وتبرز الأخرى فى الغد ، هاتان الصفتان ، أو الحالتان هما التفاؤل والتشاؤم .

وربما كان هذا ناتجا أيضا عن قدرة الكاتب العجيبة على تمثل المحسوسات وادراكها ادراكا عميقا لا تلبث معه الا ان تصبح بعد قليل جزءا منه متصلا به أقوى اتصال .

وربما هذا هو ما جعل بعض النقاد والباحثين يتهمونه بالسرقة الأدبية . رغم انه كان ينبه الى المصدر الذى أخذ منه حين يأخذ أو الى الأصل الذى ترجم عنه حين ترجم .

كان المازنى قوى الاحساس بالحياة سريع التجاوب معها ، والحياة ليست لونا واحدا ، ليست مرارة دائمة ولا حلاوة دائمة ، ترق وتعذب فتشرق نفس المازنى وتصفو وتنطلق فى فكاهات ساخرة من كل ما يقف فى تيار هذا الاشراق أو يحاول ان يعطل هذا الانطلاق ، وتقسو وتشتد فتتأثر النفس لها ، وتتجاوب معها بتجاوب الشقاء والحزن ، وقد تقسو وتشتد أكثر فيبدأ شعور المازنى بأن الحياة تتحداه وتقصده هو ، فتأخذه العزة ويقابل الآلام بروح انتقامية متعالية . وهنا يكون استهتار من نوع آخر ، واستخفاف لا يخلو من مسحة حزن .

ثم تعود الى الحياة بسمتها ، وتحلو من جديد ، وتزايلها الكآبة ، وتبدو منبسطة الأسارير ، فتعود الى المازنى سعادته بها وحبه لها ، وربما تأمل هذا التضارب وهذا التقلب فبدا

له الأمر شبيها بلعب الأطفال وعبثهم ، كأن الحياة لا تخضع لقانون ، وليس لها نظام ثابت ، أو هى غير جادة ، بل عابثة بنفسها وبمن عليها ، فلا أقل من أن تهون فى عينه ، وتصبح مادة لسخريته وفكاهته ، والواقع ان هذه السخرية تميل ميلا عند الكاتب للوصول الى حالة التوازن والرضا عن الأوضاع السائدة من حوله ، عن طريق اعطائها ما تستحق ووضعها فى المكان المناسب منه ٠

٦ ــ وكان المـازنى يدرك أثر الفكاهة والسـخرية على نفسه وعلى الاصدقاء والناس جميعا ٠ كان يعلم ان للضحك أثرا فعالا فى التخلص من الآلام ، وتحقيق الراحة النفسية فكان يضحك من كل شىء ويعبث بكل شىء ٠

وكان يعرف ان لدى الناس احزانا ، ومشـكلات ، ولو تركهم لها ضاقوا بها ، وشقوا ، وجفت بهم الحيـاة فكان يسعى الى اضحاكهم وادخال السرور عليهم ، اذا اختلى بهم فى مجلس أو كتب لهم كتابا ٠ ولا يضن عليهم بأن يكون هو نفسه مادة فكاهتهم وعبثهم ٠

ويساعدنا هو على فهم ذلك عنه فيقول :

« انا فى العادة أوثر الاحتشام أمام الناس ، ولكن حين أكون بين اخوانى وخلصائى أطلق لنفسى العنـان ولا أبالى ما أقوله وما أفعله ما دمت أريد ان أقول وأفعل ، ولو وسعنى ان املأ الدنيـا سرورا واغتباطا لفعلت فانى عظيم الرثاء للخلق ، وأحسب ان هذا تعليل ميلى للفكاهة ، فانى اتسـلى بها وأنشد ان أدخل السرور على قلوب الناس لاعتقادى ان عند كل منهم ما يكفيه من دواعى الاسى ، وما دام فى الوسع

ان نعرض عليهم الناحية المشرقة الضاحكة فلماذا نغمهم ونحزنهم • ثم ان للفكاهة مزية أخرى هى أنها أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها والنهوض بأعبائها الثقال ، فهى ليست هزلا ولا تسلية فارغة ، وانما هى تربية للنفس ، والرجل الذى يلقى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم لا الأبله الفاشل خير وأصلح الف مرة من الذى لا يزال يدير عينيه فى جوانبها الحالكة ويندب ويبكى ويعول • ولو نفع السخط والعنف والبكاء لقلنا حسن فلماذا لا ننظر الى الجانب الوضاء أو لماذا نعمى عنه وهو موجود ؟ » • أى لماذا نفقد القدرة على التوازن والاحتفاظ به ، فالمازنى يهمه اسعاد الآخرين والتخفيف عنهم ، فكانت سخرياته سخريات انسان يفهم أسلوبه ويعنيه ويسعى عن طريقه الى تحقيق أهداف انسانية ••

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

المازني بين الساخرين


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المازنى بين الساخرين

فى أدب كل أمة كتاب وشعراء ساخرون عبروا عن آرائهم بأسلوبهم الفكاهى ذى النبرة اللاذعة ، واستخدموا فى نقدهم هذا السلاح النشيط القوى المحبب الواسع الانتشار وهو سلاح السخرية • ولكل أديب من هؤلاء منهجه فى التفكير وطريقته فى الأداء ، ومنزعه الذى ينزع اليه ، فليس المازنى بدعا وحده ، وليس اختيارنا للحديث عنه على هذه الصورة من البحث معناه انه الساخر فقط ولا أحد غيره، كما ان حديثنا عن روح الشعب المصرى وحبه للفكاهة وتقبله للسخرية أسلوبا ومنهجا للنقد ، والتعبير عن رأى الكاتب وايمانه الفطرى بدور السخرية فى تصحيح الحياة ، وتعديل مسارها ، وتطهير المجتمع ، حديثنا هذا لا يعنى ان شعوب العالم لا تعرف الفكاهة ، ولا تميل الى السخرية ، فان السخرية ظاهرة أدبية لا أعتقد أن أدب أمة يخلو منها ، أو أن أمة من الأمم لا تستجيب لها ، أو لا تتأثر بها أو لا تستقبلها على انها ظاهرة طبيعية •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأظن ان السخرية نشأت مع الانسان منذ أصبح قادرا على التمييز بين الأشياء وادراك العلاقات الانسانية والكونية وملاحظة ما ينحرف أو يشذ عنها •

واذا تجاوزنا عن السخرية التى تنبعث من عوامل شخصية محدودة ، وتنزع الى غايات غير نبيلة ، وهى بالطبع ما لا نقصده هنا ، ولا يدخل ضمن دائرة بحثنا الا كعامل تاريخى أو صورة قد نعرض لها فى سياق البحث ولكنها لا تمثل نقطة ارتكاز فيه ، اذا فعلنا ذلك فاننا نستطيع ان نجد بدايات قديمة واضحة فى تاريخ مصر الأدبى ، مما سبق ان أشرنا اليه ، وفى محاورات فلاسفة الاغريق أمثلة بارزة على تقدير الانسان منذ مطلع حياته لهذا الأسلوب النابض المثير للعقل ، الهادف الى غايات انسانية رفيعة ، ونحاول ان نعرض عرضا سريعا لبعض الشخصيات التى اشتهرت بحسن استخدامها للسخرية ، لنرى الى أى حد كانت سخرياتهم نابعة من ايمانهم بالدور الجدى الذى عليهم أن يؤدوه لمجتمعاتهم ، ولنعقد مقارنة بسيطة ، وبنفس السرعة علنا نتبين منها موقف المازنى بين هؤلاء الاعلام ، والى أى مدى يمكن ان يكون واحدا منهم أو يمكن ان يكون الاثر الذى تركه على الحياة وعلى الأدب لا يقل عن اثارهم •

(أ)

١ ـ وأول ما نشير اليه هنا شخصيتان أغريقيتان ورد ذكرهما فى تاريخ الأدب اليونانى هما (لوسيان) و (ارستوفانيز) اللذان كانا يتعقبان (سقراط) بالنكات القاسية ، وربما يتبادر الى الذهن انهما كانا يسخران منه لمجرد السخرية ، أو للتنفيس عن حقد شخصى ، أو للمزاح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقط . ولكن الواقع انهما « كانا يريدان ان ينتقما للحقيقة من السفسطة فى رأيهما وان يبرزا الى المكان الأول ما يلقى به الناس وراء ظهورهم من المثل العليا » (١٦٦) ٠

٢ ــ وننتقل الى شاعر الانجليز الكبير (شكسبير) الذى ركز سخرياته على الانسان ، وعلى التكوينات النفسية لبعض النماذج البشرية كأنها هى الاساس الحقيقى لفساد المجتمع ٠

وبهذه الطريقة أمكنه ان يسلط الاضــواء البارزة على مظاهر الانهيار الاخلاقى التى انتشرت فى انجلترا فى القرن الخامس عشر ٠

ومن الشخصيات التى اختارها شكسبير رمزا للمعانى التى أراد ان يسخر منها شخصية (فولستاف) الهزلية التى جعلها منبعا للغواية والفساد فى مسرحيتيه (هنرى الرابع) الجزء الأول والثانى ٠

وهذا الأسلوب يضع الانسان أمام مسئولياته ، ويدل على السبب الرئيسى للانحراف وانه يكمن فى الانسان نفســه وفيما يتسم به بعض أفراده من جنوح لا أخلاقى ، واستعداد للعبث بالمجتمع ، ويمكننا ان نجد تصويرا لذلك فى وصف الدكتور لويس عوض لشــخصية فولستاف هــذا باعتباره شــخصية فريدة ، و « ليس نمطا اجتماعيا متكررا ، وأنه شخصية جسيمة الأبعاد عميقة الأغوار ، ذات فلسفة خطيرة لانها تجرد الحياة ــ بالواقعية المطلقة ، وبالمادية التى لا تعرف الحدود ــ من كل معانى المثالية ومن كل أثر الأخلاق ولا نجد ما نصــفها به الا أنها لا أخلاقية ، بمعنى أنهــا تقع خارج دائرة الاخلاق » (١٦٧) ٠

وحين يريد شكسبير ان يسخر من بعض الطوائف الدينية مثل (الجزويت) ، لانهم انحرفوا عن الخط المثالى ، يركز على القس الجزويتى كنموذج ، ومثل معبر عن الطائفة كلها • فيقول في مسرحيته « ماكبث » ان القس الجزويتى يحلف زورا على الرأى ونقيضه ويرتكب خيانة الوطن فى سبيل الله (١٦٨) •

بهذا التركيز على الانسان ، واختيار النماذج الانسانية الممثلة للفكرة ، أحدث شكسبير تغييرا واضحا وهاما فى بناء الكوميديا ، بحيث جعلها تقوم على كوميديا الطبائع ، وكانت قبله تعتمد على المواقف ، وعلى اللعب بالألفاظ ، وعلى نقد السلوك (١٦٩) •

٣ ـ ومن الساخرين الذين كانوا يسعون الى غاية نبيلة ، وهدف انسانى كبير ، الكاتب المعروف « برناردشو » الذى كتب مقالاته النقدية والاجتماعية بأسلوب ساخر لاذع ، وكان بهذه السخرية يعبر عن فكرة آمن بها ، واعتنقها ، ولم يمنعه شىء من أن يتناول الموضوعات ذات الحساسية الكبيرة عند الدولة وعند الناس ، كالجندية التى راح يسخر منها ، ومن الشرف الذى زعموه لها •

والواقع أن الجندية ليست دائما شرفا ، وليست دائما موضع تقدير الانسان وتمجيده • وقد لا ينسحب عليها هذا الشرف الا فى حالة واحدة ، هى حالة الدفاع عن الأرض والوطن ، ورد العدوان وتحرير الأراضى المحتلة ، أو المعاونة على ذلك ، والا فكيف يمكن اعتبار المعتدين وبناة الامبراطوريات جنودا لهم شرف الجندية وبطولتها المقدسة ؟ وكيف يمكن اعتبار المرتزقة المأجورين الذين يحاربون

الشعوب لصالح فئة قليلة من المستعمرين أو الظالمين ، فكيف يمكن اعتبارهم جنودا لهم شرف الجندية ، وقداستها ٠

وكيف يحق لهؤلاء المغامرين الذين تغرهم قوتهم ، وتدفعهم الى السيطرة الشرهة على الآخرين ، وبسط نفوذهم على الارض ، والتحكم فى أوطان الغير ٠ كيف يحق لهم أن يتباهوا بالجندية وشرفها ؟ على أن هذه الاعتبارات ما كانت يوما هى المقياس الوحيد فى الحكم ، ومنذ بداية التاريخ حتى اليوم ، والصراع قائم حول هذه الأمور الهامة فى حياة البشر ٠ ومهما كانت دوافع القتال والحرب ، فقد كانت ومازالت تجند لها أجهزة الدعاية ، وتشوه حولها الحقائق ، ويزور التاريخ فيختلط الحق بالباطل ، والشرف بالخسة ، وتضيع المعالم الانسانية العليا أمام أطماع الانسان وبهتانه ٠ ولولا أن فى الانسانية من يعالجوا هذه الظواهر بآفاق أوسع وتناول أرحب لبقى كثير منها غامضا مشوشا ، لا يهتدى الانسان الى ما فيها من تناقضات ٠

والأسلوب الساخر خير ما يجسم هذه التناقضات ويبرزها فى أوضح صورة ٠

وسخر برناردشو من الزواج وقدسيته التقليدية ، ولا أعتقد أنه كان عابثا بقدر ما كان يهمه أن يكون لهذه القداسة صداها الطبيعى فى العلاقات الزوجية ، وفى احترام كل من الزوجين لهذه الرابطة المقدسة من جهته ، والزام نفسه بحدود ــ ليس فقط فى الحياة الزوجية ــ ولكن فى السلوك الشخصى تتفق مع قواعد هذا الاحترام وهكذا كانت سخريات شو ٠٠ وهكذا سخر من الدين ومن نفاق المتدينين

وسخر من الاستعمار ، ومن تعميره الكاذب ، وتضليله للشعوب حتى فى التسمية التى يطلقها على نفسه ٠

وقد حمل شو كتبه وقصصه ومقالاته هذه الآراء ، فكان يعرضها ، ويناقشها بأسلوبه الساخر الذى لم يكن يخفى جديته الواضحة ٠

٤ ــ كذلك كان « أوسكاروايلد » الذى هجا النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأساليب الفن فى عصره ، وكان هجاؤه قائما لا على الوصف والنقد ، بل على النكتة ، واستخدام المفارقات أو النقائض أو الكلام غير المنتظر ، فيتجه بفكاهاته اتجاها موضوعيا اجتماعيا يهدف من ورائه الى تطهير المجتمع من نظمه البالية وحمل المسئولين على تهذيبها وتغيير أساليب الفن بما يتفق وروح العصر (١٧٠) ٠

٥ ــ و « فولتير » (توفى ١٧٧٨) ، ذلك الذى لم يشهد العالم ساخرا مثله (١٧١) ، والذى اتخذ من قصصه وقصائده ، وبخاصة « أحاديث عن الانسان » وسيلة لهدم المعتقدات الشائعة فى عصره ، والتهكم الشديد بالمثالية حتى أنه اعتبر المثالى ساذجا ضعيفا لا يستطيع أن يثبت للحياة ، ولا يتخلص من المأزق لأنه واهم ومسرف فى التفاؤل ٠

واستطاع فولتير ــ بسخرياته هذه ــ أن يحقق أغراضه الفلسفية المتصلة بما وراء الطبيعة والدين أو بالسياسة والمجتمع ٠ كان بأعماله السافرة ــ كما يرى المازنى ــ عاملا هاما فى احداث انقلاب ضخم ، لا يزال أثره محسوسا الى هذه الساعة ٠

ولعل من أكبر مظاهر الانقلاب هـذا ما نعرفه عن دور فولتير فى التحولات السياسية الكبيرة التى حدثت فى فرنسا وغيرت نظام الحكم فيها بالقضاء على الملكية المنحرفة وقيـام الجمهورية على أسس ثورية انسانية ٠

ورغم مكانته هذه ، ودوره فى توجيه الحركة الوطنية فى بلاده ٠ فان للمازنى رأيا خاصا ، فهو يرى أنه مع احداثه لهذا الانقلاب الضخم فى حياة فرنسا ، ومع بساطته وصدق سريرته ، اللذين يحركان فى نفس القـارىء العـواطف الشعرية ، وملحه الطريفة السارة ، مع كل هذا فانه لم يكن يصل الى القلوب ، لأنه لم يكن يصدر عن جدية فى كثير من المواطن التى تهكم فيها ، يقول عنه : « ولن يفوتك أن تلتقى بذكائه وبراعته ، ولن يعييك أن تهتدى الى احساسه ، وأن تطلع على شـعوره وعواطفه وأن تلمس نبله ، وهو دائم الحركة لا يفتر ولا يكل غير أنه ليس هناك شىء ثابت وراء هـذه الحركة المتواصلة ، أو نجم قطبى يصعد اليه ويتجـه نحوه ، وقد أسبغ على كتاباته مئات من الكسى والصـور ، وصبها فى أشكال لا يأخذها حصر ، ولم يوفق الى شكل واحد يضع عليه طابع قلبه ويسمه بميسم نفسه ، فهو غنى الذكاء فقير القلب خصب المادة سخى المظهر ، ولكنه كان يمشى فى هذه الدنيا ، ويخرج فيها من درب الى درب ، ويعرج يمينا وشمالا ، وينثر براعته فى كل مكان ، ويسح بملحه وطرائفه سـما ، وفى جوفه صـحراء لا تؤنس وحشتها واحـة واحدة (١٧٢) ٠

وأعتقد أن مثل هذه الشـخصية البعيدة المدى العميقة الغور لا يمكن أن تكون غير جادة ، حتى وان كان كل حديثها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكها ، لأن الجدية وان لم تظهر فى الشكل والأسلوب أحيانا الا أنها تلون الهدف وتحرك نحو الغاية ، وتجعل الأسلوب ـ مهما كان شكله ـ عمليا ، وقادرا على التأثير والتوجيه والعمل ، ومن هنا يفسر دوره فى احداث الانقلاب والتغيير ٠

٦ ـ وأشارت الدكتورة نعمات فؤاد فى كتابها « أدب المازنى » الى « مارك توين » الأمريكى وذكرت ان المازنى تأثر به تأثرا بليغا ، وأنه كان فكها يتحدث عن نفسه كثيرا ، ويتخلص بسخريته من آلامه ٠

واذا أردنا أن نضع المازنى بين هؤلاء الساخرين الذين ذكرنا لنرى من هو فى مجتمعهم ، هل قام بالدور الذى قاموا به ؟ هل كان له فى حياته كما كان لهم فى حياتهم آثار وأبعاد ؟

اذا أردنا ذلك فلن يصعب علينا أن نتبين ان المازنى فى العربية لا يقل عن هؤلاء الأعلام فى لغتهم ، على الأقل ، فيما يتعلق بأسلوبه الساخر وحلاوته وقوة تأثيره وفعاليته ، وقد نقول أهدافه أيضا وان بدا أنها بعيدة على المتلمس حتى لتكاد تخفى الا على من أرهف شعوره ، وحاول أن يكون مع المازنى حيث كان ٠

ولعل من براعة المازنى أنه استطاع أن يخفى قصده نحو الغاية ، كأنه عمد بذلك الى أن يكون أسلوبه انسيابيا بسيطا يشع بما يريد دون أن يوحى بالمباشرة ٠

ولقد شمل المازنى كل طرائق الساخرين وسلك مناهجهم ، بحيث لا نقول انه استقل بمنهج معين ، أو انقطع لطريقة خاصة ، جمد عليها أو قصر نفسه على الأخذ بها ، وصياغة

كل ما يريد على هداها • كان حرا فضفاضا ، اتسـع لكل اللمحات واللفتات ، وشـكل سـخرياته على حسب المواقف والظروف ، والأوساط التى يقول فيها أو يقول عنها •

وقد يدرك القـارىء أنه أمام كاتب تلقـائى مفتـوح سريع الاستجابة للأحداث والتناقضات ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يعنى أنه كاتب يخلو من هدف ، أو أنه لا يقصد تصحيح الحياة وانسجامها ، وصلاح الفاسد منها •

ربما لا نجد لديه عنف الاصرار على مقاومة الفساد بمثل ما نرى فى مسرحيات شكسبير ، لأن الكتابة للمسرح لها فنها الخاص ، وتهاويلها التى تقصد الى الضرب الشديد على أعصاب الجماهير وأفكارهم فى بعض الأحيان بما لا يتسـع له جـو المقالات ، أو حتى القصص •

ولكنه ــ بمثل ما فعل شكسبير ــ قاوم فساد الأخـلاق ، والانحرافات وركز على الطبيعة الانسانية ، بأكثر ما ركز على التلاعب بالالفاظ ، والمهارة اللغوية • فاتخذ من السلوك الانسانى مادته للنقط ، وكثير من سخرياته أو معظمها ينصب على أخلاقيات الانسـان ومواقفه أمام دواعى الوفاء والحب والاعتراف بالجميل ، وموقفه من الطبيعة ، والزمن ، وتقلبات الحيـاة •

واذا كان « برناردشو » و « أوسكار وايلز » و « فولتير » قد تناولوا فى سـخرياتهم نظريات اجتماعية وفلسـفية وسياسية ، محاولين هدمها واقامة أنظمة جديدة على أنقاضها فان سخرية المازنى كانت هى الأخرى ذات أهـداف سياسية واجتماعية ، بناءة ، فقد سخر من فساد الأحزاب ، وصراع الساسة من أجل الحكم ، وسخر من تدخل الدول الكبرى فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شئون غيرها ، وأطماعها فى الاحتلال وبسط النفوذ ، ومن نفاقها العالم وخداعه •

ألا يعتبر هذا فى الواقع نقدا للنظم السياسية القائمة ؟ وهل كانت السياسة فى عصره الا هذا النفاق والطمع والشهوة الى الاستعمار أو الى كرسى الحكم على حساب الكذب والادعاء ، على مستوى الأمم والأفراد ؟

وسخر المازنى من نظام الطبقات القائم على الظلم والذى كان بطبعه لا يميل اليه ولا يقره ، كما حمل بأسلوبه اللاذع على الظواهر الاجتماعية الدخيلة علينا والتى لا تناسب الذوق المصرى ، ولا تتفق مع أسلوب البيئة • بل فيها طمس للمعالم الأصيلة لشخصيتنا ، وليس فى الجرى وراءها الا التقليد الأعمى لعادات غريبة علينا •

هل يمكن أن يكون هذا النقد غير ذى هدف أو غاية ، أليس ذلك هدما مقصودا لظواهر غريبة على المجتمع المصرى، رغبة فى التنبيه على ما يناسب مجتمعنا ، واختيار العادات التى لا تكون بالنسبة لنا شذوذا صارخا ، أليس هذا دعوة للبناء الأصيل ؟ وفهم الشخصية المصرية وادراك أبعادها ، والتوفيق بينها وبين كل جديد ؟

وكان المازنى ذا آراء جديدة فى الأدب والشعر ، جاهد من أجل تطويع الحياة الأدبية لها • وكان النقد والسخرية اللاذعة من أهم وسائله لتهذيب أو تغيير المنهج القديم فى البحث أو فى الأسلوب الأدبى • ألا تعتبر سخريته هنا سخرية هادفة ذات اتجاه موضوعى يعمل على تخليص الأدب من ظواهر قديمة ، وفتح آفاق جديدة أمام الأدباء ، وتحرير

أسلوب الكتابة من قوانين تقليدية لم تعد صالحة للعصر ؟ ألا يخدم ذلك فى النهاية قضية التطور الفكرى والثقافى والحضارى للمجتمع المصرى ؟

لقد دعا المازنى من خلال أسلوبه الساخر الى الصدق ، واحترام حق الانسان كانسان ، وتقدير سيادة الشعوب على بلادها • ألا تعتبر هذه مثلا عليا كالتى نادى بها « شو » و « ايلز » و « فولتير » ؟

أليس فى التأكيد على احترام الشخصية والتخفف من الانسياق الأعمى وراء موضات الغرب ومستحدثاته ــ من غير اختيار ــ أليس فى هذا توجيه نحو مثل عليا ، ونحو تعديل السلوك الاجتماعى لينسجم مع طبيعة الأمة ويرضى حاجتها الحقيقية • ولا يفرض عليها تطورا مصطنعا هى فى غنى عنه وعن آثاره ؟

واذا كان المازنى ــ كما كان مارك توين ــ قد حمل سخريته مهمة التخفيف عن نفسه ، والتخلص من الآلام الذاتية ، ومن آثار التجارب الشخصية التى كان لها أصداؤها فى نفسه ، فان هذا لا يقلل من أهمية دوره فى العمل على تخليص الانسانية أيضا من آلامها ، وتخليص المجتمع من نقائصه ، والانسان من عيوبه • مما ينقله الى دائرة الأهداف العليا ، والأغراض العامة النبيلة •

اننى أرى أن سخرية المازنى على تلقائيتها وبساطتها سخرية هادفة وأن المازنى حقق عن طريقها أهدافا اجتماعية وسياسية عامة ، ولا يتعارض مع ذلك أن له أدبا شخصيا أو فكاهات تدور حول نفسه ، انما ذلك بعض ما فى الدائرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكبيرة ، وجزء من كل . ولا نعرف أن الأدب الشخصى يجرد الانسان من موضوعيته ، ومن نظرته العامة الى الأشياء والنظم والأوضاع .

وربما كان فهم الذات ، وحسن التعبير عنها ، طريقا طبيعيا لفهم الآخرين ، والتعرف على القضايا الأعم أو هو فى نفس الوقت دليل على وجود الامكانية وتوفر الدربة والقدرة على المعالجة . والكاتب الذى يصل الى درجة الأمانة فى تصوير نفسه بشجاعة ، يعطى مؤشرا واضحا على أنه يملك موهبة التصوير لما هو خارج دائرة ذاته ومعالجته . ولعلنا كذلك لا نبعد كثيرا اذا تذكرنا أنه من الشائع فى عالم الأدب أن يتناول الأديب الأشياء والظواهر ــ أيا كان أسلوبه ــ من خلال ما عكسته على نفسه من آثار ، أو ما أثارت من أفكار وخواطر . وحتى فى هذه الحالة فهو موضوعى مع نفسه ، ومع قضايا الفكر الانسانى .

ومن ناحية أخرى فاذا كان « شو » قد حمل كتبه آراءه فقد فعل المازنى ذلك ، واذا كان « شو » يحور أفكاره ويناقشها ويتعب فى مناقشتها فالمازنى كان بارعا فى العرض والتصوير والمناقشة فى غير اجهاد أو تصنع ومن غير أن تضغط عليه هذه المناقشة فتسلب أدبه صفة الفن البديع .

واذا كان « أوسكار وايلد » يعتمد على النكتة ، فقد مارس المازنى ، ببراعته المعروفة ، فنون النكتة والوصف والنقد والتصوير . فكان ذكيا فى استخدام النقائض واظهار المفارقات .

واذا كان « فولتير » قد بسط آراءه وأفكاره فى قصصه، فقد استغل المازنى فى ذلك قصصه ورواياته وكتبه ومقالاته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتنوعة في ذكاء لا يقل عن ذكاء فولتير ، وبراعة لا تنقص عن براعته ٠

كان فولتير يسح الملح ، وكان المازنى يرسل النكتة فى أحرج المواقف ، وكانت نفس فولتير رغم فكاهاته صحراء لا تؤنسها واحة جميلة ، وكانت صحراء المازنى أكثر اتساعا وأشد وحشة وافتقارا الى الأنس ٠

وهكذا تجتمع فى المازنى ميزات الساخرين الأعلام فى آداب الغــرب ، ويبقى متفردا بشــخصيته المتميزة الفريدة وطابعه الخاص ٠

(ب)

فى أدب العرب :

كان الهجاء أحد الأغراض الرئيسية فى الشعر العربى حتى العصور المتأخرة ، وربما كان له ما للمديح والفخر من حظ وانتشار ٠

والهجاء فن من فنون الســخرية ، أو بالمعنى التقليدى المعروف ، باب واسع يشملها ويتسع لحالات منها ، قد تبعد عنها الى الحد الذى تخرج به عن دائرتها ، أو تستدعى النظر اليها بمعيار خاص ، ليس منه ما اصطلحنا على اعتباره باعثا على السخرية أو هدفا لها ، وهو الاصلاح النفسى والاجتماعى والســياسى ٠

وربما كان الهجاء فى بداية أمره ــ قبل أن يصــل فى بعض صوره الى درجة عالية من الاقذاع والقبح ــ أسلوبا من أساليب السخرية ، يدفع اليه حب الحياة ، والتعلق بالمثل العليا ، والرغبة فى التقويم ، ولكنه حين دخلت عليه عوامل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخرى ترجع الى مبالغة الانسان أحيانا فى التهجم ، أو التعدى ، أو رد الاعتداء ، أو الدفاع عن النفس ، أو الاستجابة الى دواعى العصبية والتشجيع عليها ، جنح الى المبالغة واشتط فى بعض المواقف ، فانتهى الأمر بهذا النوع الى التطرف الشديد الذى منى به الأدب العربى ، والى أن أصبح صنعة يتكلفها الشاعر ، ويخلقها خلقا ، وربما أجر عليها ، أو صنعها طلبا للأجر من المنتفعين بها حين ترضى ثأرا عندهم أو ترد أذى أو تمس جرحا شخصيا ٠

ومهما يكن موقفنا من هذا الهجاء ومهما يكن موقف الأدب العربى منه ، فانه بحكم الصلة التى تربطه بالسخرية ضعفا أو قوة ، وبحكم أنه يستخدم أدوات السخرية ، وينهج منهجها ويستعمل أسلوبها ، وقد يتفق معها فى شكل الباعث وليس فى أصله ، وفى الهدف وان كان هدفه شخصيا خالصا ، وليس فيه كثير من الحالات تأثر بمصلحة عليا أو غيرة على الحياة نفسها ٠

ومهما يكن كل هذا ، فان الهجاء قد ساعد على اثراء السخرية ، وعلى تطويع العربية لها ، حتى يندر أن نجد شاعرا أو كاتبا لا يستخدمها للوصول الى نفس القارىء أو السامع ، ويندر أن نجد اجتماعات للأدباء ، أو مجالس للأدب تخلو من نكات موحية ، أو عبارات لاذعة ٠

وقد ترك هذا فى الأدب العربى مادة جاهزة ان صح أن نأخذها على هذا المعنى ، ويمكن أن تعتبر اللغة العربية نفسها — وقد مرت بتطورات كثيرة فى كل فنون القول — مطواعة أكثر من غيرها لهذا الفن الذى يتصل بالانسان وبالمجتمع ، وقد لا يرهق الكاتب أو الشاعر الذى يختار

السخرية طريقا للتعبير عن آرائه النقدية أو عن مواقفه تجاه الظواهر والأشياء ، لأن لغته تيسر له ذلك ، ولا تضن عليه ، ولأنه لن يشعر بعناء كبير فى البحث عن قالب للسخرية ، أو نموذج يحاكيه قبل أن يستوى فنه خالصا له ٠

لهذا ــ وكما سبق أن أوضحنا فى صدر هذا البحث ــ فان فى سجل الأدب العربى ساخرين عديدين فى القديم والحديث ، لم يخل عصر منهم ، ولم يخل كتاب فى الأدب من أخبارهم ، وان كنا نحب أن نفصلهم عن أدباء الفكاهة لطابعهم الخاص بهم ، ولأن أسلوبهم ليس كله فكاهة ، وليس فكاهة خالصة من أجل الضحك والدعابة فقط فان ضحكات الساخرين لها مغزاها الخاص البليغ ٠ وقد تكون أشبه بالضحك الباكى أحيانا ٠

ولهذا أيضا فاننا سنضيق دائرة أدبائنا الساخرين فنختار منهم ما يمكن أن تعقد له مع المازنى تشابها ما أو مقارنة بينهما فى فن أو فكرة أو صفة شخصية على أساس أن المازنى فى الواقع ليس حدثا غريبا فى أدبنا العربى ، وليس ظاهرة جديدة نشأت من عدم ، وان كان له من المقومات ما يجعله فريدا فى بعض خصائصه ، ويميزه تمييزا واضحا :

١ ــ كان المازنى يعجب «بابن الرومى» (٨٣٦ ــ ٨٩٦) اعجابا شديدا ٠ ويشعر نحوه شعورا خاصا ، وقد صرح بذلك فى أكثر من مناسبة ، واعترف بأن ابن الرومي يعد أحب شعراء العرب اليه ، وأعزهم عليه « وليس أعذب ولا أشهى لديه من أن يقضى ساعة معه » (١٧٣) وفى حديثه عنه ما يلمح الى السخرية من المجتمع الأدبى فى موقفه من ابن الرومى ، حيث لم يكن عادلا معه ، ولا منصفا له ،

« وناهيك برجل كان يسح بالشعر سحا ، ويملأ الدنيا بالرائع منه المتداول الذى ينشر فى مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء ، ويروى فى حلقات العلماء والأدباء ، وهو مع ذلك يجوع ويظمأ ويعرى ، ولا يجد من يسد خلته ويستر فاقته، ثم يموت فيطوى معه ذكره وشعره ، ويظل مغمورا كل هذه القرون ، لا يعرف عنه حتى الخاصة أكثر مما ورد فى تراجم العرب — غفر الله لهم — من أن اسمه « على بن العباس ابن جريج أو جورجيوس » فان فى اسم جده شكا واختلافا ، وان ولادته كانت ببغداد .... أما كيف يعيش ، أو ماذا كان يصنع غير الشعر الذى يقولون أنه كان أقل أدواته ، فلا يدرى أحد ، فليس أمامنا ما نعول عليه سوى شعره » (١٧٤) .

وأغلب الظن أن المازنى أدرك نوعا من التشابه فى الظروف بينه وبين ابن الرومى ، وأن هذا الادراك قد جذبه اليه ، ولفت اهتمامه نحوه ، حتى أنه مضى يكتب عنه رغم تطيره من ذلك أحيانا ، ورغم أنه قد أصابه فى صحبته أذى الشؤم الذى لحق ابن الرومى فى حياته وبعد موته ، ورغم أنه شاهد نفس الظاهرة تحدث لغيره ممن جذبهم ابن الرومى اليه ، يقول المازنى فى ذلك : انه حين كتب عنه بضع مقالات ولم يكد يفرغ من الأولى أو الثانية حتى كسر رجله ما لا يكسر ، وشرح الشيخ شريف (١٧٥) الجزء الأول من ديوانه فأحيل الى المعاش ، وطبع صاحب المكتبة التجارية هذه المختارات من شعره فهيضت ساقه » .

ومع ذلك فقد استمرت عناية المازنى بابن الرومى ، وعاود الكتابة عنه متحديا هذه الأفكار ، رغم استحضاره لها

وتأثره بها ، وتفكهه بها أيضا ، فى قوله « عسانا حين نعود للكلام عليه لا نكون قد دقت عنقنا » (١٧٦) ٠

نقرأ بعض ما كتب المازنى عن ابن الرومى فنحس كأنه يكتب عن نفسه ، بحيث لا نشعر بفرق كبير بين أن يكون الكلام عن أى منهما ، ومن نماذج ذلك ما يقول المازنى « عاش ابن الرومى ما عاش ساخطا على الحياة ، ناقما على العصر وأبنائه ، مضطغنا على الزمن وصروفه ، طافح النفس بالمرارة والألم ، الى حد لم يعرفه أحد من الشعراء المعاصرين ، وشعره الذى قيد فيه كل حالة من حالات نفسه ، وأودعه ما استطاع من التفاتات ذهنه ، حافل بالشواهد على ذلك ، وعذره من هذا التمرد عذر كل حساس مصقول النفس ، مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال ، وليس أقسى من أثر ذلك فى النفس ، ولا أوجع ، ولسنا نحتاج أن نرجع الى عصره بصفة خاصة ، فان الحياة كانت قديما وما زالت الى الساعة ، وستظل الى آخر الزمن ، ان كان له آخر ، خداعا دائما وجهادا متواصلا ، وما نظن الحياة الانسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعى التذمر وما كان المرء ليهتدى الى الشعور بنفسه ولينطق بقوله « أنا » لولا ذلك ، ولولا احساسه الى جانب هذا ، أو قبله ــ بحدود قدرته ، وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة ، ويحدد هذا المجال ، وقد يعين الجهل أو البلادة أو كلاهما على الرضا واشعار النفس الراحة الحيوانية ، فلا يرى المرء فيما يحيط به ، ويضيق عليه الا عدلا مقنعا ، وضرورة لا مهرب منها ، ولا خير فى التبرم بها ، وليس كذلك المثقف الذكى المشاعر الذى كأنما يحس الحياة بأعصابه العادية ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثل هذا لا يسع طوقه أن يغمض عينيه ، وينيم أعصابه ، حتى لا يرى ولا يحس ما فى الدنيا من الظلم والغبن والخلط والفساد والتناقض ، ومهما كانت وجوه الاختلاف ، ومواضع التباين فى عصرنا هذا مثلا وعصر ابن الرومى فان مساوىء الحياة ومتاعبها واحدة ، وما كان سخط ابن الرومى على مظهر عارض أو عيب طارىء ، فنحتاج أن نصف هنا ما كان عليه زمانه ، ولكنه كان على ما لا يخلو منه عصر ولا يبرأ من مثله زمن » (١٧٧) .

ثم أليس هذا هو المازنى بلحمه ودمه ، وتطلعاته الفنية ، وحبه للمثل العليا ، كما توحى به الصورة الرائعة التى عرضها لابن الرومى والتى يقول فيها « كان ابن الرومى يريد أن يحيا حياة فنية ، أى حياة تكون أقرب الى مثله العليا التى كان ينشدها وأخلق بما يفهمه من وظيفة الشاعر ، وأليق بمنزلته كما وقر فى نظره ، فبغى ذلك وعجز عنه ، ولم يظهر به ، وعزه أن يكيف نفسه من مقتضى الظروف والأحوال التى تحيط به ، ومن هنا حفل شعره بذكر نفسه ، واكتظ بالمقابلة بين الرغبة والامكان وبين الأمل والواقع » (١٧٨) .

والواضح أن المازنى تأثر بابن الرومى تأثرا كبيرا ، وتعاطف نحوه ، فقدر ظروفه الاجتماعية على تقديره لموهبته الفنية ، وأشفق عليه من تجاهل المؤرخين له فرد اليه اعتباره ، وكأنما كان على وعد مع صديقه العقاد ليعترفا للشاعر بمكانته ، ويعيداه الى صحيفة الحياة الأدبية علما بارزا ، وكان التشابه بين الرجلين هو نقطة البداية بينهما ، فابن الرومى كان جادا فى حياته على كثرة أضاحيكه ، ولم يكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهوه وعبثه الا صدى لاحساسه بمرارة الحياة ، وهكذا كان المازنى جادا شديد المراس على حد قوله عن نفسه ، ولا حيلة له فى ذلك ، فهو يؤكد أن الجدية طبع أصيل فيه ، ورغما عنه ، مع ما عرف عنه من المرح والدعابة وارسال النكت فى كل موقف .

ويلاحظ القارىء لأدب ابن الرومى وأدب المازنى ، أن كثيرا من الخواطر التى ترد على كل منهما متقاربة الى حد كبير حتى النظرة الى الحياة وسوء الحظ الذى تندرا به وتحدثا عنه كثيرا .

والأبيات التالية لابن الرومى نجد فى كتابة المازنى نظائر لها :

حتام يا سائس الدنيا تؤخرنى
وانني لنظير الصدر لا الكفل

لكل قوم رسوم أنت راسمها
ولست فيهم بذى رسم ولا طلل

لا فى التجار ولا العمال تنصبنى
وانني لقليل المثل والبدل

ونعرف أن ابن الرومى كان كثير التطير يتفاءل أو يتشاءم لمجرد ظواهر عارضة لا صلة لها بمبررات حقيقية لذلك .

وقد يكون ابن الرومى فى هذا التطور ليس وحده بل شاركه فيه كثيرون من معاصريه أمثال « ابن الجهم » وغيره ، وحتى البحترى أحيانا ، ولكن ابن الرومى كان صورة فريدة

للمبالغة فى هذا المجال حتى أصبح الناس هم الآخرون يتشاءمون منه ٠

وقد يكون فى هذا ناقلا مبالغا فى النقل عن بعض الأفكار التى كان لها وجود ما فى بيئته على نحو ما نجد فى بعض البيئات المحدودة فى عصرنا ، ولكن الأمر يبقى فى ذلك معبرا عن مزاج خاص عند ابن الرومى ٠

ولعله كان مزاجا مسرفا فى الحساسية والرهافة ٠ وأعتقد أن المازنى كان فيه شيء من ذلك . وان لم يصل الى مستوى صاحبه ٠ فقد رأيناه يتفاءل بوجه زوجته ، ويتشاءم من وجهه ويسخر منه ٠ وان كان وجهه هنا حالة ثابتة لا تتغير ، كما يمثل جنوحه الى المبالغة فى تصوير بعض صفاته وخصائصه حبا فى جذب الآخرين ٠ وكانت له بعض المواقف أبدى فيها ما يمكن أن يحسب عليه تطيرا ، كتهيبه لبعض الأشخاص لمجرد ظاهرة معينة فى شكلهم أو حديثهم أو احساسه نحو بعض الأماكن لأنها تذكره بما يفزعه ٠٠٠٠ وهكذا ٠

وكلا الصاحبين يستوى فى نظرهما الموت والحياة ، على حد تعبيرهما فى مواقف كثيرة ، وان كان المازنى يبدو أحيانا محبا للحياة ومتعلقا بها ، ولا نعرف أن ابن الرومى كان كارها للحياة عن فلسفة مجردة بل كان هو الآخر محبا للحياة مقبلا عليها يريد أن يحصل على أطايبها ، وأن يكون له منها حظ كبير ولعل هذا صدى لما لقيه من ادبار الحياة عنه وتنكر الآخرين له ، فكان له موقف السخط على تجاهله فيها ممن كان ينتظر منهم الاهتمام ٠

وبنفس الدرجة تقريبا فان كلا منهما ــ رغم ما يمكن أن يكون له من تعلق بالدنيا وكلف بها ، ورغبة فى أن يستقيم

له العيش فيها ــ أبدى استخفافه بها ما دام كل شيء فيها الى زوال ، والنهاية معروفة للجميع ٠

وهذه النظرة الى الحياة فى جوهرها لا تمثل جحودا ، أو نكرانا متعمدا ، أو موقفا عنيدا أمام حقائق الأشياء أو الخالق بل قد تكون انعكاسا لتأثرات دينية مترسبة فى النفس تحت على الزهد وتقلل من شأن الاقبال على الدنيا ، وتأكدت على الزمن بمؤثرات يومية عديدة ، وبشواهد تتراءى كل يوم ٠ والانسان فى نظرهما هو الانسان مهما تعددت الزواجر أمامه لا يخفف من جموحه ، ولا يحد من اسرافه فى الأنانية ٠ وينعكس كل هذا على نفس الشاعرين الأديبين ، ويدخل فى تكوين نظرتهما نحو الحياة ٠

٢ ــ ومن الأعلام الذين تجاوزت أسماؤهم محيط العالم العربى « أبو العلاء المعرى » (٣٦٣ ــ ٤٤٩ هـ) الذى وقف من الحياة موقفا خاصا تفسره قصيدته المشهورة التى يسوى فيها بين مظاهر الحياة والموت :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى اذا قيس بصوت البشير فى كل ناد

والقصيدة تقدم بنفسها ايضاحا للأساس يحكم سخرية المعرى ، وهو نفس الأساس تقريبا الذى وضع البذور الأولى لسخرية المازنى، هذا الأساس هو الاستحضار القوى والنشيط للتناقض بين الوجود والعدم ، أو التقابل بينهما ، سواء كان هذا التقابل يعطى معنى التضاد ، أو التكامل ، أو حتى التعاقب الزمنى ٠

والمعرى يلجأ هنا الى السخرية الهادئة وغير المباشرة ،

حين يطلب من الانسان أن يخفف من عنفه ، ومن خيلائه ، وأن يطامن من غروره ، فلا يضغط على الحياة بثقله ، ولا يكلفها أعباء تجاهله للمصير القريب الماثل أمامه ، والذى لقيه كل من كان قبله ٠

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد

والمعرى شاعر ساخر وأديب ناقد تسرى فى أدبه روح تهكمية ساخرة يتخذها وسيلة لحملاته الشديدة على الظواهر الاجتماعية والانحرافات التى يراها من حوله ، كما يستخدمها فى ابراز آرائه المتطرفة أحيانا لتخفف من أثر هذا التطرف ، وفى نفس الوقت تؤدى عنه ما يريد ٠

ومن الظواهر البارزة فى أسلوبه التناقض الذى أخذه عليه الباحثون وعللوا له بتعليلات كثيرة ، منها حب الظهور والخوف على النفس ، أو التقية ، أو الرغبة الذكية فى اثبات رأيه المعارض للدين فى شكل لا يوقعه تحت طائلة الاتهام الصريح ، على أن هذا التناقض فى رأى البعض يعتبر من فنون السخرية التى برع فيها المعرى ٠

ولقد اهتم المعرى بموضوع الحياة والموت اهتماما كبيرا ، « وخصص لهما وللمجتمع البشرى أكبر جزء من نشاطه وجهوده الأدبية » (١٧٩) ٠ وكذلك كان المازنى ، فان قضية الحياة والموت شغلت من نفسه حيزا كبيرا ، وأثرت فى تفكيره وحفل بها معظم انتاجه النثرى والشعرى ٠

وهناك بعض أوجه الشبه بين أبى العلاء المعرى ، وعمر الخيام ، ولم يكن التشابه بينهما فى الرأى فقط ، بل شمل مزاجهما وسلوكهما فى الحياة من بعض جوانبه وقد كان كل

منهما مضطرب المزاج ، ضيق الصدر ، متبرما بالحياة ، منعزلا عن الناس زاهدا فيما فى أيديهم ، مستخفا بعقائدهم مستهزئا بهم ، ساخرا منهم ... (١٨٠) .

وكانت هناك عوامل فنية ساعدت على هذا التشابه بين الرجلين ترجع فى بعض مظاهرها الى الاضطرابات والفتن التى سادت البلاد فى عهد كل منهما .

فلقد كان عصر المعرى مليئا بالخلافات السياسية واضطراب الدولة وتمزقها ، وبالفتن تملأ شرقها وغربها ، دويلات تتطاحن وتتصارع ، وعداءات ومؤامرات فى كل مكان ، وكان المعرى ينظر الى هذه التناقضات القائمة فى حيرة ، ولعلها كانت من أسباب مايبدو فى آثاره من تناقض .

وكان الخيام فى عهد الدولة السلجوقية التى قضت على الدولة الغزنوية بحد السيف وقامت طائفة الاسماعيلية (الحشاشين) على يد حسن صباح زميل الخيام فى المدرسة والتى أشاعت الرعب والفزع فى قلوب الناس وفى أنحاء البلاد كلها ، وكثرت اعتداءاتها على الكبير والصغير .

ورغم ذلك فقد كانت الحياة الأدبية والعقلية فى عهديهما نشيطة ، تأخذ بأسباب الازدهار ، وكأنها تعبر عن نهضة فكرية انسانية لا تتأثر بالاضطرابات السياسية والاجتماعية الا لكى تفيد منها .

وعاش المازنى فى فترة من حياة مصر ، مليئة بالصراعات السياسية والاجتماعية ذات الأصداء العالمية ــ كما سبق أن أوضحنا ــ وفى نفس الوقت فقد عاصر أو اشترك فى قيادة حركة أدبية نشطة ، وكانت دوافع النهضة العلمية

والفكرية موجودة فى كل مكان ولدى الأفراد والمؤسسات والبلاد تتميز بما يمكن وصفه بأنه حركة انتقال كبيرة فى ميدان الثقافة والعلم ٠

ولعل ما عاناه المازنى بصفة شخصية هو من نوع ما عانى كل من المعرى والخيام ٠ لذلك فانا نرى أنه لا يقل عنهما تبرما بالحياة وسخطا عليها ، ولا تبرما بالناس ولوما لهم يصل أحيانا الى حد الحملات عليهم ، كما لا يقل عنهما كذلك حبا للحياة وللناس ٠

فالمعرى لم يزهد فى الحياة على كره لها وبغض فيها ، بل انه كان يحبها ويشكو من وقوعه تحت أسر هذا الحب ، « ولم يكف عن الشكوى مما رسخ فى نفسه من حبها ، والأنين مما ذلل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة وحاجاته الغريزية المقهورة » (١٨١) ٠

ويقول المعرى فى « الفصول والغايات » : « أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلتك الحالية ، والنفس منك غير سالية » « بى طب ــ داء ــ فأين أستطيع ، وأنا تحت حب الدنيا ــ رازح ــ أثقلنى فأنا مكب « أحب الدنيا كأنها تحبنى والغريزة عن الرشد تذبنى» (١٨٢) ٠

ونعرف عن الخيام حبه الشديد للدنيا ، واقباله على أن يأخذ منها كل ما تسمح به اللحظة من متعة ، ما دامت اللحظة فى طريقها الى الفناء ، وهو صاحب النظرة الحاضرة الى الحياة دون تحسر على ما فات ، ودون استغراق فى المستقبل حتى لا يفسد أى من ذلك جمال الساعة التى نحن فيها ، وقد يكون الاستخفاف بالدنيا بعد ذلك مظهرا للشعور الحاد بفراغ المتعة

وزوالها ، ونتيجة للحيرة الشديدة التى منى بها أمام أحداث الوجود والعدم ، والتناقض الشديد بينها ، والرد الصامت العاجز على التساؤلات الحائرة عن سر الوجود وسر العدم ، وموقف الانسان منها . ودوره فى البداية أو النهاية وعلة ذلك كله ·

ورغم وجود المازنى فى دائرة هذين العملاقين الكبيرين فانه لم يصل الى درجة التطرف الذى جنح اليه كل منهما سواء كان ذلك فى الموقف المتحرر المسرف فى التحرر ، أمام الحياة وأمام كل شىء فى الوجود ، أو فى حالة الانعزال التام ، والهروب المطلق أو الانطلاق فى الرأى والنقد بغير حدود ··· ولهذا نجا المازنى من أن يكون هدفا لاتهامات شديدة على النحو الذى تعرض له صاحباه · ولعله لو كان قد تناول بعض الأفكار التى ركز عليها المعرى والخيام ، وجهر بها رغم المعارضات الخطيرة التى شبت حولها لنال من أذى الساخطين عليه أضعاف ما نجد فى كتابته من أصداء له ·

تأثر المعرى للأحداث السائدة فى عصره وسخر من الفساد الذى شمل أخلاق الناس وضمائرهم :

ما فيهم بر ولا ناسك
الا الى نقع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة
لاتظلم الناس ولاتكذب (١٨٣)

وسخر من الخمر ولعبها بالعقول ، ومن الاسراف فى شربها على حساب احترام العقل والضمير ، وتهكم بالجرى وراء

الشهوات والاغراق فى الجنس ، وتعـدد الزوجات • الذى يعتبره نوعا من الغلو فى ارضاء الجسد •

واستنكر بعض الظواهر والمعتقدات التى كانت سائدة فى المجتمع ، منها ما يرتبط بأفكار ساذجة كالتطير الذى شاع عن بعض الناس ، دون أن يستند الى حقائق من العلم أو الدين ، ومنها ما يمس نعرة التفرقة العنصرية التى يميل اليها بعض الأفراد من رسميين أو شعبيين • فلا يرضى عن تفرقة الجنس أو اللون أو الدين ، وقد جعله هذا يتطرف تطرفا أخذ عليه وأساء الى سمعته ، ولون آراءه بألوان لا ترضى الخاصة ، وفى نفس الوقت لا تعجب العامة •

ولعل من مظاهر التطرف أنه يعتبر الأديان عوامل تفرقة فى المجتمع الانسانى ، وافترض أن الحياة لو لم تتعرض لهذا التعدد فى الديانات لما كانت هناك عداوات أو محن أو أحقاد ، واذا لم ترضنا منه هـذه النظرة ، ولم يقبلها منه الفـكر الاسلامى بوجه عام ، فان هذا لا يمحو أن موقفه من التفرقة بين بنى البشر يعتبر موقفا انسانيا عظيما ، فى هذه الفترة المتقدمة من التطور الانسانى •

وقد يصطدم هـذا بما عرف عنه من تحفظ فى قضـية اختلاط الأجانب بالعرب اذ كان ضد هذا الاختلاط ، لا يؤيده ، ولا يرى التمادى فيه ، بل يدعو الى الحد منه ، لأن فيه خطرا على اللغة العربية ، وافسادا للمجتمع العربى ، وربما كان هذا نوعا من التعصب المحدود المتمثل فى الحرص على سلامة اللغة من اللحن ومن الدخيل وحفظ المجتمع من أخلاقيات أو تقاليد قد تفسد فطرته ، وتسوء نقاوته •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الممكن ألا يصاحب ذلك أى استعلاء جنسى أو لونى، ولا يتسم بأى سمات شعوبية .

ومنها ما يتعلق ببعض المعتقدات الشائعة عند العامة ، والتى تؤخذ أحيانا على أنهـا من الدين ، كالايمان بطيران بعض الأولياء ، أو مشيهم فوق سطح الماء .

وقد حمـل المعرى حملة شـديدة على الشعوذة باسـم التصـوف ، وادعاء معرفة الغيب والدروشـة ، ما يمكن أن نطلق عليه التسول الصوفى ان صح هذا الاطلاق ، كما سخر من تجرؤ بعض المتصـوفة على الدين ، واتيانهم المنكرات ، واسرافهم فى ارتكاب الاثم والمعاصى . وكذلك من اسراف البعض فى التضرعات وادعاء الفناء الروحى .

وسخط المعرى على المقلدين الذين لا رأى لهم ولا ابتكار ، لأنهم لا يعرفون قيمة العقل ولا يهتدون به ، والعقل عنـده هو السـيد وهـو الرائد الى الفضيلة ، والموجـه الحقيقى للانسان :

ولا تقـولن اذا ماجئت مخزية
قول الغواة ، على هذا مضى السلف

اذا كان المعرى والمازنى يتشابهان فى أن كلا منهما سخط على الحياة ، وتبرم بها ، وليس ذلك عن كراهية لها ، ولكن عن نقد لما فيها من نقص ، ومن تناقضات عانيا منها الكثير .

واذا كانت التجـارب التى مـر بها كل من الرجلين قد أسهمت فى جعله سريع الادراك للمواقف ، شديد الحساسية لها بما فيها من ضغط على أعصابه وأفكاره .

واذا كانت بعض العادات والظواهر السائدة فى المجتمع

لم تجد قبولا ولا تسليما عندهما . اذا كان الأمر على ماذكرنا، فليس معنى هذا أن الشبه تام من جميع الوجوه فان المازنى لم يتماد فى تصعيد موقفه من الحياة الى حد التفلسف ، واتخاذ مذهب خاص ، كما فعل المعرى ٠

لم يتحول المازنى الى فيلسوف ، ولم يقنن له مبادىء صلبة شديدة ، يدور حولها ويروج لها ، ويدعو الى التمسك بها . ولكنه اتخذ جانبا عمليا كما يراه ٠٠٠ عبر وسخط وسخر ، وترك لنا من كل ذلك أدبا رفيعا ، وأسلوبا عذبا محببا بعيدا عن الجفاف . لا تصدنا فيه الآراء الجامدة ، ولا تثقل على القارىء ، ولا تجهده فى الفهم أو ادراك الانطباع ، بل ان الروح الساخرة التى تسرى فى أدبه تشد الانتباه ، وتجذب الاحساس ، وتنقل نفسها الى القارىء فى خفة وطلاوة ، أو تنقله اليها فى يسر ودعة . يختلط الاقبال على ما فيها من أفكار مثيرة ، وحقائق طريفة ، بالرغبة فى السكن اليها والتسلى معها ، والترفيه بها عن النفس ، والتوسل بها للتخفف من الأعباء الثقال ٠

ومع أنها تؤتى ثمارها ، وتحقق الغاية منها ، فانها لا تترك القارىء مزدحما بقضايا أو مشكلات تؤرقه أو تلح عليه ، وان كانت البصمات التى تطبعها على نفسه ، أقوى أثرا ، وأبعد مدى من هموم الانشغال ٠

لقد شغل المعرى نفسه ، وشغل الدنيا من حوله ، وتشعبت مناطق تفكيره ، كما تشعب هو ، وزاد اهتمام الناس بأمره ، فى زمانه ، وبعد زمانه ، وصار حديث الباحثين والعلماء ، لأنه ألزم نفسه بحياة لها طابع خاص ، واعتزل مجتمع الناس ، ليتفرغ لنقدهم ونقد حياتهم ومعتقداتهم ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن المازنى لم يعتزل المجتمع ، ولم يترك الحياة ، فكان على صلة بتفاصيلها اليومية وله احتكاك مباشر بالصراعات الاجتماعية ، والأدبية الدائرة فيها ، ولهذا كان اهتمامه بالأمور الجارية ، والظواهر التى يراها كل يوم ربما أكثر من اهتمامه بالأمور الثابتة والقواعد الأساسية ، ولهذا لم يشغل كثيرا بالمذاهب ولا الديانات ، ولا معتقدات الناس الراسخة ٠

كان أبو العلاء قاسيا على نفسه ، أخذها بمبادىء والتزامات فيها كثير من الشدة والعنف ، والقهر ، وكان مصرا على ذلك فدعا الى أن يقسو الناس على أنفسهم ، ويتشددوا معها ، ولكنه فى نفس الوقت دعا الى اتخاذ هذا التشدد مع النفس طريقا للعطف على الغير ، أو مقابلا له ، ولا أدرى لماذا قصد هذا التلازم بين الحالتين ؟ لعله رأى أن يفرغ الانسان كل قسوته على نفسه ، ليتفرغ عطفه على الآخرين ٠ وهو يعلم أن لدى الانسان استعدادا لكل من هاتين العاطفتين ، وأنه لابد مغلب احداهما على الأخرى ، فليكن تغليب القسوة فى جانب النفس ، وتغليب العطف فى جانب الغير ٠

ومن ناحية أخرى فان هذا المنهج الصارم مع النفس لا يترك للانسان مجالا للفكاهة معها ، واذا سخر منها فليكن فى اطار المنهج نفسه وفى حدود العمل على الزامها به ، وايقافها فى منتصف الطريق أو بدايته حتى تزهد فى رغباتها ، وتخفف من أمانيها ، وتحد من تطلعاتها حتى الى ما هو ضرورى أحيانا ٠

وقد يلتقى ذلك فى بعض صوره مع المازنى رغم أنه كان

بسيطا فى نفسه ، لم يحاول أن يفرض عليها منهجا معينا ، بل انه كان على العكس من ذلك مرنا معها شأنه فى مرونته مع الحياة ، ومع الظواهر الانسانية على قدر ما كان يحتمل ، وعلى قدر ما كان يمكن تطويع هذه الظواهر للنقد ، واحتمالات الاصلاح ، ورغم كثير من تجاربه مع الناس ومع الأصدقاء منهم ، ورغم ما كان يشعر به من التناقض بينه وبينهم أو بين موقفه منهم وموقفهم منه ، فانه لم يحاول أن يضع نفسه فى موضع شاذ ، رغم شخصيته الفريدة وطبعه المنفرد ، ولم يجسم حوله هالة خاصة تضعه فى دائرة الشذوذ ومجافاة الواقع ، فظل طبيعيا ، وظلت سخريته طبيعية قريبة التناول ، مؤثرة ، لا هى متعالية ، ولا هى مسرفة فى الدنو ، ايجابية المنزع ، لا يشعر بغربة أو انفصال أو عزلة نفسية •

هذه السمات الخاصة لكل من المعرى والمازنى تشكل البعد الواضح بينهما رغم أن كلا منهما كان يتناول كثيرا من أمور الحياة بنظرة ساخرة •

قد يتشابهان فى بعض الظروف أو بعض التفاصيل ، ولكن يبقى الاختلاف بينهما كبيرا ، لأن أحدهما المعرى الفيلسوف الساخر ، والآخر المازنى الساخر الأديب •

هكذا نرى أن المازنى يقف مع الساخرين فى الشرق والغرب ، عبقريا مع العباقرة ، يشترك معهم فى الطابع العام ، وروح النقد الساخر ، وقد يكون له تأثرات بهم ، وبأساليبهم ، ولكنه يبقى دائما المازنى الأديب المصرى الساخر ، الذى يملك من عذوبة الروح والجدية المغلفة باللامبالاة ، والقدرة العجيبة على أن يشد الناس اليه فيضحكوا معه ، ويحسوا باحساسه ، والقدرة على أن يسخر

من شخصه ، فيتخلص من عقدته ، أو يوحى الى الآخرين أنه متعال عليها بالفعل ، وأنه يملك فى كل الظروف أسلوبا متعاليا على المحن يكشف عن طبيعة نفسه ، ويترجم عن روحه، ورغم ذلك فانه يشيع جوا من المرح والسعادة بين أصدقائه ولدى قارئيه .

وهو مع ذلك يملك القدرة أيضا على أن يخضع الظواهر، السياسية والاجتماعية لنفس الأسلوب الساخر الذى أخضع نفسه له ، فيعطى عن هذا الطريق من الآراء ما يكشف الصورة ، ويركز عليها الأضواء ، ويكون حولها موقفا معينا قابلا لاتخاذ السبيل نحو الاصلاح وذلك فى انتاج بديع ، وعبارة رائعة تجملها روح الكاتب ، وبراعته الشخصية الى جانب موضوعية التناول التى لا تخفى على القارىء .

والمازنى يمتاز بخاصية أدبية رفيعة هى طواعية قلمه له ، وقدرته على أن يلون كتابته على النحو الذى يشاء ، فيرسم صورا ساخرة ، تعتمد على الفكاهة والاضحاك ، أو تختلط بالأسى والمرارة ، صورا تحمل معنى التفاؤل ، وتثير المرح ، وأخرى قادرة على أن تنقلنا الى أجواء أخرى باهتة لاتخلو من شحوب ، صورا حلوة وصورا مرة ، يبقى معها فى الحالتين أسلوب المازنى كما هو ، قويا ، مؤثرا ، لماحا ، يمتع القارىء ويسعده ، ويخاطب عقله وروحه .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

نظرة إلى شعر المازني



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نظرة الى شعر المازنى

كانت جولتنا فى الفصول السابقة مع سخرية المازنى فى كتبه ومقالاته ، أى فى نثره • والآن نلقى نظرة على شعره ، لعلنا بذلك نكمل ما بدأناه ، ويكون لنا فى نهاية الطواف صورة عن أديبنا الشاعر الساخر •

وبين أيدينا ديوان المازنى بأجزائه الثلاثة وهو ديوان محدود الحجم يدل على أن المازنى كان شاعرا مقلا بالنسبة الى انتاجه النثرى •

واذا كان نثره متنوعا واسع الأغراض غزيرا نسبيا فان شعره يكاد يكون كله من جو واحد تقريبا • تعطى قصائده نفس الانطباع ، ولاتختلف كثيرا بعضها عن بعض فى المنهج والروح • وهذه ظاهرة تحسب للشاعر لا عليه ، تشير الى صدقه النفسى فى شعره ، والى أن هذا الشعر قطعة من نفس قائله •

ولأول وهلة ، ومن غير معاناة ، نشعر أننا أمام شاعر، يغلب عليه التشاؤم وينطوى على نفس قلقة ، وينظر الى الحياة نظرة من يرى خيرها قليلا وشرها أكثر •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ــ فكثير من قصائد الديوان تتحدث عن الموت والخراب والذبول الذى يلحق كل شىء • والظلمة التى تغلف موطن نظر الشاعر من حياته •

ومجرد قراءة العناوين ينقل الاحساس بهذه الظاهرة البارزة • فمثلا «الدار المهجورة» «فتى فى سباق الموت» ، «الجمال اذا هوى» ، «أحلام الموتى» ، «ليلة وداع» ، «الوردة الذابلة» ، «بعد الموت» ، «قبر الشعر» ، الملل من الحياة» ، «أشباح الماضى على جثة الأمس» ، «الشاعر المحتضر» ، «عزاء الشعراء» ، «الموت ثمرة الحياة» ، «العقل والموت» ، «الميت الحى» ، «خواطر فى الموت» • «زهرة الشر» ، «الأزاهر الميتة» •

٢ ــ ومن عناوين القصائد أيضا ندرك حساسية الشاعر نحو المتناقضات الحادة ، فنجد حديثا متكررا عن الماضى ، و «ثورة النفس» ، و «الوداع والذكرى» و «الصدق فى الكذب» و «العاشق المعشوق» و «الانسان والغرور» و «زهوة الشر» و «الأسافل والأعالى» و «زهرة الصخر» و «أكليل الشوك» و «وحشة الحياة» و «عالم الكرى وعالم اليقظة» و «العقل والموت» و «الليل والهم» ، و «النسر المهيض» و «الحمار المستأسد» و «ليلة وصباح» و «الدهر والحياة» •

وليس من الصعب أن نرى فى هذه الحساسية المفرطة بالمتناقضات ، وبالظروف الصعبة التى عاشها الشاعر ما يفسر لنا روح التشاؤم التى طبعت شعره وتخللته كله تقريبا •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسخرية فى جوهرها ، بالنسبة للمازنى خاصة ، صدى لهذا التشاؤم وتعبير عنه ، واذا كان طابعها فى نثره يميل أكثر الى الفكاهة كتعبير عكسى عن التشاؤم ، فانها فى شعره لاتلجأ الى هذا الاسلوب المرح ، وتظهر سافرة بما فيها من قلق وحزن •

ولعل هذا هو ماجعل العقاد يصف شعر المازنى بأنه «شعر الضجر والاستياء» (١٨٤) لأنه شعر صريح فى تعبيره على نفس صاحبه وما يثقلها من أحزان ، وما تنفعل به ازاء الزمن والأحداث •

والواقع أن أسلوب المازنى فى شعره يختلف عن أسلوبه فى نثره ، ويمكن أن نجد فى شعره كثيرا من التفسيرات لما فى نثره من ظواهر •

شعر المازنى يعبر عن نفسه فى صراحة وينقل مشاعره نقلا حقيقيا ، أشبه بالترجمة عن العواطف والانفعالات وما وراءها من مؤثرات • أما نثره فهو أشبه بالعرض الواعى المنظم لهذه العواطف والانفعالات بعد دخولها المنطقة العاقلة الواعية فى الشاعر •

ولذلك يمكننا أن نقول : ان نثره مرحلة تالية لشعره ، وذلك بالنظر الى التجارب النفسية والظروف التى مر بها فى حياته •

ولست أقصد هنا الترتيب الزمنى وانما أقصد ترتيب التعبير عن العواطف والمؤثرات النفسية وأصداء التجارب فأن الشعر قد التقى بها وهى مازالت حادة وعنيفة فصورها فى حدتها وعنفها أو هى التى فرضت عليه جوها الخاص ، بينما تلقتها مقالات الكاتب وقصصه بعد أن اكتمل وعيه لها وعاشت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معه زمنا ، وأصبح لها دور فى توجيه أفكاره أو أصبح لأفكاره دور معها ، فاستطاع بذلك أن يعبر عنها بأساليب غير مباشرة، وأحيانا بأسلوب معاكس لها تماما .

ان البواعث الحادة للسخرية فى أدب المازنى ، والتى تميز هذا الأدب ، نجدها واضحة تماما فى شعره ، لايصعب علينا أن نضع أيدينا عليها ، ليس هذا فحسب ، ولكن يمكننا أيضا أن نحسها بقوة ، الى درجة الانفعال بها والتعاطف الحار مع الشاعر الذى قضى حياته واقعا تحت تأثيرها الشديد

فى كل قصيدة من ديوانه ، بل فى كل بيت أو أبيات قلائل نحس الشاعر ، وحياته النفسية ، والجو الذى عاش فيه . ونظرته الى الحياة ، وانطباعاته نحو الانسانية عموما ، ونحو الأصدقاء بصفة خاصة .

وتفسر لنا مواقفه من الناس ومن الحياة ومن قضايا المجتمع والانسان هذه الخصائص المميزة وتهدينا الى التعرف على نفس الشاعر وروحه ، وعلى البذور الأولى لأسلوبه الساخر وهى فى نفس الوقت الخصائص النفسية والروحية لشعره ، ويحسن أن نعرض لهذه المواقف بشيء من التفصيل .

١ ــ موقفه من الأصدقاء :

كان المازنى ــ رغم انطوائيته ــ محبا للصداقة والأصدقاء، يقدر لحظات الصفو بينه وبين من يحب ، وهذا النوع من الناس يحزنه تقلب أصدقائه ، ويؤلمه أن يأتى له الغد بما يصدمه فى صديق الأمس .

اذا كان هذا الانسان حساسا ، فان شعوره بالصدمة

سيكون أشد ، سيتألم أكثر عندما يلمح بوادر التنكر والجفاء، وسيتحول شعره الى نفثات صدر متألم ، سيشكو وينقل شكواه الى كل شيء • سيعبث به الحزن حتى يرى الحياة كلها صدى لأحزانه •

والواقع أننا بقدر مانجد فى شعره من قصص الصداقة والحب لايخلو من ألم وشكوى وحزن ، حتى يظن قارىء شعره أن كل أصدقائه تنكروا له وأن نصيبه من أحبابه كان دائما الجفاء •

فى قصيدته « الاخوان » نحس حزنه الشديد على أصدقائه ، ولوعته لفقدهم ، وندرك مدى حساسيته للصداقة وتقديره للود الذى أصبح يفتقده • رغم أنه فى علاقته مع الاصدقاء سمح كريم لاينطوى الا على الاخلاص والوفاء ، حتى مع كثير من هؤلاء الذين لايحفظون العهد ولا يصونون الوداد •

لذلك فان القارىء يشعر دائما أن الشاعر مع أصدقائه مازال يعيش فى اطار من التناقضات التى طلع عليها فى حياته وأشرف منها على التجربة ، فهو لايتكلم عن الاصدقاء الا ويستعرض أمام نفسه وأمامهم تنكرهم لصداقته ، وظلمهم له • ومن خلال هذا الحديث نحس خيبة الأمل وسوء الحظ وهول الصدمات التى تلقاها ممن كان ينتظر منهم البقاء على العهد :

وصلت بحبلهم حبلى فلما
نأوا عنى قطعت حبال ودى
صفوت له على العلات دهرا
فرنق بالسفاهة ماء وردى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غـــرورا كان ما وعـــــدت ظنــــونى
وأشقى الناس مغــرور بوعد (١٨٥)

وندرك شدة تأثره حينما نراه يشكو تنكر الأصدقاء فى كل مناسبة تجمعه بصديق ، حتى تلك المناسبات التى لاتحتمل الا الترحيب والتكريم ومن آمثلة ذلك اســتقباله لصــديقه عبد الرحمن شكرى وكان عــائدا من سفر ، فقــد استقبله بقصيدة عنوانها «استقبال صديق» والعنوان كما يبدو صريح فى الغرض منه ، وفى بيان الموضوع ، والافكار التى يمكن أن تعالجها القصيدة ، والعواطف التى تتسع لها ، ولكن بدلا من الترحيب ، والتحيات ، وذكر الأشواق ، والتهنئة بسلامة العودة ، والتعبير عن عواطف الحزن للبعد أو الفرح باللقاء ، نجد القصيدة كلها تدور حول جفــاء الاصــدقاء ، وقلة من يصدق الوداد منهم ، وقد لايتردد الانســان فى أن يحكم على الشاعر بأنه فى الواقع يقصد أشخاصا معينين ، وصفات معينة فيهــم ويتمثل رأى العــين أو رأى القلب مــواقفهم معــه ، ومشاعرهم نحــوه ، ولا يتكلم من فــراغ ، أو يتحــدث عن عموميات ، انما هى تجارب خاصة عانى منها الشاعر ، وتأثر بها تأثرا شديدا ، وقد نأخذ عليه أنه كان صريحا فى الوصف وقاسيا فى ذكر النماذج ، وقد يتصور البعض أنه يقصد بذلك نفس الصديق العائد ، والذى يتــوجه اليه بالشــعر • وقد يتأكد هذا التصور اذا عرف فيما بعد أن الصديقين لم يدوما على الود ، ولم يبقيا على خط الصداقة الذى عاشا عليه فترة طويلة من حياتهما •

الأصدقاء فى هذه القصيدة من النوع الذى يأخذ ولا يعطى ، ويعيش على الانتفاع من صديقه ، ثم لايتورع أن يبتعد عنه ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يرى صاحبه منه بعد ذلك الا الجفاف • ولعله اختار الجفاف بدلا من الجفاء ليصور درجة التحول ، وانعكاس الصورة ويوحى بالمعنى العدوانى الذى قد لايعنيه الجفاء والقطيعة • وقد يعطى الجفاف كذلك دلالة البخل والمنع اذا آثرنا جانب اللين فى فهم الكلمة والوقوف بها عند مشارف التخلى والخصام •

وكان الشاعر ينتظر من أصدقائه أن يظلوا على عهدهم معه ، وأن يكونوا منه كما كان هو منهم ، لايمنعوا عنه اليد التى سبق أن مدها اليهم بوفاء وحب ، ولما لم يتحقق له ماأراد، أو ماكان يظن ، أو يمكن أن نقول : انه عندما أدرك الشاعر أن موقف أصدقائه ليس هو الموقف الذى كان فى موضع الأمل منه ، أو هو الموقف الذى يصطدم مع الثقة والتطلع لم يحتمل الصمت • ولم يحتمل أن يشير دون أن يتهم فمضى يصف الأصدقاء كما أصبحت صورتهم فى خياله وكما فهم من مواقفهم المختلفة ، فهم فى نظره متقلبون نفعيون ، يلعبون بعواطفهم حسب مقياس مصالحهم الذاتية ، ولايهمهم بعد ذلك أن يسيئوا الى الصديق الذى أحسن اليهم ويحرموه بعد أن أعطاهم ، يلينون له الجانب مادام يملك القدرة على العطاء ، ويظهرون الود بقدر مايدركون أن الصديق مصدر خصب وارتواء ، فاذا ما أحسوا أنهم أخذوا ماكانوا يريدون ، ولم تعد لهم حاجة ينتظرونها ، تغيرت أرواحهم ، ونضب معين الوفاء عندهم ، وان كان فى الاصل ضحلا ، فلايستطيعون أن يحتفظوا حتى ببقايا وفاء لا غناء فيها ، وتصوير لذلك يركزه الشاعر فى قوله :

أعطشنى الناس بعد أن (رويوا)
من مستهل الوفاء منسكبه

جفـوا كمـا جفت الحيـــاة فمـــا
أعرف من عودهم سوى حطبه (١٨٦)

ويتعرض الشاعر لعتاب الأصـدقاء ، ويعنى هـذا أن للاصدقاء أحيانا رأيا فيه ، أو أنهم لايسلمون دائما له بأنه صاحب الحق • ولكنه فى رده على العتاب ، لايعترف بذنب ، ولايعتذر عن خطأ ، وحتى اذا كان منه شيء من ذلك ، فحجته أنه لم يبدأ بقطيعة ، ولا يد له فى جفـاء ، وليست خيـانة أصدقائه من طبعه وهو لم ينس هوى أحبابه ، ولم يفرط فى ودهم ، لذلك نراه قوى الثقة فى موقفـه منهم ، فيقـول لمن يعاتبه : لا تعاتبنى وعاتب القدر ، فالمسـئولية عليك فيمـا حدث ، وليس الأمر ماجنت يدى عليك ، ولكن الأمـر هـو مايضمره قلبك الذى بين جنبيك :

ليس برج الهمـوم ما رحت تبـديه
ولكن ما بـات فيـك دفينـا (١٨٧)

ونلاحظ أن الشاعر أخذ يتطور فى موقفه مع أصحابه ، فمن الحزن على ما أصابه منهم ، الى الاستعداد لمبادلتهم جفاء بجفاء ، الى أن يناقش نفسه فى أمرهم فيرى أن الحفـاظ على ودهم تكلف ورياء بعد أن تنكروا له وغدروا به ، حتى الثقة فيهم أصبحت فى نظـره ذنبا لايجب أن يرتكبه ، وقصـيدته «السلو» (١٨٨) تصور هـذا الموقف ، وقد لاذ الشـاعر الى الصـبر والاحتمال تارة ، والى الكرامة والاباء يواجـه بهما صدود أحبابه تارة أخرى ، وانه ليحس أن فى نفسه من العزة مايمنعه من التهـالك على صـديق يعبس فى وجهـه عنـد اللقاء •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو أن بعض الاصدقاء قد تجاوز كل حد يساعد الشاعر على أن يظل فى موقف الصديق المسالم ، الذى يبقى على الود ولا يجهر بالعداء ، أو حتى الذى يقابل الجفاء بمثله ، والقطيعة بأشد منها خصاما وبعدا ، على أن يظل الأمر فى حدود الصمت ، أو شكوى الشاعر المحب ، أو عتاب الصديق المرهف أو المعتز بنفسه ٠

لذلك نجد الشاعر مع بعض أصدقائه قد خرج على كل الاعتبارات التى يراعيها الاصدقاء فى مراحل صداقاتهم وظروفها ، فنجده يفحش فى سباب صديق ويتهكم به تهكما صريحا ماكان ينبغى أن يترك نفسه لتصل اليه ٠ حتى أنه يقول فيه :

أنت كالذئب خدن عذر ولؤم
ليس للذئب فى الورى من وفاء

ماراًيناك بالاخاء خليقا
ورأيناك أهل هذا الجفاء

وعلى الرغم من أن الشاعر يتذكر فى قصيدته أن هذا الموقف لايناسبه ، ويترفع صراحة عن الهجاء ، الا أنه يقع فى أشد منه عنفا فلايصبح تركه للهجاء ترفعا عن الهجاء ولكن ضنا بهذا الهجاء أن يكون فيه مدح أو اطراء :

قد تكلفت أن أعارض طبعى وأجاريك مرة فى الهجاء
فرأيت الكريم يعجز عنه عجز برد الشتاء عن ادفاء
ورأيت الهجاء يرفع منكم ان ذم الوضيع كالاطراء

ومع ذلك فان الشاعر لم يكف عن الذم ولم يترفع عن الهجاء ٠ بل تمادى وتمادى حتى أن القارىء ليعجب !! كيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصل الأمر به الى هذا الحد ، ولابد أنه كان هناك من المبررات ماجعل الشاعر يتهاوى فى ذمه الى الدرجة التى تفوق بها على موقف من خانوا وده ، ولعل الامر ـ وهذا هو أقرب الاحتمالات ـ يتعلق بهذا النوع من الاصدقاء الذى ينقلب على صديقه الى حد العداء ، والحرب ، والكيد ارضاء للحقد الذى أصبح يأكل قلبه ، فاذا كل أعماله لأصدقائه مشبعة بالكراهية ولاتصدر الا عن الأعداء ٠

هذا النوع من الهجاء ، أو ذم ، الاصدقاء ، أو لنقل الأعداء ـ كما نريد أن نفهم ، أو كما آل اليه حالهم ـ يعتبر صورة من صور السخرية فى أسلوب مباشر وصريح ، لأن هذه الصراحة ـ شأنها شأن الرمز ـ تعنى أن فى النفس شيئا أكبر وأعمق ، وأنها بشكلها الذى ظهرت به لون من ألوان التعبير أدى عن الشاعر بعض ما به ، ولكن أصل الفكرة مازال موجودا فى النفس ٠

يقول الشاعر مصورا صديقه الغادر :

عاجز الرأى والمروءة والنفس
ضئيل الآمال والأهواء

ألف الذل فاستنام اليه
وتباهى به على الشرفاء

ينسج الزور والأباطيل نسجا
والأكاذيب ملجأ الضعفاء

لو تراه بالليل يخطر عجبا
فى مسوح الفرنجة السوداء

قلت قرد من آل « درون » ناش
أخذت منه سورة الصهباء

مستميت الى المكاسب والربح
دنىء الاسفاف والكبرياء

فاسق يظهر العفاف ويخفى
تحته الخزى ياله من مراء

مظلم الحس والبصيرة كالتمثال
خلو من الحجا والذكاء

قد زهاه الشموخ فاختال تيها
ولوى شدقه على الخلصاء

وعدا طوره فأركبه الجهل
جموحا ألقته فى عوصاء

فغدا كالحمار أوهمه الشيطان
آمرا فصاح فى خيلاء

والواضح لنا أن موقف الاصدقاء منه أسهم فى تكوين روح السخرية عنده ، لأنه فى كل يوم يطلع منهم على جديد يخالف ماكان ينتظره منهم ، ويناقض مايصنعه معهم ، فيقابلون اخلاصه بالتنكر ، وحفاظه على الود بالجفاء ، يحزن لما يصيبه منهم ، فيزداد غدرهم به ، فما يلبث أمام ذلك الا أن يرى نفسه وقد تدرب على هذا الاسلوب من الاصدقاء فاذا حزنه ينقلب الى موقف الند للند ، واذا بكاؤه الذى كان يغلبه عندما يشتد به الحزن ويأخذ عليه كل فكره يتحول الى روح ساخرة تحتقر الناس وتسخر مما يصنعون :

كنت لا أملك الدموع فقد
صرت ألاقى النوى بالاستهزاء

لقد أفسد غدر الاصدقاء ما طبع عليه الشاعر من حب

لهم ، وأضاع ثقته فيهم فلم يعد يرغب فى رؤيتهم ولا فى أن يعودوا معه الى سيرتهم الاولى ، لانهم لم يتركوا له غير تجارب الغدر والخيانة ، بل انهم أصبحوا مصدر ازعاج له حتى بعد موته فلا يحق لهم أن يزوروا قبره أو يذرفوا عليه الدموع :

لا تـــزر ان قضيت قبرى ولا
تبك عليه كسائر الاصحاب
خل عنك الوفاء واسمع لداعى
الغدر فينا فلات حين وفاء (١٩٠)

ويبدو أن الشاعر فى حبه لم يكن أسعد حالا منه فى صداقته ، فكثيرا ما خدعه حبه ، وكثيرا ماتعذب بجفاء أحبابه ، شأنهم فى ذلك شأن أصدقائه وان اختلفت درجة الجفاء ونوعيته وحدته ودواعيه •

ولا أدرى هل يرجع ذلك الى حساسية فى الشاعر نحو الآخرين ؟ هل كان يحمل الأمور فوق ماتحتمل حتى أنه خسر أصدقاءه ، وأحبابه قبل الأوان ؟

ربما كانت له مواقف مع الاصدقاء ممن يحقدون على أصدقائهم حين يرون معالم النبوغ تنشر الاضواء حولهم ، وهذا صحيح الى حد ما •

وربما كان موقفه مع أحبابه على النقيض من ذلك ، فهل كان شاعرنا ممن يستهوى الفتيات وينال حبهن ويجذبهن الى دنياه الخاصة ؟

ان مالدينا من حياته لايرجح هذا ، وان كانت هناك قصص خاصة له تضع أيدينا على حقائق كان له فيها بعض الحظوة ولكن الى حين •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأقرب الظن أن الفتيات كن يؤخذن بما للشاعر من مكانة أدبية وصوت فى عالم الفكر، وكن يعتبرن الاتصال به خطوة وكسبا ولا بأس من التمادى فى المحاولة بعض الوقت ، فاذا الشاعر فى شكله ليس مما يفتن النساء ، وفى حياته الغرامية ليس خاليا لأنه زوج ورب بيت • وهو فوق ذلك ليس غنيا ولايملك من وسائل الحياة مايمكنه من أن يغطى ماعنده من نقص بالسخاء المادى ، وان كنت أحب أن أتجاوز اعتبارات النقص هذه الى القول بأن هذه المسألة لم تكن خطيرة بالدرجة التى نعتبرها مسئولة عن كثير من تصرفات الكاتب ــ لهذه الاعتبارات ، ربما كان من الطبيعى أن تكون شخصياته النسائية من ذوات الصد والدل والهجران ، ومن الممكن أن نتصور أنه سيمتحن كثيرا فى حبه ، وفى كرامته مع أحبابه وهو المحب الودود الذى لايخون العهد ولا يفرط فى ود الأحبة •

ولعله كان يظن أن عنصر المبادلة فى الحب أساس قوى ، لذلك نراه يعجب من هجر أحبابه وهو الذى لايفكر فى أن يهجر ذكراهم ولعله ظل طويلا يثق فى جدوى هذا التبادل حتى أنه تمسك بالحب على الرغم من جفاء أصحابه ، ولم يقطع الأمل فيهم ، وعلى الرغم من تنكرهم له مازال يطلب ودهم ويرجوهم العطف والرحمة :

عجب كيف يرتضى البعد عنا
من عبدنا فى حسنه الله جلا

هل حباك الاله بالحسن الا
لنرى فيك آية تتجلى

أنت افسدتنى وعلمتنى الحب
فهلا أصلحت منى هلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نظـرة منك لو رحمت تعيـد الروح
فينـا ، كالروض جيدا وطـلا (١٩١)

وعلى الرغم من شدة ألم الفراق عليه ، فهـو يتحمل تيـه الحبيب وذله ، ويحتفظ بعهده فى الحالين حال الرضا وحـال الغضب ٠

ثقلت وطـأة البعـاد على كا   هل صبرى وآذنت أن تظـلا
آتأناك كى تـرق وما تزداد   الا عـلى المؤمـل بخـلا

الى أن يقول :

لـكم الدل والتجنى علينـا   وعلينا الحفاظ أحسنت أم لا

والشاعر فى مناجاته أحبابه رقيق الحاشية مرهف الحس قدر مايشعر بالظلم ، ويتعذب بالجفاء والبعد ، ولايجد أمامه الا الصبر ٠

ولكنا نراه أحيانا يلوذ بالأمل فى أن يجد لدى حبيب آخر ما أصبح يفتقده عند حبيبه الذى هجر ٠

فهل كان له آكثر من حبيبة ؟ أم كان ذلك من قبيل اثارة الغيرة فى حبيبته على الطريقة المألوفة لدى المحبين أو مايمكن أن نطلق عليهم خبراء الحب أو فنانيه ؟ أم هـل كان الشـاعر يأمل حقا فى أن يكون له أحباب آخرون ينسى عندهم الذين نسوه ٠ ويعوض معهم آيامه ولياليه السابقة ؟

لعل هذا كان فى ساعات الأمل لا فى سـاعات اليأس ، وليس غريبا أن يمر الشخص الواحد بهذه الظروف المتغايرة فصاحب الامل لاينجو من لحظات يكاد ينسى فيها أمله ويحس بأن كل ماحوله أصبح معـوقا له ، فيبـدو آكثر من اليائس ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنه لايظل على هذه الحال الى ما لا نهاية ، فان الأمل مايلبث أن يعاوده ، أو أن ارادته ماتلبث أن تعود الى رشدها ، فتهدهد خواطره ، وتعيد اليه بسمة الأمل حتى ولو كانت شاحبة ٠

وأعتقد أن البائسين لاتخلو حياتهم من ساعات التعلق بالأمل ، وربما فى بعض لحظات حياتهم لايكونون خاضعين خضوعا تاما لطغيان اليأس على جانب الرجاء فيهم وحتى من يقتلهم اليأس ، لا أظن الا أنه استبد بهم فى لحظة بلغوا فيها من الضعف حدا يصعب عليهم أن يحتملوا معه صراع الأمل واليأس ٠

وشاعرنا الذى يبدو مستسلما لحبيبته رقيقا معها ، محتملا صدها وجفاءها ، مؤملا أن يجد عوضه عند غيرها ، هو نفسه الذى يشتد غيظه من الهجر وتنقلب شكواه الى موقف ايجابى صريح ، يقابل الجفاء بالجفاء ، والقطيعة بالقطيعة ٠

ولعل الأمر هنا يختلف من حبيب الى حبيب أو من وقت الى وقت ٠ المهم أننا نجد مختلف التجارب وانعكاساتها فى وضوح على الشاعر ، وكأن شعره ينقل الصورة لوقتها ، ويترجم عن التجربة لحظة التأثر الحاد بها ، وكأن مواقف الانسان فى فترات حياته المختلفة كائنات مستقل بعضها عن بعض وان أسفرت فى النهاية عن تناقضات واضحة ، أو عن شبهية كاملة ٠

يقول الشاعر فى تحوله من الحب الى الهجر ، ومن الهوى الناضر الى عود جاف بارد ، وكأنه يلتمس تعليلا لهذا التحول كمن يحس بالتناقض بين عاطفته وعقله ، أو من يقبل على

الهوى بروحه ووجدانه ، فيصدمه واقع الحبيب · ويطلع فى كل يوم على جديد يثير فكره عن متابعة النداء الذى كان يصغى اليه ويطيعه من غير مناقشة أو حساب :

هـويتك بالقلب البرىء من الحجـا
وانى بالعقـل السـليم لهـاجر
تقلص ظـل الحب بعـد امتـداده
وجف هـوانا بعـد اذ هـو ناضر

ولا يتركنا الشاعر دون أن يضع أمامنا الأسباب التى من أجلها وصل الأمر به الى هذا الموقف الجاد الواعى من حبيبته ، كأنه ـ وهو الذى يعرف الحب ، ولايعرف حقوقه لدى المحبين ـ أحس بضرورة التبرير ، حتى لايتهم بالغدر الذى لايحبه، فكان صريحا فى القاء اللوم على عقوق الحبيب وعذره ، رغم ماعاناه فى حبه من وله ويأس وآلام ، فيستطرد الشـاعر فى بيان التطورات التى وصل اليها حبه :

أحالته أخـلاق العقـوق وغـدره
عهـودا تبكيها القـلوب الذواكـر
كأن الجوى واليأس والسهد والضنى
ديون عـلى ما ضـاءه منـك ناظـر

وليس العقوق وحده ـ مجردا عن دوافعه ـ هو ما أثار الشاعر وحرك أشجانه ، اذ أن وراء العقوق والهجران غرورا سيطر على الحبيب ، وأفقده صـواب المحب الأمين ـ ولايملك الشاعر أمام هذا الغرور أن يسلب الحبيب حق الاعتراف له بحسنه وجماله ، ولكنه يلجأ فى الانتصار على هذا الغرور الى الزمن فيحذر حبيبه من أن المستقبل سوف يقتل هذا الغرور،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حين يذوى الحسن كما يذوى كل شىء ، وتذبل زهرة الشباب، وينتهى هذاالبريق الجذاب ، فتغض نظرات المحبين ، وتنصرف القلوب عن الجمال المفقود . وتستوى نتائج الاقبال والصد ، حيث لا قيمة هناك للفرح والحزن مع اعتبار أن كل شىء زائل :

على أنه سيان كرب وفرحة
فكل تعفيه الليالى الدوائر

ستعلم أن الحسن ليس بدائم
وأن العيون الزهر يوما غدائر

ويصرف عنك الشيقون قلوبهم
وتغضى غدا عنك اللحاظ الغوادر

كأنى بهذا الحسن قد جف ماؤه
وباخ ضياء فى المحاجر باهر

ولعل قمة النصر عند الشاعر أمام غرور حبيبته هو أن ينتصر على نفسه ، فيوقف اندفاعها ، ويحول هواها ، أو يقف بها عند حد معين ، ووسيلته الى ذلك الصبر ، والجلد ، والاستفادة من معرفته للحياة والزمن ، فهل سيصل الى ذلك المحبوب هل يستطيع أن يصبر على ما آل اليه حاله ، حين يذوى الجمال ، ويتضاءل نور الحسن ، ويرى نظرات المحبين وقلوبهم تنصرف عنه ؟

ستبصرنى جلدا على الدهر عارفا
فليتك مثلى ان تقاضاك صابر

أغلب الظن أن المحبوب لن يستطيع أن يتحمل أعباء صورته الجديدة من غير بريق ، ومن غير جاذبية عاش عليها

زمنا ، واكتسب عن طريقها الغرور وعلمته الصد ، والهجران ، وحرمان المحبين ، ولن يستطيع أن يهرب من الشعور بأنه يدفع الثمن ، خاصة وأن الذى يتقاضاه دائن صبور ، يشعر بحقه فى استرداد الدين ، ويصبر عليه حتى الوفاء .

وما أن يطرح الشاعر عن نفسه هذه الانفعالات التى يمكن أن يكون بعضها سطحيا حتى نراه يعود الى حدته ، لندرك أن الامر كان شديدا عليه ، ولعله أحس أن حبيبته كادت أن تقتله بجمالها وغرورها ، فاستيقظ فيه الشعور الحاد بالندم ، والمسئولية نحو نفسه ، كأنه جنى عليها جناية ماكان ينبغى أن يسرف فيها ، وما ينبغى أن يتمادى فى ارتكابها ، وليس أمامه الا أن يخرج من اطارها قبل أن تقضى عليه ، فيهجر دنيا حبيبته نهائيا ، وينفض نفسه منها فى قوة وحسم واصرار ، وربما فى عنف يعيد اليه توازنه ، ويرد اليه كرامته المنهارة ، ولو كان فى ذلك استخدام أقذع الأساليب ، ووضع المحبوب فى أدنى مكان منه :

وما ندمى الا على كلفى بكم
فهل لى من تلك الخيانة عاذر ؟

نبذتك نبذ النعل رث أديمها
وانى على أمثال ذاك لقادر (١٩٢)

على أننا نعود فنجد أن الطابع الغالب على الشاعر فى حبه هو أن يقابل جفاء أحبابه بالصبر والاستمرار فى حبهم أو العجز عن كراهيتهم ، وقد يريد أحيانا أن يكره ولكنه لايستطيع :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحبـــكم ولـــو أنـــى أســـتطيع اذا
بـــدلتكم بالهـــوى والحب بغضـــائى
كمـــا تبـــدلنى من صـــحتى آلمـــا
مـــرا وتوســـعنى من كل ضراء (١٩٣)

ومع ذلك فان الفكرة التى سبق أن ظهرت لنا تكاد تؤكد نفسها على طول الطريق ، وهى أن موقف الشـــاعر فى حبـــه يختلف من محبوب الى آخر ، ومن وقت الى وقت شأن النـــاس العاديين البسطاء فى حياتهم الخاصة ، وربما كان فيه جانب من العاطفيـــة مسرف أكثر يقترب به من الهـــوائية والتقلب والاندفاع •

ويعنى هذا فى عموميته أنه انسان عاطفى الى حد كبير يثور مرة لكرامته فى الحب ، ومرات يتهـــاوى أمام محبوبه يقبل منه كل شىء ، ويتغاضى عن سيئاته ، ويحتفظ له بالحب رغم مايبديه من تنكر ، ولا يتردد فى الاعتراف بكل ذلك •

ليس لهذا من تفسير الا سلطان العاطفة والمزاج ، واذا أردنا وصـــفا أوضح فيمكننا أن نقـــول : انهـــا الطبيعية والصراحة مع النفس ، فحين يكون الانسان صريحا مع نفسه يظهر على حقيقته ، ويعيش ذاته ، لايتوارى أمام فكرة يراها الآخرون مثالية على نحو ما ، ولايتخيل وقفة جـــذابة فيضع نفسه عندها بحق أو بغير حق •

انها البساطة فى الحب ، وربما كانت الاساس الفكرى الذى يمكن أن يتفجر عنـــه الاسلوب الســـاخر ، كما يمكن اعتبارها الأساس الأخلاقي الذى يحرك الســـخرية كصـــفة وخلق •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس هنا مذهب فى الحب معين ، انما هى انطباعية بتصرف الانسان معها حسب انفعالاته ، وتوافق هذه الانفعالات مع العقل خاصة اذا كان العقل من النوع البسيط المفتوح المرهف ، وربما أتاحت هذه البساطة النفسية والفكرية للانسان أن يكون حرا ، فلايخضع لفكرة ما ولا لمذهب من المذاهب التى تجعل أصحابها يعيشون فقط فى اطارها .

وبهذه الحرية يمكننا أن نتناول من أمور الحياة الخاصة والعامة ما نشاء بالاسلوب الذى نختار وكأنما كان أسلوب الشاعر اراديا متعمدا ، يفهمه قبل أن يستخدمه أو قبل أن يرتضيه ليصوغ فيه تجاربه .

وهكذا نجد العلاقات الانسانية الخاصة بالشاعر « الصداقة » و « الحب » تلعب دورها فى حياته الادبية وفى اسلوبه كشاعر ، وتعتبر تجاربه الخاصة مع الناس أساسا لنظرته اليهم ، ورأيه فيهم ، وقد انتقلت هذه النظرة من خصوصيتها الى مايشبه التعميم ، فالناس عنده قد أصبحوا شيئا واحدا ، والصفات التى عرفها فى أصدقائه أو فى أعدائه قد أصبحت فى نظره صفات للناس جميعا حتى هو لم يعد فيه مايميزه عن الآخرين ، فاذا كان يسخر من الناس فانه فى نفس الوقت يسخر من نفسه ، واذا أراد أن يتحدث عنهم جميعا وهو واحد منهم فليس من موضوع يليق بهذا الموقف الا افتراض أنهم موتى وهو يرثيهم ، أو افتراض أن أحدهم ، وليكن هو أو غيره ، قد مات ، وأن قصيدة فى الرثاء يمكن أن تقال فيه أو فى غيره .

فى هذه القصيدة احساس الشاعر بأن الحياة وهم ، وأنها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعبث بالانسان وتلعب به ، وهو تائه فيها تسخر منه المنى وهو أضحوكتها المغرور ، لا أهمية لوجوده ، ولا فجيعة فى موته ، أبرز صفاته الكذب والنفاق واللؤم وخبث النفس والجبن والحقد ، ولعل الشاعر تركنا نحاول أن نعثر على علاقة بين هذه الصفات الانسانية البغيضة وبين سخرية الحياة من الانسان ، هل تسخر الحياة منه لأنه منافق وحقود ، أو هو يرد بهذه الصفات على عبث الحياة به ؟

المهم أننا نرى أسلوبا فى الرثاء غريبا يضع أمامنا لوحة لمجموعة من الصفات تكون فى نظر الشاعر الصورة التى آل اليها حال الانسان :

قضى غير مأسوف عليه من الورى
فتى غره فى العيش نظم القصائد
لقد كان كذابا وكان منافقا
وكان لئيم الطبع نزر المحامد
وكان خبيث النفس كالناس كلهم
جبانا قليل الخير جم الحقائد
وقد كان مجنونا تضاحكه المنى
وفى ريقها سم الصلال الشوارد
فعاش وما واساه فى العيش واحد
ومات ولم يحفل به غير واحد
وجاء الى الدنيا على رغم أنفه
وراح على كره الأمانى الشوارد
ـ أراد خلو الذكر فى الأرض ضلة
فأورده النسيان مر الموارد
ولم يبكه اذ مات الا أجيرة
لها زفرة لولا اللهى لم تصاعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد تكون القصيدة أصلا خاصة بشخص معين يعرفه الشاعر ، ولم يشأ أن يتركه دون أن يرثيه ولكنها فى نفس الوقت تضع فى اعتبارها الناس جميعا ، والشاعر نفسه ، ولا يكتفى الشاعر بأن يسخر من نفسه ومن الناس ، ولكنه يرى نفسه وأمثاله موضعا لسخرية الأشياء حين لايعجبها من الانسان ضياعه أمام عواطفه :

قمر يحلم فى لج السما
باهت الألوان من طول السهد
ساكن يسخر منا كلما
قام بالقلب حنين وقعد (١٩٤)

ومع ذلك فان علاقته مع الناس تبقى فى النهاية مشكلة صعبة ، ولابد أن يجد الشاعر لها حلا ، على الرغم من أن رأيه فى الناس أصبح ثابتا ·

ان الحل ليس علاجا للناس ، فهذا الأمر فوق طاقته ، ولكنه الحل التلقائى الذى نرجو أن يكون الشاعر قد نجح فيه ، فهو رغم تلقائيته ليس سهلا ، وهو أكثر صعوبة على العاطفيين ذوى المشاعر الملتهبة ، ولعل الشاعر قد توصل اليه أخيرا بعد أن تعقدت أمامه كل السبل ، وبعد أن شعر بوطأة المشكلة ويئس من علاجها ·

ان الحل ليس الا التوافق مع الضمير ، ولعل هذا يعنى ـ بصورة أخرى ـ طرح المشكلة حتى لاتظل فى كل وقت مصدر عذاب للنفس ·

واذا كانت هذه الحالة تبدو عادية ، وكثير من الناس فى مثل ظروف الشاعر يمرون بها لحل تناقضاتهم ، الا أن الشاعر فى موقفه قد وصل الى درجة أبعد من ذلك ·

انه لم يقف عند حد رفع المشكلة عن كاهله ، ولعله كان واقعيا فأدرك أن هذا أمل بعيد المنال ، فانتقل الى الاستخفاف بالمشكلة من أساسها ، والى السخرية بالناس وآرائهم كنوع من الحيلة لاضعاف تأثيرهم على نفسه ، فمادام الشاعر قد وصل الى حالة الرضا عن نفسه ، والتوافق مع ضميره فلا أهمية لآراء الناس وأفكارهم :

قد أفعل الشيء لا أبغى به أملا
ولا أبالى الورى ماذا يقولونا
همى ضميرى فان أرضيته فعلى
رأى العباد سلام المستخفينا

ويظهر أن حالة الرضا بالنفس والتوافق معها تمثل فى الشاعر جانبا مسالما يغاير الفكرة التى قد تؤخذ عنه لأول وهلة ، وهى فكرة التمرد على الحياة والثورة على كل شيء ، وقد تؤدى السخرية دورها فى امتصاص التمرد الذى يعانى منه الانسان أحيانا قبل أن يصل به الى مدى بعيد •

فان الشاعر الذى فهمنا فى بعض مواقفه أنه غير راض عن حياته مع الناس بصفة خاصة ، تجده يميل الى الرضا بالقسمة والقدر ، ولا أعتقد أن هذا تواكل من الشاعر سواء كانت المذهبية مصدره أو اليأس ، انما هو فى رأيى تعبير عن المسالمة ، بل والتسليم ، فى تلك الظروف التى يكون الانسان فيها أقرب الى تقبل الامور على علاتها ، هو ليس يأسا ، ولكنه نوع من الايمان •

ومع ذلك فاننا نكاد أن نلمح فى هذا الرضا نوعا من الشعور بالقهرية ، لم يستطع الشاعر أن يخفيه ، وان لم يصرح به ، حتى وان كان وراء هذا الرضا الايمان بعدل

الأقدار وانصافها فى تحويل العسر الى يسر ، فان الشاعر قد ختم هذه التأملات الهادئة بقوله :

ضل الذى يرتجى تأخير قسمته
قد مات كالكبش اسماعيل قد ماتا

والشطرة الأخيرة تمثل رأى الشاعر بعدم جدوى المحاولات التى تبذل لتأخير القدر ، وكان الشاعر لايرى لهذا التأخير أهمية ، ولم يمنعه ارتباط هذا الحادث بالتراث الدينى من أن يضعه فى هذا الاطار ، بل ان هذا الارتباط يصور مدى سخريته من تعلق الانسان بالمحاولات لتغيير ظروفه ٠

انها مع ما فيها من شعور بالعبث أيضا ، كأنه لايوجد شيء فى الحياة يستحق العمل من أجله ٠ واذا كانت النتيجة معروفة أو مقدرة فلا معنى للبحث عن التغيير ٠

وربما عن لنا أن نقول ان الشاعر فى الواقع متمرد ، يسخر من المتمردين ، وليس فى هذا جديد على المازنى كما أنه لايتناقض مع مايظهر عليه أحيانا من الرضا بالواقع والتسليم له ، لأنى لا أميل الى اعتبار المازنى شخصا جامدا ولا أرى مبررا لتقنينه على نحو يصوره لنا فى صورة ثابتة لاتتغير ، فانه قبل كل شيء انسان وظل انسانا على طول ماعانى فى حياته ، ولقى منها ٠

انه على الرغم مما منى به من الأصدقاء وعلى الرغم مما نفثه فى شعره أحيانا من لهيب الغضب ــ والذى قد يجعلنا نظن أنه تحول من محب للناس الى كاره لهم ، وأنه قد فقد فى غمار مآسيه الشخصية انسانيته العامة ــ على الرغم من كل

ذلك ، فقد بقى المازنى انسانا يهفو الى الانسانية وسعادتها ، ويهتز لها بقلبه ويتعاطف معها ٠

وان خير مايصور لنا رقة هـذا الانسان وتعـاطفه مع بنى جنسه ، موقفه من الحروب التى هى فى حقيقتها جريمة انسانية ٠

انه ينفعل معها انفعـالا بالغا غاية الشـدة فينفطر أسى لويـلاتها ، ويتعاطف مع ضـحاياها كأنه يعرفهم ، أو يرى بعينيه ما حل بهم ٠

انه ينسى فى هذا الموقف تجـاربه الخـاصة الأليمة مع أصدقائه ، وينسى انعكاس هذه التجارب على غير أصدقائه من بنى البشر عموما ، شغلته فقط مظاهر الدمار والموت التى شملت الضحايا وغـيرهم ، ويعتبر تجـاوبه مع آهاتهم ومع زفرات الثكلى والمحـرومين والمعذبين بفقد أحبـابهم موقفا انسانيا عاليا صادقا كل الصدق ٠

واذا كان فى نفسه من عداء ، فانما هو نحـو هـؤلاء الظالمين المثيرين للحرب ، الذين يوزعون الموت والألم والعذاب لايحفلون بشىء ، ولا يرحمـون أحدا ، ولا يسـمعون خطايا ولا نداء ، كأن رجاء الانسانية لم يحرك فيهم ساكنا ، وأمامى بعض الأبيات التى ـ وان لم تغن عن القصيدة كلها ـ فانها تصور الروح الانسانية العالية التى تناول بها الشاعر هـذا الموقف ، وهو بين النـائم واليقظان كأنه لايصـدق المنظر ، ولا يصدق نفسه أمامه ، ولذلك سماه «حلم اليقظة» (١٩٦) ومن المألوف أن حلم اليقظة غالبا مايتعلق بآمال الناس وتحقيق مطالبهم التى لا سبيل الى تحقيقها بالطرق العادية ٠

ولعل فى هذا العنوان سخرية مرة غير مباشرة ، فكأن الشاعر يقول : حلم وأى حلم ، وكأن أحلام الناس قد تحولت الى كابوس ضاغط بدل حياتهم وأفكارهم ٠

أى قضاء قد مضى غـــلابا
وأى خطب قد رمى فصـــابا
وبذ هـــذى الأنفس الصعابا
أرواحهـــا ٠ وأولغ الذئـــابا
فى دمعها ـــ ووســـد الترابا
خدودها النواخـــر الرطـــابا
وبـــذر الرؤوس والرقـــابا
ونثـــل الكبـــود والعيـــابا
وفـــرق الخـــلان والأحبـــابا
وجمع الوحـــوش والعقـــابا

ثم هذا النداء المعبر لمثيرى الحروب ، وممطرى العذاب وظالمى الانسان :

يا ممطرا على الورى عـــذابا
وراعيـــا جماجما صـــلابا
ومجـــريا دمـــاءها عبـــابا
وظـــالما لا يتقى حســـابا
أجلك يبكى الحضر الغيـــابا
وتألف الوجـــوه الاكتئـــابا
وتركب الأرامـــل الصـــعابا
وتحمـــل الكواهـــل الهضابا

نحس فى هذه القصيدة قوة انسانية الشاعر على الرغم من ظروفه مع الانسان فهو ينسى نفسه أمام الأحداث الخطيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى تصيب الانسانية ويتجرد الا من عواطف الحزن الرفيع، والكراهية الرفيعة ٠

الحزن على القتلى والثكلى ، والكراهية للظلمة أعداء الانسان ، آلهة الموت التى لاترحم وتنشر الظلم بين الأحياء والأموات ٠

ونحن حين نحاول التعرف على التجارب والأحاسيس التى تقف وراء الاسلوب الساخر للمازنى شاعرا أو كاتبا لاينبغى أن ننسى تعاطفه مع آلام الانسانية وتأثره بهذه الآلام ٠ وهل هناك مأساة أكثر قسوة وشمولا من الحرب ٠ وهى بقسوتها وشمولها أقوى العوامل اثارة للسخرية فى شاعر حساس يرى الموت يحصد الناس لمجرد أن هناك ظالما أثارها وراح يصب العذاب صبا فى كل مكان ٠

وهل هناك ما يثير السخرية أكثر من صورة بشعة تنتهى اليها حال الانسانية فى فترة من الزمن يحدثها بعض أبنائها فى غير مبالاة بالانسان وحضارته وتاريخه ؟ والمفروض أن أبناء الانسانية هم أكثر حرصا عليها ، وهم الأمناء على تراثها وحضارتها ٠ يحافظون عليه ويعملون على انمائه بدلا من تدميره وتخريبه ٠

فالسخرية هنا بجانبها التبصيرى الواعى ، تعلو على الحزن وتحول مظاهره وعوامله الى لغة للحديث لا للتبسيط ولكن للاثارة ، وجذب الانتباه ، وتركيزه على المنظر ٠

كأنها دعوة الى المشاركة فى نفس النظرة ، وتوجيه نفس النداء ، والايمان بأن الرحمة بالانسانية مسئولية عامة ٠

٢ ـ موقفه من الحياة والموت :

الذى يطالع ديوان المازنى يحس الاهتمام الواضح لدى الشاعر بالحياة والموت ، ويمكن الملاحظة أن الموت بصفة خاصة له وجود أبرز فى حياته وفى تفكيره ٠

ويشكل هذا ظاهرة متميزة فى شعر المازنى ، كما رأينا لها انعكاسا على كتاباته فى مقالات كثيرة ٠

ولكن هذه الظاهرة على وضوحها وتميزها لا تصل الى درجة الانشغال الفلسفى بقضية الحياة والموت على النحو الذى نعرفه لدى المعرى أو الخيام أو غيرهما من الفلاسفة والمفكرين ورجال التصوف قبل المازنى وبعده ، فقد بقيت عنده على مستوى من البساطة ، لم يعالجها علاجا فلسفيا ، ولم يقف منها موقف الباحث الذى اثارته التأملات ، ونقلته من متأثر انطباعى يعبر عن تأثراته ويعكسها للقارىء باسلوبه الخاص الى فيلسوف يبحث العلل والاصول ، ويربط بين الظواهر ، ويحاول أن يجتنى عليها رأيا ، أو يتخذ على أساسها مذهبا ٠

ومع ذلك فان هذه الظاهرة لها قوتها فى حياة المازنى ولها وجودها شبه الدائم ، اذا غضب أو حزن تحولت حياته الى موت ، واذا فرح تصور نقيض الفرح ، وعلى رأس بواعثه الموت ٠ واذا سخر من الناس لأن بعضهم ليسوا فى مستوى الصداقة ، أو لايستحقون أن يظل على عهده معهم ، لايقف به الشعور عند حد الوقوف منهم هذا الموقف فى حياته أو حياتهم بل يتعدى الزمن ، ويتخطى اعتبارات المكان ، وملابسات الأحداث ، الى تقدير نوع من العلاقة معهم بعد الموت ، فيخشى ان يزعجوه فى قبره ، كأن الموت لايستطيع أن يفصله عنهم ، ويجعله بمنأى عن ازعاجاتهم أو مضايقاتهم ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترهقه مآسى الحرب ، وما يتعرض له الناس فيها من ويلات وأهوال فيستحضر الموت ، ومناظره ، ووحشيته فى حصد الآلاف والملايين الذين لم يرتكبوا ذنبا ، وكأن خسائر الانسانية ، والدمار الذى يهدم حضارة الانسان ويطمس معالمها ، ويفرض عليه أن يبدأ من جديد ، كل هذا بالنسبة للموت لا يمثل ما له من هول وتأثير ، أو أنه فى حقيقته يعنى موتا للاشياء وللحضارة ومدنية القرون ، يدخل ضمنا فى موت الانسان ، ويندرج معه فى آنه الموت ، أو العدم الذى يعترى الحياة ٠

اذا قلنا ان الموت عند المازنى هو الصورة الثانية للحياة، فقد يعنى ذلك آنه يشترك مع كثير من الناس ، أو يمثل بعض مظاهر الفكر الانسانى ، ولايعتبر متطرفا فى نظرته ٠ وهذا من ناحية فهمه للموقف يقارب الحقيقة الى حد كبير ٠ ولكنه بالنسبة للاستحضار الدائم للموت فانه يعتبر فى ذلك شخصية فريدة ، تملك القدرة على هذا الاستحضار دون فزع أو ملل ، أو خشية من تهديد الموت لحياته ولأوقات أنسه وفرحه ٠

وأعود مرة أخرى الى مقارنته بنوع من الناس ممن يتذكرون الموت ، ويذكرون به غيرهم فى مواقف كثيرة ، ويجرى على ألسنتهم فى المجتمعات أو المحادثات العابرة ، ولكن هؤلاء يقصدون غالبا الىأهداف تكوين محددة ومعروفة لمجالسيهم أو مخاطبيهم ، كالتأسى والموعظة ، أو التعزية ، أو الاعتذار ، أو التهديد أو التشفى ، أو غير ذلك مما يتعلق بحياة الناس الاجتماعية ، وصلاتهم القائمة على المبادلات فى كل شىء ، حتى فى الكلام يتناقلونه بحسب المواقف المختلفة، ويستخدمونه فى تكييف آنفسهم لهذه المواقف أو مايترتب عليها من تغيرا تمادية أو معنوية ، فالحديث عن الموت لدى

بعض الناس أو عند الناس عامة يرضى حاجة اجتماعية عندهم مقصودة أو غير مقصودة ، وان كان لايخلو فى نفس الوقت من ارضاء الحاجات النفسية ٠

ولكن المازنى يظل فى موقفه من هذه الظاهرة حالة خاصة ، لايكتفى بالحديث عنها اذا وردت على خاطره ولا بالمشاركة فيها كواحد مع الآخرين ، ولكنه يلح عليها ويسعى اليها سعيا ، ليستلهمها ، ويفرضها فرضا على حياته وأدبه ، وفى كل المناسبات لايصعب عليه أن يجد لها صلة بالموت من قريب أو بعيد ، وحتى اذا كانت الصلة واهية ، لاتكاد تحس ، فانه يعرف الطريق الى جعلها قوية ، وطبيعية ، ويجسمها ، ويضعها فى دائرة واسعة للضوء ٠ وقد يقلب فى ذلك بعض الصور ، ويطلق تعريفات جديدة للاشياء تغاير مألوف الناس ، وما درجوا عليه ٠

فالماضى فى نظر المازنى ليس مهد الذكريات كما يسهل على الناس أن يقولوا ، وليس كتابا مسطورا يحتفظ لصاحبه بساعات أنسه أو حزنه ، ويقدم له التجارب مما مر به من أحداث وظروف ، وليس قلبه بالحارس الأمين على هذا الماضى يحفظه ، ويدخره ويستحضره عندما تدعو الحاجة اليه ٠

ولكن الماضى شىء ميت ، والقلب قبر لهذا الميت المسكين ، لايستطيع أن يغادره ، أو ينفصل عنه ، وهل يبرح الميت قبره ؟

انه استحضار مزعج للصور ، أو ارتباط بين الحياة والموت فى ذهن الشاعر ، بدرجة أقوى ٠

ومن غير المألوف للانسان العادى أن يتصور ذلك ، ومن الغريب أن يسترسل الشاعر في هذه الصورة فيعكسها على

الزمن ، لايستطيع أن يستمتع بجمال الحياة فى يومه أو غده، ويرى فى نضرة الأيام وحلاوتها ماينذره بالموت ، ويذكره بفناء هذا الجمال ، وزوال هذه النضارة · لايمكن أن تستمر الصورة الجميلة على جمالها فى هـذه اللحظة ، ولايمكن أن تبقى لحظة الاستمتاع ·

وكيف تبقى ، والزمن كله يتحول فى نظر الشاعر الى ماض حـزين ، والذكريات كلهـا أشـبه بالوهم الكاذب ، واللحظات الحلوة وقتية ، وسريعة الزوال ، وسرعان ماتفقد حلاوتها بعد الفراغ منها ، أو قبل هذا الفراغ ·

لايمكن أن نعتبر المازنى ـ على قدر مانعـرف من حبه للحياة ـ قد واتته الفرصة ليستمتع بها استمتاعا كاملا ، لأنه كان دائمااستمتاعا قلقا مضطربا يهدده المصير المعروف، وتفسده أفكار النهـاية وتوقعاتها ، على هـذا النحو الذى ينبىء عنه خطاب الشاعر لماضيه :

القلب قبر وأنت سـاكنه	لا يبرح القلب ميت سـكنه
ما مـر يـوم بمـا يصرفه	الا جعلنـاك فيـه ممتحنـه
أو راقنـا ثـوب ونضرته	الا رأينـا فى ثـوبه كفنـه

قد نصف هذا بأنه التشاؤم الذى يصبغ نفس الشاعر، ويلون اتجاهاتها ، أو يحدد أبعاد الصورة التى يرى الحياة عليها ·

وقد نرى أنها حالة نفسية معينة تربط بين الحياة والموت برباط وثيق ، وتفرض على الشـاعر أن يحيـا بين هـذه الثنائية والأزلية التى تحدد بداية العالم ونهايته ، فلا يكاد يرى مظهرا للحياة حتي يستحضر في مقابله مظهرا آخـر للموت ·

وقد نعود بهذه الحالة الى تأثرات الشاعر منذ مطلع حياته ، حيث كان مسكنه يطل على المقابر • ويجعله دائما على مشارف النهاية ، وهو الانسان المرهف ، والذى كان يستجيب للظواهر والمناظر من حوله استجابات حية نشطة مؤثرة ، لايملك معها أن يتخلص من الاحساس بوطأة الموت، وشدة العدمية التى تعترى الوجود من حوله • حتى انه لايقتصر فى ذلك على الظرف المناسب الذى يمكن أن يؤدى بشكل منطقى الى يقظة هذا الاحساس وقوته ، بل يتعدى مثل هذا الظرف الى كل الظروف الاخرى ، وفي أحسن حالاتها •

فقد لايدهشنا أن يقرن الشاعر صورة الدار المهجورة بصورة الموت ، الذى يعنى هجرها وخلوها من الأحياء •

وقد نقر الشاعر على أن يذكره خلو الدار من ساكنيها بالفناء ، لأن ذلك قد يعنى الحقيقة أحيانا ، أو بعضها ، فان لهجر الدور وخلوها أسبابا كثيرة ، منها السفر والتشتت ، والفراق المقصود ، وان كانت كلها توحى بمعنى الرحيل ، مما يهيىء للشاعر أن يستشعر من ذلك معنى الرحيل الأبدى ، أو أن الدار نفسها تحولت الى قبر لكل ذكريات الاهل وساكنى الديار فيخاطبها على النحو القريب من النواح :

ايه يامهد مسرات الصبا

عجبا أصبحت قبرا عجبا

حاملا عن هاجريك الوصبا

كنت للهو فقد صرت وما أنت الا طيف أيام عذاب (١٩٧) •

وقد نتعاطف مع موقف الشاعر من الدار حين يستولى منظرها على احساسه ، ويغلق عنه كل المنافذ ، فلا يعود هناك شيء الا هو وهى يخلع عليها من نفسه هذا الرداء الخاص ، رداء الموت . فيستبعد عنها كل مظاهر الحياة ، حتى رجع الصوت الذى نألفه فى البنايات الخالية ، يوحى الى الشاعر بالتنافر الحاد بين الدار وبين الاصوات التى تعنى العلاقة بينها وبين الانسان ، والتى هى فى الواقع أحد المظاهر الرئيسية للحياة :

ليس يلقى عندها الصوت قرارا
كلما أرسلته مل الجوارا
واسترد المرء منها ما أعارا (١٩٨)

اننا يمكن أن نقر الشاعر اذا ربط بين الدار المهجورة وبين فكرة الموت ، هكذا ولكننا من الصعب أن نقره وهو يجعل من هذا عادة فكرية له تفرض نفسها عليه فى كل موقف وتتعلل بأوهى العلل ، فنراه يحكم على الجمال الذى يسقط مرة بالموت ، وقد تشجعنا الفكرة الدينية على قبول ذلك ، ولكننا نعالج الامر هنا من زاوية الشعر فقط دون أن نأخذ الامر من الجانب الاخلاقى أو الدينى ، وحتى اذا أعطينا لهذا الجانب حقه فليس من السهل أن نربط سقوط الجمال بالموت .

فى قصيدة « الجمال اذا هوى » تقدير كبير من الكاتب لعفة الجمال واستقامته ، حتى انه يعتبر سقوط الجمال مصرعا له :

يا حسرة للجمال يسلبه
روعته مصرع له جلل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انمـــا الحسن ان هـــوى جـــدث
عليـه زهـر من النـبـدى خضـل
ان راق عينيـــك روضـــة أنف
منـه لقد راع قلبك الثكل (١٩٩)

من الغريب أن يحدث هذا التصور من الشاعر وهو الذى أرهفه الحب ، وقضى شطرا كبيرا من حيـاته بين شـواغله وملاهيه ومسراته وأحزانه .

هل تحول الى انسـان يكره أن تعطى المرأة الجميلة من نفسها شيئا لمن تهواه ؟ هل تأثر بفشله فى غرامياته فأصبح يرى فى غـرام المرأة جريمـة أشـبه بالموت ، أو هى الموت نفسه ؟ هل وصلت به الرغبة فى الانتقام الى هذه الدرجة من التحامل على الحسن وأصحابه ؟

أكاد أظن أن الأمـر يتعلق بتحول أسـاسى وخطير فى وجدان الشاعر وفى فكره فيما يتصل بقضية الحب والعطاء بين المحبين وذلك من طول انتظاره للعطاء على غير جدوى ، والا فكيف يتحول محب توله بعدد كثير من الحبيبات الى انسان يخرج بالمحبين عن دائرة الحياة لانهم استجابوا لنـداء الحب فيهم ؟

اذا كان للشاعر فى حيـاته موقف دينى يتصـل بهـذه الناحية ، وتحت أيدينالالتمست له العذر ووقفت الى جانبه، ولكنه لم يكن كذلك ، فـلا أرى الا أن فكرة الانتقـام قد تحورت عنده على النحو الذى ينسحب على كل النماذج .

وهى على كل حـال قد تحـولت الى معنى نفسى غامض اختلط بتشاؤم الشاعر ، وما فرضته عليه حياته حتى انه

أصبح يعتبر الموت منقذا ، والقبور على ظلمتها آنس من وحشة الحياة :

وفى ظلم القبور لنا مجير
يجلى وحشة العيش الجهام (٢٠٠)

والشاعر حين يضيق بحياته لايجد مهربا الا فى فكرة الموت • فاذا ما اشتدت به قسوة الاحداث تحول الكون كله فى نظره الى موت كبير ، انها حالة الانتقال السريع الى ضد الحياة ، كأنه تحايل على الاحداث حتى تخفف وطأتها ، وكأن المقابلة على فظاعتها ، وخطورتها أشبه بالمسكن الوقتى أو كأنها ترجمة اجمالية لما فى النفس من حزن ويأس •

ان الشاعر حين يشعر بالحياة ثقيلة عليه يتصور الموت فى كل شيء ، فى الليل المظلم الذى يرتدى زيه الاسود حدادا على الموتى من بنى الانسان ، وفى الريح الهوج ذات الصفير المزعج ، المنذر بالكارثة ، وفى البحر الغاضب الهائج ، الذى يتعالى الصراخ والبكاء من حوله ، ومن كل جوانبه •

لايرى الشاعر ، ولايسمع ، ويحس فى مثل هذه اللحظات النفسية ، الا ما له صلة بالموت صلة التعبير عنه ، وتمثله ؛ وتصور آثاره على كل شيء ، فالكائنات غاضبة ، ومتمردة تتملكها الثورة ، ويشتد بها الهياج •

هذه الثورة وهذا الغضب اسلوب للسخرية على طريقة هذه الكائنات وادراكها للتناقضات ، يقول الشاعر فى مشهد من هذه المشاهد :

فيا لك من ليل بهيم كأنه
حدادا السموات على نسل آدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويالك من ريح كان زفيفها
نواقيس دقت للمنايا الهواجم
ويالك من بحر كأن ضجيجه
صراخ اليتامى فى وجوه المآتم
والا فما لليل مدا كأننى
بقبة قبر حافل بالدمائم
فليست تحس العين الا حنادسا
تضىء مجالى هوله المتفاقم
ولا الأذن الا ما تقص رياحه
على الموج فى هباتهن الغواشم
فيضحك منها ساخرا غير آنه
اذا جلدته ثار ثورة ظالم
ورائى وقدامى وفى القلب ظلمة
فكيف فرارى من ظلام ملازم (٢٠١)

وتبدو فكرة الموت والحياة أحيانا كأنها بذاتها شاغل لذهن الشاعر ومثير له ، تحرك فيه النزوع المجرد والتأمل الفكرى ، والاسترسال مع الخواطر ، فيحاول أن يتعرف على العلاقة بين الموت والحياة ، وعلى مشاعر الموتى وعلاقتهم بالأحياء والحياة التى تركوها ، ويستدعى هذا تأملات فيما بعد الموت بصفة عامة ، مما يجعل الأمر ينتقل الى الاهتمام بعالم مابعد الموت ، وليس بالموت فقط وآثاره فى الكائنات والاحياء .

ومع ذلك فلا أظن أن هناك فلسفة ما تحكم هذا الاتجاه، ولا نزوعا فلسفيا يعطى أبعادا للتأثر بمذهب معين أو الرغبة فى إثبات رأى خاص .. بل ان مانستطيع أن نفهمه من هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموقف هو مايعكسه من شدة التعلق بالحياة لدى الشاعر ، رغم كل شيء ، رغم نظرته السوداء أحيانا ، رغم مايعرضه من تشاؤم ، رغم مايصرح به من ميل الى الزهد ·

والزهد ، بما فيه من تعبير عملى عن ترك بعض مظاهر الحياة ، والتخلى عن بعض مطالبها ، لايعنى تخلى الانسان عن الحياة نفسها بصفة نهائية ، بل قد يكون فى أحيان كثيرة هو الصورة المقابلة للتعلق بالحياة ، والتشبث بها ، وذلك حين يحار الانسان فيها بين آماله التى لاتنتهى ، وبين الفناء الذى يحتوى كل شيء فلا يجد ضرورة للتمادى وراء مطالبه غير مبال بشيء · وكأن الزهد فى هذه الحالة وقفة من الانسان يستعيد بها توازنه بين الافراط فى الرغبات ، وبين الاستسلام للعدم ·

وتصور قصيدة « بعد الموت » انشغال الشاعر بهذه الرحلة الاخيرة ، وعلاقة هذا العالم غير المرئى بعالم الأحياء، وتأثر الانسان بالتفكير فى مصيره ، والرغبة فى خلود الذكر :

ترى يذكر الأحياء أهل المقابر

ويعتادهم فيها كشوق المسافر (٢٠٢)

لاشك أن الشاعر هنا مهتم أيضا ببقاء ذكراه ليس فقط عند الاحياء ولكن عند من انتقل منهم الى العالم الآخر ·

كأن المشكلة من الجانب الآخر تتعلق بالأحياء أنفسهم ومدى اهتمام أهل المقابر بهم ، أو أنهم تعرضوا للنسيان والجحود من جانب من كانوا الى عهد قريب معهم ·

والشاعر فى هذه القصيدة مشغول بعواطف الناس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومشاعرهم نحو هذه المشكلة عموما : الأم نحو أبنائها ، والطفل نحو أمه ، والابن نحو أبيه الهرم ، والمحبون نحو أحبابهم وذويهم ، وينتهى من كل هذه التأملات الى حيرة أشد لأنه لايستطيع أن يتلقى الاجابة من الأحياء ، فان أحدا منهم لايدرى شيئا ، ولا صلة له بالموتى ليعرف منهم مايريد، فلا يمكنه اذن أن يجد جوابا على حيرته الا اذا مات :

ستخبرنى نفسى اذا حان حينها

وصرت كمن بادوا رهين حفائر(٢٠٣)

ولا يخفى مافى التعبير من حرص على الحياة ، بقدر مايريد الانسان أن يطمئن على ما اذا كان سيشعر بنوع من الحياة بعد الموت أو لا .

على أن الشاعر فى موقفه هذا لايختلف كثيرا عن غيره ، لأنه اذا كان لابد من الموت ولا مفر منه . فان أقصى مايحلم به الاحياء أن يكون لهم ذكر مابعد موتهم حتى لاتنقطع صلتهم بالحياة وبالأحياء ولكن هذه الفكرة قد لاتجعل الناس يحفلون بالصورة التى يموتون عليها أو يدفنون بها ، أما الشاعر فانه يطلب من الناس الذين يهمهم أمره أن يكفنوه فى الزهر ويرشوه بالخمر ، وكلا المطلبين مظهر للاهتمام الشديد بالنفس فى موقف قد لايغرى الآخرين بالاهتمام بذواتهم . وأكثر من هذا فان حب المتعة والتعلق بمباهج الحياة ومسراتها فى موقف الرحيل عنها يعتبر انعكاسا لحبها، أو امتدادا لهذا الحب ، يقول الشاعر :

كفنونى ان مت فى ورق الزهر

ورشوا ثراى بالصهباء

واذكروني والوجه منطلق البشر

كأني مازلت في الأحياء

واذا ما أديرت الكأس يوما

فاشربوا لي من صرف ما في الاناء

انما يهرب الرجال من الذكر

لما قد يثير في الاحشاء (٢٠٤)

ويعطي عنوان هذه الأبيات «وصية» معنى الجدية ، ورغبة الشاعر الحقيقية في تنفيذ وصيته ومن الطبيعي أن تكون التفاصيل هنا رمزا فقط للوجود بعد الموت ، وهو مايتمناه الشاعر • والتعلق بالوجود بعد الموت صورة للرغبة في الوجود قبله •

هذا الموقف من الحياة والموت ، وهو يصور لنا شاعرا متعلقا بالحياة بينما صور الموت تلاحقه ، يفسر لنا جانبا من طبيعة الشاعر الساخرة ••

فانه في كل لحظة يحس التناقض الصارخ الذى تمثله ثنائية الوجود والعدم من حوله ، وقد لايفهم لها معنى اذا قدرنا حساسيته الشديدة المفرطة •

والذى تلاحقه صور الموت منذ مطلع حياته لابد أن يواجه هذه الصور تلقائيا بالسخرية منها ، والاستخفاف ، والا فلن يستطيع أن يواجه الحياة •

واذا كان الموت في نظر الشاعر أحيانا هو المنقذ الوحيد من المشكلات ، ومن الاحداث ، ومن غدر الاصدقاء فأى مدعاة للسخرية أقوى من ذلك ؟

واذا تخيل الشاعر أن الزمن سيظل يطارده بالأحداث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى بعد أن يتوارى فى قبره رغم أن الزمن لن يستطيع الوصول اليه للفواصل البعيدة التى تفصل دنيا الموتى عن دنيا الأحياء ، اذا تخيل ذلك فلن تكون السخرية الا صدى خافتا والا جهد الضعيف الذى لو استطاع لدافع عن نفسه بما هو أقوى وأشد فاعلية ، وفى هذا الموقف نرى الشاعر يصرح بالسخرية ، وهى بألفاظها قليلة فى شعره ، ولذلك نتلمسها كأنها منطلق لفهم دواعى السخرية عنده ومحركاتها :

لسوف أسخر منه وهو يطلبنى
ودون ذلك صباح وكثبان

وكأن السخرية هنا نوع من التشفى ، أو هى حيث يكون الأمان ، والخلاص من المتاعب ، وكأنه لا خلاص له الا بعد الموت ، وان كان خلاصا قلقا بالسخرية والتأملات :

فى ظلمة القبر للثاوى به فرج
وفى التراب توافى الهم أحيان
من لم تسع نفسه الدنيا بما رحبت
فلن تضيق به فى القبر أعطان
دين على سأقضيه الى زمن
فى دينه لى تسويف وليان
ياليت شعرى اذا بوئت فى جدثى
هل يرهق القلب ضرا منه عدوان
لسوف أسخر منه وهو يطلبنى
ودون ذلك صباح وكثبان (٢٠٥)

وفى سخريته هذه يمثل قمة اليأس من الزمن أو ان شئت

قلت الحياة ، ومن الناس · أن الأحداث تلاحقه ، وستظل ، ولن يفصله عنها الا ما يفصل الحياة عن الموت والوجود عن العدم ·

ويبدو أن موقف الناس منه مسئول الى حد كبير عن موقفه من الحياة ، ويأسه من الحياة فى جوهره يأس من الأصدقاء ، وكثير من الأحداث التى مرت به أحداث انسانية ، والحياة فى حقيقتها بالنسبة للانسان الحى هى مجتمع أصدقائه وملتقى أحبابه ، فاذا تعاونت عليه الاحداث الشخصية والظروف المحيطة ، وعلاقات الاصدقاء أصبحت الحياة لا تطاق ، حتى وان بقى الامل يشده اليها ، ويشجعه على التعلق بها ، ويوحى اليه أن الخلاص ممكن ·

ويمثل هذا الاحساس بالتعاون الظالم بين الحياة والناس ضد الشاعر قوله :

ماكان ذلك ظنى بالحياة فلا
قدرت أن تجلب الآفات أذهان

ولا تخيلت أن الناس كلهم
فى السر والجهر غيلان وذؤبان

ولا توهمت أن الكون واحرى
حلم يراه من الأرباب سكران

واننى موجة فى زاخر لجب
من الورى ماله كالبحر شطآن

بحر كما شاءت الأقدار مصطخب
أصم ليس له باللين ايذان

ما كنت آمل أن أحيا بمنتزح
عن الهموم وهل عنهن حيدان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعددت للدهـــر درعا كنت أحسبها
متينـــة فاذا بالدرع كتـــان (٢٠٦)

ان هذا اليأس الذى وصل اليه الشاعر لا يأمل أن تفارقه الهموم فى حياته كفيل بأن يصهر النفس ويلهبها ســـخرية مرة حزينة بقدر مافى اليأس من مرارة الأحزان ، وان عجز الشاعر أمام الدهر ، وفشله فى المقـــاومة ، وخيبة أمله فى نفسه وكان يظنها قادرة على الخلاص ، هذا كله يقف وراء النفثات الملتهبة التى يزفر بها لسان الشاعر وقلمه ·

بين شعر المازنى ونثره :

رأينا فيما تقدم كيف عبر شعر المـــازنى عن الجـــانب الانسانى من حياته ، علاقاته بالناس ، نظـــرته الى الحيـــاة والموت ، تأثره بكل ذلك ، انطباعاته ، وفى النهاية شخصيته المميزة المعروفة ·

والواقع أن شعره فى مجموعه يمثل هذاالجانب ولا يمثل غيره ، ولعله هنا يطبق فكرته عن الشعر ، ومنهجه الذى أخذ به ونادى اليه ، وتمثله مدرسته مع زميليه العقاد وشكرى ، هذا المنهج القائم على اعتبار الشعر صدى للانسان ، ونفسه ، وتعبيرا عنه ، وصورة لعـــواطفه ، ومشـــاعره ، وانعكاسات الحياة عليه ·

ولعل هذا هو ماطبع شعره بمزيج من الجدية والعبوس لانجد فيه روح الفكاهة ، الا القليل ، ولا تخرج سخرياته فى شعره عن هذا الطابع ، رغم انه فى مواقف كثيرة كان رجل فكاهة ومرح ونكتة لاقطة بارعة ·

ولقد سبق أن بسطت الرأى فى أن سخرية المازنى تتخذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسلوبين في التعبير ، أحـدهما عابس متجهم ، والآخـر فكه باسم ، ولكن هذا لايخـرج عن اطـار التنفيس عن الألم ، والتخفف من الحزن الدفين ، وفي نفس الوقت الابداء الخفي للرغبة في الحياة • هذه الرغبة التي هي في الواقع طبيعية فينا الى حد كبير أو الى حد الغريزة ، والتي قد تشتد وتشتد حين يكون هناك معاناة ، وألم ، وظروف شخصية قاسـية ، وحين يصاحب ذلك كله خضوع الانسـان لمؤثر أقوى يتصل بالموت ، وفكرة الموت ، وكأن هذا التعلق بالحياة يرضي حاجة طبيعية فينا الى الاحساس بالأمن ، والدفاع عن النفس ضد مايهددها بالفناء في كل صوره ، وفي هذه الحالة قد لايعني حب الحياة والتعلق الشديد بها أن المحب المتعلق سعيد بهذه العلاقة بينه وبين الحياة ، انما هو ارضاء للغـريزة وتشبث بها ، وايثار للنفس في عناد واصرار •

وفي مثل هذه الحالات أيضا فان البسمة لاتعني السعادة، وان كانت موحية بها ، وتهيىء الجو لها ، وهي تعني المقاومة، وتعين عليها ، وتقوى بهـا ، ولذا كانت ضرورية للانسـان ليستعين بها على مشكلاته ، وليبدي بها قدرته على الصبر ، وعلى التوازن ، وانه لم يفقد الأمل •

ومن هذا المدخل فان السخرية الباسمة مهما كان مصدر البسمة ، ضرورية للحياة ، وللنفس الانسانية وللادب ، حتى وان بدت البسمة في بعض الأحيـان طـارئة وعارضة على الشخصية في مثل الصورة التي يرسمها المازني :

مقطـب فـاذا ما افتر عابسـه
فذاك سخر أسى في النفس مدفون (٢٠٧)

وهـذا الأسى من العمـق والشـدة بحيث لا تكفي تلك

البسمة للتخلص منه . وان كانت مؤشرا على قوة النفس والصبر والمقاومة . فان أسباب الثورة وعوامل الغضب ماتزال كامنة حتى تأتى الفرصة ، ونعود هنا الى قول الشاعر :

فليست تحس العين الا حنادسا
تضىء مجالى هوله المتفاقم
ولا الأذن الا ما تقص رياحه
على المرج فى هباتهن الغواشم
فيضحك منها ساخرا ، غير أنه
اذا جلدته ثار ثورة ظالم

هذا هو شعر المازنى فى طابعه العام ، شعر عابس متشائم ، لا يفتر ثغرة الا قليلا ، ملىء بالشكوى من الزمان ، ومن الحياة ، ومن غدر الاصدقاء وهجران الأحباب وغرورهم .

فالسخرية بالمعنى الفكه تكاد تكون نادرة فيه أو يمكن القطع بأنها غير موجودة على الاطلاق ، أما السخرية المرتبطة بالحزن ، والتى تعنى موقفا معينا من المفارقات والآلام الضاغطة على النفس ، فانها هى السائدة فى شعر المازنى تلون ألفاظه ، وتتخلل سطوره ، وتغلب على مضامينه ، تعرض نفسها بأساليب مختلفة ، ولا تحجم عن استخدام أقذع السباب ، وأشد التهكمات قسوة ، فتخرج أحيانا عن حدود الاعتدال وتتجاوز طبيعة السخرية الهادئة الرزينة ، التى فى الواقع نفتقدها ونبحث عنها فى شعر المازنى ، ويعيينا البحث دون أن نجد أثرا لها أو دليلا ، كأنها تركت هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرداء للنثر ، وآثرت أن يكون لها زى خاص ، فيه من شعور الشاعر وانفعالاته الشيء الكثير ٠

حتى ألفاظ السخرية التى جاءت على لسان الشاعر ، تعنى أن مفهومها لديه هنا متغير تماما عن مفهومها فى النثر ٠

١ ـ وقد سبق الحديث عن الموج وهو يسخر من الرياح ضاحكا حين تقص عليه قصتها ، وفى هبوبها الغاشم ، عنفوان وتجبر ، لم تأبه لها الأمواج ، ولم ترتع ، بل أن سخريتها هنا نوع من الاحساس بقوتها أمام غرور الرياح الذى أوهمها بضعف هذه الكائنات التى تتماوج أمامها ، وتتكسر على ضرباتها ، ولكن الأمواج تسخر منها لتشعرها بضعفها ، وبأنها تملك هى الاخرى من وسائل اظهار القوة ما قد لا تقوى هى عليه ورغم الضحك الساخر فان لديها نفسا تحمل ثورة الظالم ، وليس ثورة المظلومين ٠

ليس فى الأمر اذن فكاهة ، وان كانت السخرية واضحة ٠

٢ ـ ووردت الكلمة مرة أخرى فى مناجاة الهاجر للزمن :

لسوف أسخر منه وهو يطلبنى
ودون ذلك أصفاح وكثبان

وهى هنا نوع من التشفى ، لأن الزمن لن يستطيع الوصول اليه بعد موته ، مهما خيل اليه أنه يمكن أن يستمر فى طلبه ويلح عليه ، لأنه فى حمى الموت ، وهذا الزمن القوى الجبار على الاحياء قد أصبح ضعيفا عاجزا أمام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموتى . لا يستطيع أن يرهقهم بآلامه ، وصروفه وعذاباته المتواليـــة ، لأن دون ذلك فواصـــل قوية ، لا يمكن تحطيمها والنفاذ منها ٠

والتشفى هنـــا يحمل رصيدا كبيرا من الاحساس بآلام الماضى وأهواله ، وتحميلها كلها للزمن يعطى دلالة على مدى حجمها ، وعلى مدى التأثر الذى مازال الشاعر يعانى منه ، ويستجيب له ٠

لا نحس في هذه السخرية حلاوة الفرح بالخلاص ولا لذة الاحساس بمتعة النصر ، بقدر ما نحس التشفى الحزين الذى يعبر عن نفسه بعيـــدا فى أعمـــاق المجهـــول ، حيث الأمان والحماية لا يلتمسان من ذات النفس ، ولا من الآخـــرين ، ولكن من الموت الذى قد يكون مصـــدر اضطراب الناس فى احساسهم بالأمن والحماية وهم أحياء ٠

السخرية نفسها مفارقة أخرى تحتاج الى سخرية جديدة منها ، وكأنها لغز ســـاخر فيه أشـــياء كثـــيرة ، وايحـــاءات عديدة ٠

٣ ــ ولقد مرت منذ قليل الاشارة الى ارتباط السخرية بالأسى الدفين ، وصدورها عنه ، ودلالتها عليه ٠

وهذا كله يشكل مغايرا لوجه النثر لدى المازنى يغرى بالسعى الى ايجاد نوع من العلاقة بين شعره ونثره ، يفسر ما بينهما من اختلاف فى الاسلوب ، وفى منهج السخرية على الأخص ، فقارىء المازنى لا يصـــعب عليه ملاحظة الفـــارق الواضح بين طابع السخرية فى كتاباته ، وطابعها فى شعره ، ممـــا يشكل رغبـــة فى التساؤل والتعرف على أبعـــاد هـــذه

الشخصية الفنية التى تبدو وكأنهـا حين تكتب غيرها حين تنظم الشعر ٠

ولكن الامر لا يستوجب هـذا التصـور ، فالشخصية الواحدة لا تتعدد ، ولا تنقطع السبل بين نوعين من انتاجها مهما بدت الصلة بينها بعيدة أو خفية ٠

والواقع أن الصلة بين شعر المازنى ونثره صلة قوية ، عميقة عمق النفس التى يصـدر كل منهما عنها ، لا يتمرد عليهـا ، ولا يهمـل أحاسيسها مهمـا تنوعت الموضـوعات والتجارب الخارجة عنها ، فالشعر والنثر من داخلهـا ، من دموع أحزانها ، ومن ثنايا بسمتها ، ومن ذوبان العواطف فيها ٠

بل ان هذه النفس هى التى شكلت شعرها ونثرها على النحو الذى تريد ، وفى الصورة المتوافقة معها ، والملائمـة لحالتها ، ووزعت عليها الأنصـبة ، وهى لا تشك فى أنهـا منطقية مع نفسها ، ومع وليديها ٠

أرادت لأحدهمـا أن ينقل عنهـا ، ويتحدث بلسانها ، وهى فى عنفوان احساسها بالألم ، أو هيامها مع السعادة ، وان كانت للحظات ، فكان عند ارادتها ، وكان مرآة عاكسة لعنف الاستجابة للألم ، وقوة الاحسـاس بالعاطفة وشـدة التأثر ، أرادته لسان ثورتها العارمة وغضبتها الشـديدة ، فكان هذا اللسان الثائر الغاضب ، والذى تتهدج عباراته ، وتفور وتغلى كأنها الحمم ، أو تشكو وتتبرم وتعاتب وتلوم وتتعالى أو تتواضع ، ولكنها ماتزال على عهـدها بالثورة ، وعلى حنينها للغضب ، وفاء لنفس الشاعر وتعبيرا تلقائيـا عنها ٠

وهى هى النفس التى أرادت للآخر أن ينقل عنها أيضا، ولكن فى دعة وهدوء ، وفى غير انفعال شديد ، لم يتخلص من العاطفة ، ولكنه ليس منساقا معها ، ولم يتركها تسيطر على خواطره وأفكاره ، فبقى قادرا على المناقشة ، وعلى أن يستلهم عقله ، وعقول الآخرين ، ويعايش المجتمع ، ويخاصمه ، وينازعه ويوجه أفراده الى الاصلاح بطريقته الخاصة ، التى ظل مسيطرا عليها رغم ما يجد عليه ، ورغم ما يتعرض له من معاناة ٠

وهى هى النفس التى ربطت كلا النوعين بالآخر ، وان جاء الرباط من الداخل ، فتركت بصماتها واحدة على الاثنين ، وان احتفظ كل منهما بشخصيته الفريدة البارزة فاذا بنا نرى خطا سحريا ، ولكنه منطقى ، ونحاول الآن أن نتبين معالمه ، ونستوضح أبعاده ، ونستمتع باستجلاء غوامضه ٠

وفى هذا الضوء ٠٠٠ أكاد أرى أن شعر المازنى يحمل العوامل الرئيسية المؤثرة فى نثره ، ويصور نفسه ، ويبرز مكوناته الداخلية ، فى الوقت الذى يعتبر نثره نتاجا جيدا لهذه العوامل والمكونات ، وترجمة واعية عنها ٠

والمازنى فى شعره يميل الى التلقائية ، ويعبر عن نفسه فى صراحة مباشرة ، يكابد آلامها ومتاعبها ويصور حرارتها ، وازدحامها ، بالعواطف والمشاعر ، شأن معظم الشعراء الرمانسيين ٠ فاذا أخذ يكتب ، وهذه على ما يبدو مرحلة تالية لشعره تتخذ العواطف والمشاعر منحى عقليا صرفا ، فيه الشرح والنقد والوصف والسخرية والتهكم والفكاهة ، ولكنها فكاهة الضحك من المفارقات والبسمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرة ، والدعابة العريضة التى تخفى وراءها أحزان النفس، أو تكون خلفتها نصيبا خالصا للشعر ٠

لذلك ليس غريبا أن نرى لكل من شعر المازنى ونثره روحا خاصة ، وطابعا مستقلا ، وان صح لنا أن نعتبر النثر فى مرحلة متقدمة بالنسبة للشعر بصرف النظر عن عامل الزمن بينهما ٠

ومن حسن الحظ أن شعره هنا يحتفظ بكل خصائص الشاعرية ، ونثره يمثل مواصفات النثر الفنى العالى ــ دون أن نحفل هنا بالموضوعية أو الذاتية ، ونصيب كل منهما فى شعره أو نثره ــ فان ذلك لا يؤثر على موضوع الشاعرية أو النثرية ان صح لنا أن نقول ، ولأن كلا من شعره ونثره أخذ من كل من الموضوعية والذاتية مقدارا أقرب الى أن يجعلهما متساويين أو متوازيين ، وان كانت موضوعية المازنى لا تنفصل فى شعره أو نثره عن ذاتيته ٠

وفى اعتقادى أن هذه القضية لا تمثل أهمية ما فى مجالات الشعر العالى والنثر الفنى ، ومن الظلم للشعراء والكتاب أن نحاول فك ذواتهم عما كان يشغلهم من موضوعات ، أن النظرة الكلية الشاملة للشعر والنثر من هذه الناحية أجدى على الأدب والفن ٠

(جـ)

سخرية المازنى فى شعره !

مما يلفت النظر فى هذا البحث أن شعر المازنى ، وهو قطعة من نفسه ، وهو ذاته الحقيقية بما هى عليه ، وبما أكتسبت وتأثرت وانفعلت بالحياة من حولها ومن داخلها ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن هذا الشعر لم ينج من سخرية الشاعر واستخفافه ، كما لم ينج نثره أيضا من هذه السخرية ، فهل كان هذا امتدادا لسخريته من نفسه كانسان شأنه شأن الآخرين ؟

هل هى العادة تغلب صاحبها ، فتظهر عليه حتى فى الظروف التى كان ينتظر أن تختفى فيها ؟

ولكن الأمر ــ على ما يبدو ــ قد تجاوز حدود السخرية التى مهما قيل فيها فهى موقف خفيف ، ليس مفرطا فى العنف والشدة ، فقد عبرها الشاعر الى موقف يحتاج الى التأمل ٠

لقد تمنى الشاعر أن يقبر شعره وتوضع عليه الأزهار :

ليت ديوانى يكون له	من بديع الزهر تيجان
فكان الشعر فى جدث	فوقه ورد وريحان
يالها من حفرة عجب	كل ما تطويه أشجان
كل بيت فى قرارته	جثة خرساء مرنان
خارجا من قلب قائله	مثل مايزفر بركان (٢٠٨)

فلماذا ؟ هل ظن أن شعره لن يحظى بالاهتمام ، وأقصى مايريده له أن يلقى بعض الاهتمام بعد الموت ؟ وهذا فى الواقع يذكرنا بنفس الرغبة للشاعر ، والتى رأينا منها تعلقا بالحياة كشف عن نفسه من خلال التطلع الى عناية خاصة أثناء الموت وبعده ، فهل الأمر هنا من هذا النوع ، هل يتمنى الشاعر خلود شعره ؟ ويدعو اليه ؟ أم أنه يائس من هذا الخلود ؟ وهذه الدعوة نوع من رد الفعل لليأس الشديد ؟

مهما كان الأمر فان مغالاة الشاعر فى تشاؤمه هى مصدر هذه الأفكار ، وهى المسئولة عن موقفه هذا من شعره ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعله رأى كثيرين من الشعراء لم توصلهم امكاناتهم ، أو لم يصلوا رغم مكانتهم الشعرية الى المستوى المادى المناسب، والذى يوفر لهم الحياة المعقولة ، وبدلا من أن يلقى اللوم على ظروف الحياة ، أو على العوامل المباشرة فى ضعف المستوى الاجتماعى والاقتصادى آخذ يلقى المسئولية كلها على الشعر نفسه • وتحول الأمر بعد ذلك الى استخفاف وسخرية كأن الشعر فى النهاية ليس أهلا لكل مايحوطه من تقدير •

ولعل مما يؤكد ذلك أن الشاعر أصبح يخشى على ابنه أن يكون شاعرا ، بل انه لايخشى عليه السفه واتلاف المال ، ولايخشى عليه أن يدركه الزهد فى الحياة فيعيش معدما محروما ، حتى الانحرافات الخلقية الخطيرة لايخشاها الشاعر على ابنه ، فلا يخشى عليه أن يتحول الى شرير يصيب الناس بشره ، ويحجب عنهم خيره • انما يخشى عليه فقط أن يمنى بموهبة الشعر :

لا مال أخشى منه اتلافه ... عباس فى المقبل من عمره
ولا أباليه اذا ما غدا ... يزهد فى العيش وفى وفره
يعدو على الناس بسوءاته ... ولا يصيب الناس من خيره
ولست أخشى ان رآه فتى ... قد وسع العالم من شره
لكنما أشفق ياصاحبى ... من أن يجيش الشعر فى صدره
من يشترى شعرى على حبه ... براحة الفاضل عن دهره
من يشترى تغريدتى موهنا ... بغطة الذاهل عن فجره
من يشترى دمعا يحس الفتى ... جولته لا الفيض من قطره
من يشترى نفسا وآلامها ... بثقله المأفوك فى فكره
من يشترى هذا سوى مائق ... يسعى برجليه الى ضره؟(٢٠٩)

انه يرى فى الشعر قلقا وآلاما ودموعا ، لأنه يخرج من

نفس قلقة جياشة بالألم والعناء ، ومن قبل يصوره كأنه الحمم التى ينفثها بركان مشتعل ٠

انه يرى فى الشعر الصورة الظاهرة للألم والمشهد المرئى لخفايا المشاعر القاسية التى تغلى فى فؤاده ، فأشفق على ابنه أن يطلعه الشعر كل يوم على صورة نفسه كأنه يرى من الخير أن نغلق النفس على مافيها ويكفى أن نشغل به داخليا ، فلاينبغى أن نضيف الى حياتنا شاغلا جديدا هو من صنع أيدينا ، فنفضح حياتنا ، ويحرمنا من لذة الحياة فى الوهم ، والتغابى عما يدور فى النفس ٠

ولكن الشاعر يصل به الأمر الى أن يقف من شعره وقفة موضوعية تظهر جزءا من رأيه ، فانه لا يجد فى شعره فقط صورة نفسه وحياته الغادرة ، وظروفه الصعبة ، ولا يجد أنه قصر به عن بلوغ الغاية التى يريد ، وخيب أمله فى أن يضيف الى حياته ما ينتظر الشعراء من شعرهم ٠ ليس هذا فحسب ، ولكنا نرى هنا موقف المقارنة بين شعره وشعر العقاد صديقه وزميله فى الحياة الأدبية ، لقد أطلعتنا هذه المقارنة على أن المازنى كان يرى فى شعره قصورا عن أن يكتب له الخلود ، وأنه أقل من أن يضيف شيئا الى الأدب المصرى ، بل أن شعر العقاد فى نظره أكثر قدرة على التعبير عن المعانى التى كان يحسها ولا يدرك كنهها ، أو يدركها ولا يستطيع أن يعبر عنها ، يقول المازنى فى شعر العقاد :

« انى اطلعت من شعر العقاد على نواح كانت محجوبة عن عينى ، وانى وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ، ولا أكاد أدرك كنهه ، أو ما أدرك ولا أقوى على العبارة عنه ، وانى زدت للحياة فهما ، وبها شعورا وعلما » ٠٠٠٠ « وانتهيت الى انه لا خير فيما قرضت من الشعر ، وأن الأدب المصرى

لا يزيد به ولا ينقصه اذا فقده ، فكففت عن نظم الشعر ، ونفضت يدى من القريض » (٢١٥) ٠

ومع ذلك فان رأى الشاعر هذا لا يخلو من التواضع والمجاملة لصديقه العقاد ، والأمر على ما يبدو يمثل نظرة الشاعر الى حياته والى نفسه ، وشعره فى الواقع جزء من حياته ، وجزء من نفسه ، أو هو نفسه على حقيقتها بكل تأثراتها ، وبكل ما كان الشاعر يحس من مشكلات ويتمنى أن يجد لها حلا أو يتخلص منها ٠

ان حياة الشاعر وظروفه الشخصية وعلاقاته الأليمة بالناس قد جنت على شعره ، فاذا شعره فى النهاية لا يسلم من جناية الشاعر عليه ٠

ولكن الشعر حى بنفسه رغم انه يصور حياة أخرى ورغم أن الشاعر لا يقدره حق قدره ، وسر حياته انه منذ خروجه الى الوجود ينفصل عن ذات قائله ، وان ظل منسوبا اليه ، كأى كائن حى آخر ، يجد سبيله الى الحياة عن طريق الآخرين ولكنه منذ هذه اللحظة يمارس وجوده وحقيقته المستقلة ٠

ان شعر المازنى سيبقى دائما صورة حقيقية للمازنى ، صورة لنفسه الشاعره ، ونفسه المتأملة صورة لتجربته مع الحياة ، وجدنا فى ثناياها الخيوط الدقيقة لما عرف فى أدبه بالاسلوب الساخر ، ودلتنا الألوان الخاصة للصورة على طبيعة هذه السخرية ، وعمق صلتها بالنفس ، وقوة تعبيرها عن التجارب القاسية الصعبة التى عاناها أو عانى منها الشاعر طوال حياته ، ولولا هذا الشعر لكان من الممكن أن يضل البحث وراء هذه الظاهرة الحية المثيرة فى أدب المازنى ٠


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

سخرية المازني وآراؤه النقدية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

السخرية أسلوب من أساليب النقد ، لأنها تعبر عن رأى معين للساخر أو نظرة خاصة له ، أو احساس خاص تجاه حالة أو ظاهرة ، أو منظر لا يتفق مع الظواهر الطبيعية المألوفة فى نظره ·

اذا كانت السخرية تتناول فقط الجانب السلبى من الأمور لتسلط عليه أضواءها ولذعاتها فان هذا يعنى أنها تميز بين صورتين للظواهر ، الصورة الطبيعية المقبولة ، والصورة الشاذة التى تثير روح المقاومة ، وبهذا تستكمل خصائص النقد وتزاحمه فى مهمته ·

والساخر انسان ناقد بطبعه لأن حواسه المرهفة التى تتنبه فى سرعة وذكاء للامور وتعاملها بما يوافق طبائعها المختلفة ، وبأساليب متعددة على حسب نوع الظاهرة وقوتها وصلتها بالمجتمع ، هذه الحواس أقدر من غيرها على التمييز بين الاشياء ، والتعرف على جوانب الحسن فيها أو على ماتمثله من متناقضات ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والساخر بأسلوبه الخفيف بما فيه من فكاهة أو من مرارة ، يستطيع أن ينفذ الى النفوس فى يسر بنفس القدرة التى استطاع أن ينفذ بها الى صميم الاشياء ، وربما قبل منه النقد اللاذع فى الوقت الذى لايقبل من غيره ، لأن النفوس قد لاترى فيه التجريح المباشر أو الهدم المقصود الصريح ، ولذلك فقدغفلت عنه الحكومات أو تجاوزت مع أن تأثيره لايقل فى عمقه وقوة انتشاره ودوامه عن تأثير الحركات الثورية الصريحة .

ولهذا فان النقد الساخر قد يجد سوقا عامرة يروج فيها ويذيع ، ويؤمن به الكثيرون من الشعراء والأدباء فلا يلبث أن يصبح ذا قوة مؤثرة فى الحركة الأدبية .

ولعل هذه الخاصية فى أسلوب المازنى هى التى مكنته من أن يقوم هو والعقاد وشكرى حركة نقدية قوية فى أوائل القرن وفيما بين الحربين على الخصوص ، ولعله كان الواسطة التى جمعت بين قوة الاتجاه الفلسفى عند العقاد وبين التلقائية الشعرية عند شكرى ، على الرغم من الخلافات التى حدثت بينه وبين شكرى فيما بعد وكان العقاد هو رسول السلام بينهما فهذا الجانب الشخصى لايمنعنا من أن نقدر الدور الهام لأسلوب المازنى فى التقريب بين قطبى الفكر والشعر فى اطار حركة أدبية ونقدية واحدة .

ولعل «الديوان» للعقاد والمازنى مدين لهذا الازدواج بين طبيعة المفكر وروح الفنان الساخر ، فاحتفظ الديوان بقيمته كأحد الكتب الرائدة فى تاريخنا الأدبى الحديث ، وان كنت أرى فيه رأيا خاصا يضعه ضمن دائرة الكتب النقدية التى لاتلتزم تماما بالموضوعية .

فالسخرية نقد مهما كانت الآراء التى تعبر عنهـا بعيدة كل منها عن الآخر ، ولا تضمهما وحدة أو سلسلة من التجارب المندرجة فى ميدان واحد ٠

ونحن غالبا لانطالب الأديب بأن ينظم لنا آراءه كلها فى اطار واحد بحيث يسهل علينا أن ننقلها نقلا أو نتعرف عليها بالطريق السهل الذى لايستنفذ منا جهدا كبيرا ٠

وربما لايختلف النـاقد عن الأديب كثيرا ، ولاينبغى أن تختلف نظرتنا لكليهما مهما بعدت مهمة كل منهما عن مهمـة آخيه ٠

ذلك أن الناقد هو الآخر فنان ، ولايملك أن ينظم آراءه النقدية ويسجلها مرة واحدة ، ويظل حياته كلها يدور حولها دورانا أشبه بدوران الفراش ٠

ان آراء الناقد تتـولد فى كل يوم وفى كل لحظـة كلما تولدت أمامه تجارب جـديدة ، وقد لاتسـاعد بعض هـذه التجارب على تكوين رأى جـديد ، وقد لاتثير فيه سـاكنا ، ولا تحركه نحو مافيها من ظواهر ، وقد تستغرقه تجربة واحدة فتأخذ منه كل اهتماماته وتستولى على مشاعره ، وتسـتنطق منه أهم مكونات رأيه فى الحياة وفى الادب ٠

والناقد الساخر أكثر قربا من الفنان بحيث يبدو أمامنا انسانا تلقائيا يتأثر بالظواهر حال ظهورها له ، أو اصطدامه بها ، وقد يبقى أثر الصدمة طويلا ، وقد لايستطيع أن يعيش اذا ماطرأت عليه آثار أقوى لظاهرة جديدة ٠

ومع ذلك فلا تضيع آراء الناقد فى هـذه الحياة النشطة المتقلبة ، لأنه فى معظم الأحوال لايضيع أمام هـذه الظواهر

والتيارات بل يظل متماسكا ، ولو الى الحد الذى يحتفظ فيه بما يمكن أن نعتبره فى النهاية طابعا فريدا يميزه عن غيره ، ويعطيه دوره فى الحياة، فلا يصعب علينا بعد ذلك أن نتعرف على مدرسته وعلى الاتجاهات التى يتبناها ، والحركات التى يقودها أو ينضوى تحت لوائها ·

حتى مايبدو فيه أحيانا من تناقض لايخفى علينا ، فانه رغم التجارب العديدة والاحداث المؤثرة والظواهر البعيدة والقريبة ، يظل بارزا للعيان مكشوفا للضوء ، حتى غموضه يظهر كنقطة مستقلة بارزة فى جانب محدد من اطار الصورة ·

هكذا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ونحن ندرس العلاقة بين سخرية المازنى وبين آرائه النقدية ·

والواقع أن المازنى عن طريق فكاهاته الباسمة أو الباهتة وأسلوبه الساخر الذى ـ رغم صفائه وشاعريته ـ يخفى احساس صاحبه بالمرارة والألم ، قد قدم لنا بعض الملاحظات النقدية العامة التى يمكن أن تميز فيها بين نوعين من النقد :

أحدهما النقد الاجتماعى :

أو مايمكن أن نسميه نقد الصفات الاجتماعية المنحرفة عن الطريق السوى للانسان أو نقد الصفات الانسانية التى تتحول الى سلوك غير اجتماعى ، ويمثل هذا موقفه من غدر الأصدقاء ، وتنكرهم للصديق واضطراب نظرتهم له من النفعية الرخيصة الى الاهمال عندما لايكون هناك نفع يرجى من قربه ·

ويدخل تحت هذا كل مايمس ظاهرة اجتماعية أو يتناول سلوكا اجتماعيا معينا بغرض الضرب عليه ، وهزه ، حتى ينهار بناؤه ، فيخلو المجتمع الانسانى منه ٠

ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال حملته على المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء ، وعبثه بحلاق القرية المتخلف الذى كان يعيش كما كان آجداده فى دنياهم القديمة البعيدة عن آساليب الحضارة المدنية ٠

والمازنى بهذا الأسلوب عبر عن نفسه وعن المجتمع فى وقت واحد ، وأعطى صورة لما يرى أن يكون عليه السلوك الطبيعى للعلاقات الانسانية ليس عن طريق وصف العلاجات التى تعيد البناء النفسى والاجتماعى للناس وللمجتمع، ولكن بابراز الصور وتجسيدها وتقوية احساس النفوس بها ، ووضعها فى الاطار والظروف التى تجعلها قلقة فى مكانها دائما ٠

فليس المازنى باحثا اجتماعيا ، ولا حتى كاتبا اجتماعيا، والا لانقلب آسلوبه الى سرد للحقائق وتمييز لها بالشرح والاحصاء ، أو لانقلب الى واعظ اجتماعى يهدى ويرشد فتضيع منه فى خلال هذا وذاك قدرته على السخرية ، لأن السخرية ادراك للأشياء باسلوب فنى قادر على تخليصها من جفاف الحقائق الواضحة ، وفى نفس الوقت ، تصفيتها من المشاعر العميقة للكاتب حتى تتقبلها النفس كما تتقبل المعانى المجردة وتتناولها بسرعة وهى فى أتم نشاطها وحيويتها فتكون عملا فنيا خالصا ، وان حققت وبصورة مجدية بعض آهداف النقد ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثانى : النقد الأدبى :

اننا نعرف أن المازنى من رواد النهضة الأدبية فى مصر، ومن أعلام النقد الأدبى الذين كان لهم دور بارز فى حركة التطور ، والذين تناولوا الظواهر الأدبية والشخصيات الأدبية التى كان بعضها يحتل مكان الصدارة فى حياتنا الأدبية . تناولوا كل هذا بالنقد الهادىء حينا واللاذع حينا آخر ، ولكنه فى جميع الحالات كان نقدا بناء مهما كان فيه فى بعض الظروف من شدة وقسوة ٠

ان مدرسة المازنى والعقاد وشكرى معروفة ، والدور الذى أدته للحركة الأدبية الحديثة لايصعب ذكره والتعرف عليه ، وتبين آثاره على الانتاج الادبى فى النصف الأول من هذا القرن ٠

ولكننا فى هذا البحث لانحاول أن نستقصى آراء المازنى النقدية ، أو نستقرىء جهوده فى النقد ، فمن شاء أن يبحث عن ذلك فليرجع الى «الديوان» والى مقالات المازنى المتفرقة فى هذا المجال ٠

اننا هنا بصدد مايمكن أن تعطينا نبراته الساخرة من ملامح نقدية تمس حياتنا الأدبية ٠

فى هذا الصدد يمكن أن نعود الى موقفه من الدكتور طه حسين ، وكيف استطاع ــ رغم مكانة الرجل الأدبية ــ أن يلقى الأضواء على ما رآه موضعا للنقد ، ورأى فيه مخالفة للصورة الأدبية المثلى التى كان متعلقا بها ، لقد كان الاسلوب الساخر الذكى الذى استخدمه المازنى فى معالجة بعض الآثار الأدبية لطه حسين هو وسيلته المقبولة لبسط رأيه والتعبير عن

وجهة نظره ، فكان ناقدا ساخرا وأعطاه ذلك جرأة يحسد عليها ، حتى أنه أنكر وجود طه حسين نفسه على غرار طه حسين فى انكاره وجود مجنون ليلى المعروفة قصته فى الأدب العربى ، واستخدم فى انكاره اسلوبا ساخرا مضللا ، فعرض لطه الأزهرى ، وطه أفندى كما لقبه عبد الرحمن شكرى فى فترة ما فى الجريدة ، وطه الدكتور الذى كتب عن أبى العلاء المعرى ، وخرج من ذلك بأن المشتركين فى هذا الاسم ثلاثة أشخاص مختلفين «شيخ وأفندى ودكتور» (٢١١) فالأرجح اذن أن يكون الاسم مستعارا وليس حقيقيا ، والغرض من ذلك أن يوحى باختلاط الامر على طه حسين ، أو اتهامه بالمغالطة وتكلف الشواهد للانكار ٠

وهذا النقد يحمل معنى الرفض لرأى طه حسين فى قصة المجنون ، وان لم يكن رفضا صريحا مباشرا ، ومع ذلك فاننا نلاحظ أنه فى نفس الوقت يؤيد الطريقة التى اتبعها ، ويؤيد حريته فى التناول ، ويثنى على قدرته فى التعبير ، يقول المازنى فى تعليقه ، «أشهد أن الدكتور كان بارعا فى بسط رأيه ، وفى ابراز الشبهات التى تحوم حول هذا الشعر ، وتضعف الثقة فى نسبته الى الجاهليين وفى تأكيدها أيضا ٠ ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه الرسالة التى جاءت على خلاف عادة الدكتور خالية من كثير من حشوه المألوف» (٢١٢) ٠

وواضح أنه يتهكم بالحشو الذى يتهم به أسلوب الدكتور طه حسين ، وهو نوع من النقد يتيحه أسلوب المازنى حين يقدمه بين السطور من غير تركيز ولا ضغط ولكنه يحمل فى حناياه عوامل قوة نادرة تستمد امكاناتها فى التأثير من الجو

العام ، ومن عرض الفكرة كأنها من المسلمات ، أو حقيقة من الحقائق الشائعة المعروفة التى لايناقضها أحد أو رأى .

ومع مايبدو أنه يقر الدكتور طه على موقفه المتحرر من الشعر الجاهلى ، ويمتدح براعته فى عرض رأيه ، فانه لايخفى استخفافه بهذا الرأى عن طريق الحكم عليه بتفاهة النتائج التى أحدثها ، وعجزه عن أن يغير من الأمور شيئا ، فيقول المازنى مكملا تعليقه «... غير أن الشعر الجاهلى لايصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله ، وكل مايجد أن نسبته تتغير أو تصحح ، وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة ، وأنها لكذلك فى كتاب الدكتور » (٢١٣) .

و نلاحظ هنا أن سخريته تتخلل النقد العلمى بطريقة تؤدى الى الاختلاط بينهما ، فتغرى القارىء بألا يكتفى بالانطباع السريع ، ولكن لابد من التعمق ، وملاحظة الامور من الداخل ومراقبة الجزئيات .

فليس الأمر نقدا متخصصا مكانه مراكز البحث ومعاهد تحليل النظريات ، وليس تعليقا ساخرا يقرأ للتسلى والاستمتاع ويؤخذ ببساطة وهدوء .

فالكاتب يعرض فكرته كما تعرض النظرة الموضوعية ، ولكن يتخللها ــ فى يسر واصرار ، أو ينهيها فى ثقة ــ غمز ساخر قد لاينتبه اليه القارىء فى أول الأمر ، ثم لايلبث أن يحسه وقد أشاع فى الموقف كله جوا خاصا سرعان ماتتضح جوانبه بعد غموض .

ومن السهل أن نجد هذه الظاهرة الأسلوبية فى نفس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعليقه على موقف طه حسين من الشعر الجاهلى ، فانه بعد أن يمتدح طريقة الدكتور طه فى عرض رأيه ، ينفى أى نتيجة حاسمة لهذا الرأى على الشعر الجاهلى الا فيما يمكن أن يؤثر على طريقة البحث فى المستقبل ، ثم ينتهى الى صراحة كأنها الغمز القاسى فينفى تأييده لرأى الدكتور طه ، ثم يعود فيمتدح حجته التى عرضها بأنها جاءت أقوى من حجة القدماء، ثم يعود مرة أخرى لبيان مكان رسالة الدكتور التى حملت هذه الآراء فيصفها أنها ليست أكثر من باب فتحه الدكتور طه لطلاب الادب الجاهلى ، ثم يبدأ فى ابراز ملاحظاته عليها وبيان مافيها من مآخذ وعيوب فيرى أنها «لم تخل من المآخذ ، ولم تبرأ من السقاط ، وأن أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها ، ذلك أنه لم يوفق فى التطبيق ، ولم يأت بشىء له قيمة ولو زهيدة حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلى بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه (٢١٤) •

ولعلنا نستطيع أن نلاحظ فى اختياره لفظ التفلية غمزا موحيا يعطى معناه من الناحية الموضوعية ، ويترجم عن المازنى فى تناوله الساخر للموضوعات العلمية •

ولكننا من ناحية أخرى نلاحظ جانبا شخصيا للكاتب لاينبغى أن نغفله ، فانه اذا كان له وجه الحق فى مثل هذه المناقشة واستخدام الاسلوب الساخر الذى فطر عليه ، والذى يستخدمه ليؤكد ذاته ويعبر عن نفسه بطريقته الخاصة والفريدة ، رغم ذلك ، فان رأيه فى أسلوب طه حسين لايخلو من مغالطة • فانه أخذ على الدكتور طه حسين قابلية أسلوبه للتقليد « لأن الاسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة وطريقة فى تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه الخصوصيات أوكد وأعمق كانت المحاكاة أشق

والاخفاق فيها أقرب ، فهى لا تسهل الا حيث يكون الاسلوب خاليا من الخصائص التى ترجع فى مرد آمرها الى النفس وما ركبت عليه وانفردت به (٢١٥) ٠

اننى أعتقد أن العكس هو الصحيح فى هذه المسألة ، اذ كلما كان الاسلوب فريدا كان أكثر اغراء بالتقليد ، فهل كان المازنى ذا موقف معين من أسلوب طه حسين وصدر عنه هذا الموقف فى صورة رأى علمى ؟ أعتقد أن هذا هو أقرب الاحتمالات ٠ لأننى لا أتصور أن الذين يحاكون اسلوب طه حسين ينجحون تماما فى المحاكاة ، بحيث يشتبه أسلوبهم على القارىء مع الأصل الذى قلدوه ، ولا يمكن اعتبار جاذبية أسلوب ما مدعاة لانتفاء خصائص التفرد عنه ، الواضح أنه موقف نفسى يميل الى انكار الامتياز الفردى للدكتور طه ، وتحول هذا الموقف الى ما يشبه حالة موضوعية يمكن تناولها ليس فقط بالمناقشة الموضوعية ولكن حتى بالأسلوب الساخر الذى يعنى دائما أكثر من التناول الموضوعى ٠

ورغم هذا ، فلم نعرف أن طه حسين قد غضب على المازنى أو شعر بتحامله عليه ، وليس بين أيدينا ما يمكن اعتباره رد فعل من جانب الدكتور طه ، كأن الأمر لم يتعد تعليقا مقبولا للمازنى ، لا ضرورة للرد عليه ٠

فهل كان ذلك بفضل التناول الذكى للموضوع من جانب المازنى ، هذا التناول الذى أشبه باللولبية فى قالب فنى حيث أخذ الكاتب ينتقل من المدح الى اللوم ومن اللوم الى المدح أو كان بفضل ذلك الغمز الساخر الهادىء بين الكلمات كالهمس ، لا يضج ولا يصرخ وانما يمس الفكرة مسا صامتا لا ينزل من قدر الموضوع ، ولا يغض من قيمة صاحبه ، ولكنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فيشعر القارىء أن هناك تقديرا واضحا عادلا ودراسة محايدة ، الا اذا كان الأمر أمر باحث متخصص له رأى قد لا يتفق مع بعض ما ذهب اليه المازنى فى تعليقاته ٠

بهذا الاسلوب الساخر وحده استطاع المازنى أن يقدم لنا آراءه فى بعض انتاج طه حسين ، وفى خصائصه الاسلوبية ، ثم لم يترك لدى طه حسين انطباعا سيئا ، بل أن طه حسين فى بعض أحاديثه الصحفية ، أبدى شعورا طيبا نحو المازنى ، واعترف بحبه له ، وبأنه قريب الى نفسه بفكاهاته وروحه المرحة ، وبأنه أقرب اليه من زميله العقاد ٠

٢ ـ الادعياء والمدعون

للمازنى موقف واضح من الادعاء والمدعين ، الذين فرضوا أنفسهم على الحياة الأدبية بوسائل مختلفة ، واستغلوا الامكانات المتاحة ليكون لهم دور فى أدب الأمة أو اسم ليس على أساس من الموهبة والقدرة الفنية ٠ ولكن بما لهم فى ميادين النشر والطبع من باع طويل أو قدرة مالية ٠

ويعتبر موقف المازنى من هؤلاء موقفا نقديا يمس صراحة الانسان مع نفسه ، ومعرفته بها ، وتقييمه العادل لها ، فلا يضع نفسه فى ميدان الأدب الا من له فيه نشاط ويملك الموهبة الحقيقية والقدرة على اثبات وجوده الأدبى ٠

واذا لم يكن هذا النقد موجها الى ظاهرة أدبية محددة أو الى طريقة فى الانتاج الأدبى أو أسلوب فى الكتابة فانه فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواقع يمس صميم حياتنا الأدبية ، ويمس الاحساس الواعى الذى يدرك مدى ما يكسبه الشخص نفسه ويكسبه الأدب اذا أعفى المدعون أنفسهم من أعباء هذا الميدان ، وأعفوه من أعبائهم ٠

ولعلنا لو حاولنا تقييم الشخصيات التى لها صلة بالأدب ، وشخصيات الشعراء والكتاب ، ووضعنا معايير للأدباء على هدى من هذا التقييم ، لخرجنا بنتيجة تؤيد موقف المازنى وترحب بتوجيهاته المبكرة ، وغير المباشرة ٠

وخير مثال يمكن أن نستعرضه هنا هو الصورة التى عرضها المازنى وقابل فيها بين ذوى العبقرية من الأدباء وبين المدعين ، ولعله أراد فيها أن يصور ما يعانيه النوع الأول من ضيق ، وما يلقى من متاعب الاهمال والزيف وطغيان الادعاء ٠ يقول المازنى ـ حين طار به خياله الى جبل أوليمبيا ـ على أثر قراءته لكتاب أهدته له الأديبة المعروفة «مى» : « تصورت المخلدين من الكتاب والشعراء على قممه وسفوحه وفى مخارمه ، وقد غص بهم وشرق بجموعهم الوافدة من كل آمة ، فأدركنى العطف عليهم والرثاء لحالهم ولما يعانونه من الضيق والكرب ، وتراءى لى كأنهم ضاقوا صدرا بهذه الحال فحشدوا أنفسهم مؤتمرا وقام فيهم الخطباء يشرحون آلامهم ومتاعبهم ويفصلون أسبابها ، ويصفون العلاج ويطرحون الاقتراحات ، وكأنى أسمعهم يذكرون من أسباب هذا الزحام الذى لم يعد يطاق ، فشو التزييف فى مؤهلات الخلود ، وانتشار المطابع والصحف على ظهر الأرض التى لا تزال تتعقبهم مصائبها ، ويقولون أن الصحف دأبها أن تقرظ وتمدح ، وانها قلما تعنى بالغاية والنقد ، أو تكترث للتمييز بين الجيد والردىء ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى اجترأ الضـــعفاء ، واغتر الأدعيـاء ، وزادت الكتب بأنواعها حتى عن حاجة الاسواق ، وحتى صار كل امرئ بعد موته يأتي الى الجبل ومعه حمل بعير من شهادات الصحف فكثر بين الخـالدين الواغلون ومن لا يسـتحقون الا النار طعاما لما سودوا من ورق ، وأصيب سكان الجبل بغلاء الأكال والأشربات الاوليمبية غلاء فاحشا مزعجا يهدد بحدوث قحط عام » (٢١٦) ٠

فهل كان يقصد بهذا أن يمس موهبة «مى» ، ويضعها عند مكان محدود فى عالم الأدب ؟ لا سيما ان مكانة «مى» فى ذلك الوقت كانت قد توطدت كأديبة بارزة تثنى عليها الصحف ويقدرها الجمهور وتحظى بتقدير كثير من الأدباء٠ ويؤيد ذلك أن المازنى لم يقل رأيه صراحة فى أدب «مى» ، ولا حتى تعليقـا على الكتـابين اللذين أهدتهمـا اليـه ، «الصحائف» ، و «ظلمات وآشعة» ٠

وربما كان من فنون النقد السـاخر التظاهر باهمال شخص ما ، مع تناول ما يذكر القراء به ، ويؤكد لديهم أن الكاتب يعرف هذا الشخص جيدا ، ولكنه لم يتناوله لا بالمدح ولا بالذم ، وربمـا كان لنـا أن نتذكر هنـا فن التعريض والتلميح خاصة اذا برع فيه صاحبه فعالج عن طريقه ظاهرة ما ، وقد تكون هـذه الظاهرة خطيرة وهامة مما يشوش على التعريض نفسه فيبدو للقارئ خاليا من أى غرض ٠

ولا يعنينا هنا التأكد من النوايا المحددة للمازنى فيما يتعلق بأشخاص معينين ، وسواء كانت منهم الأديبة «مى» أم لا ، وسـواء آثارت كتاباتها فيه أن يقف هـذا الموقف من الادعاء والمدعين أم أن هذا الموقف نشـأ بدافـع ذاتى وعن ملاحظات الكاتب الشخصية ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المهم أن الكاتب قد عالج ظاهرة لهـا وجودها فى عالم الأدب والأدباء ، وان كان الامر على هذا النحو لا يخلو من ضرورة المناقشة ، لانه ليس بين أيدينا حـدود أو مقاييس نحدد بها الموهبة ، ونميزها عن الادعاء ، خاصـة اذا كان هناك مبدأ انسانى أساسى يحترمه الجميع وهو حرية التعبير وحرية انتماء الانسان الى أى اطار فنى يريد ، فاذا ذهبنا لنقيم ونصف من هم الموهوبون ومن هم المدعون ، ثم نفرض على المدعين ألا ينتجوا وألا يضعوا أنفسهم فى دائرة الادباء أو رجال الأدب ، فلن نستطيع بعد ذلك أن ننفى عن أنفسنا تهمة الارهاب الفكرى والاخذ بأساليب الطغيان • أن الحرية توجهنا . أن نترك الناس وما يريدون ، وأن نترك للتاريخ الأدبى نفسه أن يحكم ، فليس من حقنا أن نوقف تيارا فكريا أو ظاهرة فنية مهمـا كانت درجـة قربهـا من العبقرية ، فلتتفتح البراعم وتنطلق المواهب أيا كان نوعهـا ودورها وليترك الباب مفتوحا لمن يريد ، لا يوصد فى وجه ، ولايغلق أمام طالب للدخول •

الكل أمام حق الفكر والقول سواء ، من حقه أن يقدر من يشاء وما يشاء •

وهذا فى الواقع استطرادا أثاره تقديرنا لموقف انسانى عام يتعلق بحق الفرد فى أن يكون كما يشاء ، وفى الوقت نفسـه فان من حـق النقـد أن يبصر بمسـتوى الظواهر والافكار ، ومن حقه أن يقف بالاشخاص حيث هم واقفون ، أو يقف معهم ليبين النقطة التى انتهوا اليها ، والجهد الذى استطاعوا ان يصلوا به •

ليس هذا ارهابا ، كما انه ليس تعقبا ومطاردة ، انما

وصف للساحة الفكرية واستعراض لها ، ربما كان فيه خير للفكر والأدب لأنه سيثير فى النفوس تنبها لا يلبث أن يكون حالة فكرية ثابتــة أو عادة من عادات البيئة الأدبيــة ، فلا تتقبل كل فكر على انه من أرقى الافكار لأنه قد أتيح له أن ينشر بوسيلة أو بأخرى ، ولا تنظر الى الانتاج الأدبى بمعيار الرواج والغزو التجارى للاســواق أو الغــزو الســياسى للصــحف وأجهزة الاعلام بل بمقياس الصــدق الموضــوعى والفنى فقط . بهذه النظرة يســتطيع الفكر الانسانى أن يتخلص دائمــا من كل الظواهر الطفيلية ومن الافتراء على الحقيقة ، مع عدم المساس بالحرية التى لولاها ما اســتطاع الفكر أن يشق طريقه نحو الكمال .

٣ ـ أخلاقيات الأدباء

كما اهتم المازنى بأخلاقيات الناس وسلوكهم الاجتماعى والانسانى من حيث كونهم أصدقاء له أو أحباب ، فقد اهتم بنفس الناحية فى أصدقائه من الادباء وتناول أخلاقهم ونقد الفاسد من مشاعر بعضهم ، وكأنه بذلك يحاول أن يضــع الناحية الاخلاقية من الأديب فى موضعها الطبيعى فى الحياة الأدبية ، فالصدق والوفاء والاعتراف بالجميل وعدم التنكر للصديق صفات ان كانت مطلوبة فى الانسان العادى فأولى بها الأديب .

ولعل هذا يمثل انعكاسا لنظرية النقد التى تحمس لها المازنى ودعا اليها وبنى عليها هو وزميلاه رأيهم فى متطلبات الشــعر الجديد ، ومن أهمها الصــدق مع النفس وصــدق التعبير عن التجربة ، والا انقلب الادب الى مسرح للنفــاق

والادعاء والارتجال ، شأنه فى ذلك شأن المجتمع الفاسد الملىء بالنقائص ٠

وهنا نجد نقطة الالتقاء الأساسية بين نقده الاجتماعى ونقده الادبى ، ونلاحظ أنهما يصدران عن نفس واعية بموقفها متماسكة ، تتوافق آراؤها فى مختلف المجالات الانسانية ٠

٤ ـ مع ابن الرومى

ولقد اهتم المازنى اهتماما كبيرا بابن الرومى الشاعر العباسى المعروف ، وخصص له قدرا كبيرا من كتابه (حصاد الهشيم) ، كما اهتم به من قبل صاحباه العقاد وشكرى ٠

ويبدو من معالجة المازنى للجوانب المختلفة من ابن الرومى وشعره أنه كان معجبا به أشد الاعجاب فهل كان هذا سخرية منه بآراء الأقدمين فيه ؟ أم كان اعجابا بأصالته وروحه المستقلة ؟ أم لأن فيه مثل ما فى المازنى من طابع السخرية الذى ظهر فى كثير من انتاجه ؟

ربما كان كل هذا ، ولأنه رأى فى حياة ابن الرومى ما اعتبره تبريرا لأهاجيه وسخرياته ، وقد يكون المازنى وجد فى هذا التبرير ما يتفق الى حد ما مع حياته هو ، فقد أصابه كما أصاب ابن الرومى من متاعب ومشكلات أحس معها بالأسى والحرمان والمرارة ، وعانى من تناقضات الحياة ما سبق أن عاناه ابن الرومى ، وكأنما مثل ذلك ضغطا معينا عليه فالتفت الى نفسه يعبر عنها ، ويتخذ من كتاباته وأشعاره مجالا لراحتها أو شكواها أو بأسلوب غير مباشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السخرية منها ، فاذا بنا نرى المازنى فى كثير من حالاته ذاتيا، يعالج كل شىء من واقع انعكاساته على نفسه ، ويصبح هذا أسلوبا عاما له ، ويقتنع به كمنهج ينبغى أن يكون موضع اهتمام الأدب والأدباء •

ولعل ابن الرومى هو الشاعر الذى تناوله المازنى بالدراسة أو بالنقد ولم يسخر منه (٢١٧) ، بل وقف الى جانبه ، وعالج بواعث السخرية عنده ، وهى لا شك قريبة من بواعثها عند المازنى ، وقد عرف السخرية بهذه المناسبة بما يمكن أن نعتبره رأيا للشاعر فى هذه الظاهرة الأدبية التى نعالجها ، ومن الواضح أنه يرى لها أساسا من اثنين ، أحدهما مضحك ، والآخر غير لائق وفى كلتا الحالتين لايخلو من الفكاهة ، فقد قال عنها : انها «العبارة عما يثيره المضحك أو غير اللائق من الشعور بالتسلى أو التقزز ، على أن تكون الفكاهة عنصرا بارزا ، والكلام مفرغا فى قالب أدبى (٢١٨) •

وبواعثها فى رأيه مقابلة الواقع بما فيه من نقص بصورة الكمال التى يجب أن يكون عليها الواقع •

ومع اعجاب المازنى بابن الرومى فانه لايقبل منه كل أهاجيه ، خاصة الفاحش منها ، ولكنه يعتذر عن ابن الرومى بأن عصره هو الذى أغراه بذلك • وبهذا يقرر المازنى أن للبيئة والعصر سلطانا يؤثر على الأديب والفنان ، وقد يأتى تحت هذا التأثير بما يؤخذ عليه ، فيشفع له تقديرنا للظروف التاريخية والبيئية ، ولكن هذا لا يحجب تقدير المازنى للهجاء العف والسخر المهذب ، والترفع عن أن يكون

الأدب مسرحا لتشويه السخرية الرقيقة المقبولة الذكية وتحويلها الى أن تكون من فحش القول وبذىء الهجاء ·

٥ ـ مع عبد الرحمن شكرى

كان المازنى انسانا عاطفيا ، يغضب ويرضى ، ويتأثر بغضبه ورضاه ، ويتفاعل مع التجارب بانطلاق ، وقد يبالغ فى انفعاله وتأثره فلا يقف عند حد موضوعى ، وخاصة مع الأصدقاء فهو اذا أحب أحب بكل مشاعره ، واذا انقلب على حبه انقلب بشدة قد يفقد معها مايمكن أن نهتدى به الى رأيه الصحيح ·

ولعل ذلك مرتبط بأسلوبه فى معاملة الأصدقاء ، فهو ليس سريع الانقلاب عليهم ولا سريع المواجهة لهم اذا ما انحرف سلوكهم معه ، وأعتقد أن هذا هو المسئول عن عنفه أحيانا مع أصدقائه حين تنقلب الصداقة الى جفاء يشبه روح العداء ·

لقد كانت العلاقة قوية بين المازنى وشكرى ، علاقة الصديق للصديق ، وكان المازنى يألف جانبه ، ويميل اليه ، وكانت بينهما حياة ألفة قوتها وحدة الثقافة ، ورابطة الادب ، وروح التجديد التى كانت تسرى فى كل منهما مع ثالثهما النابغ الاستاذ العقاد ·

ومع هذه الرابطة القوية التى جمعتهم فى الدرس والبحث ونوع الثقافة والتأثر والصحبة والبيئة الأدبية ، والمدرسة النقدية الواحدة وحب الشعر ، وتوافق الروح الأدبى بحيث يمكننا أن نعتبر كلا منهما شاعرا ذاتيا ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الرغم من كل هذا ، وعلى الرغم من وجودهما معا فى أذهان القراء وفى دنيا الثقافة والأدب فى الحياة المصرية، اذا بنا فجأة نسمع عنف الصدام بين الصديقين ، ولم يكن الصدام سهلا ولا رزينا ، ولكنه كان شديدا ومتهورا ، ونرى للمازنى أعنف هجاء وأقسى سخرية ، لم يستخدم هذا الاسلوب كثيرا مع غير شكرى ٠

وربما ــ لهذا ــ كان ما نلاحظه من ضآلة النتائج التى يمكن أن يخرج بها الباحث من تتبعه لهذه الازمة ٠

والانطباع الذى يمكن أن يقع الانسان تحت تأثيره هو أن المازنى لم ينجح فى عنف سخريته أن يحدد جوانب بارزة موضوعية فى أدب شكرى ليجعلها مادة للنقد ، باستثناء اتهامه بضعف روح التجديد عنده ٠

ونستطيع أن نحكم هنا بأن روح النقد النزيه لم تصاحب سخرية المازنى مع صديقه شكرى ، وأن السخرية هنا لم تكن عن باعث نقدى مجرد ، انما هو الصراع الحاد ، الذى يجعل المازنى يسمى صديقه «صنم الألاعيب» ، ويشير صراحة الى اليأس منه بعد الامل فيه « ونجرى مع الامل فيه ٠٠٠ فهل كان علينا أن نظل العمر طامعين فى غير مطمع » ؟

والواقع أن الامر لم يكن اختلافا على مذهب نقدى ، أو أن فى أدب شكرى ظواهر صارخة تخرج عن دائرة المدرسة الحديثة التى كان كل منهما ينتمى اليها ، بل أن النزاع الشخصى بينهما كان هو المحرك لكل هذا ، ويقال : ان شكرى هو الذى بدأ بمخاصمته والدس عليه ومحاربته عند نظارة

المعارف • وكان المازنى مدرسا بمدارسها ، فاعتبر ذلك تشهيرا مقصودا به ، وأخذ يرد عليه بعنف لايتفق مع روحه الطيبة الودود • وهكذا نخرج من هذه المحاولة للتعرف على طبيعة نقد المازنى لشكرى بأسلوبه الساخر العنيف بأنه كان نقدا شخصيا ، ولم يكن ذا غاية موضوعية مجردة فان العامل الذاتى يغلب عليه مع التأثر بالظروف الشخصية الحادة •

٦ ـ مع حافظ

ونفس الموقف تقريبا مع فارق فى الاسلوب نرى موقفه من «حافظ ابراهيم» الذى سلب المازنى منه كل حسنة فى شعره (٢١٩) ، واتهمه بالحقد على شوقى ، معتمدا فى ذلك على أبيات قالها حافظ فى مدحه ، وكان ذلك فى الواقع مبالغة فى الاساءة الى حافظ ، والكيد له والحط من قدره ، وحرمانه من أن يكون الشاعر الذى تريد فيه الامة شاعرها المبدع •

ومن الغريب أن نجد المازنى هنا أيضا واقعا تحت تأثير الرغبة فى الانتقام من حافظ الذى اتهمه بأنه هو الآخر يكيد له فى وزارة المعارف •

ولا أدرى لماذا سيطرت على كبار أدبائنا فى تلك الفترة هذه الحالة من تبادل الاتهامات ان صدقا أو كذبا •

لعله الصراع من أجل العيش حيث لم يكن دخل الأديب كافيا ليحيا الحياة التى يريد ، أو التى يشعر أنها تحقق له الاستقرار ، وفى تاريخنا الحديث نماذج لأدباء عانوا كثيرا من شظف العيش والحرمان ، وكثيرا ما يحمل أدبنا الحديث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من اشارات الى أن صفة الأدب لم تكن تكفى صاحبها وتغنيه عن الوقوع فى حرج الفقر والحاجة ٠

ولقد أثر ذلك دون شك على تيار الحركة الأدبية ، وعلى انتاج الادباء ، واستغله الاستعمار فى التأثير على اتجاهات الكتاب وموقفهم من الحركة الوطنية ، فوجدنا شاعرا عظيما مثل حافظ ينطوى تحت لواء الوظيفة بعد أن عانى من قسوة الحياة فيضعف صوته ، وتهدأ ثورته التى كانت رسولا بينه وبين مواطنيه ، وكانوا يرون فيها روحهم وأملهم ، وثقتهم فى أنفسهم ، فلما انتقل بوظيفته الى مستوى معيشى أفضل لاذ بالصمت أو ما يشبه الصمت ٠ وأصبحت الشعارات التى صنعها له الشعب وأطلقها عليه هى كل ما بقى لحافظ لكى لا ينساه الشعب ويخرجه من دائرة التيار الوطنى العام ٠

وربما كانت نظم الحكم فى هذا العهد تحرص على أن تضع الأدباء فى هذه المواقف الصعبة حتى يمكنها أن تستخدم أقلامهم وتوجهها وجهات نفعية خاصة ، فتفرض على أقلامهم أن تتحول من الخط الوطنى العام الى مسارب حزبية تهيىء لهم حياة مجزية ، فيشدهم بذلك الى ايثار الجانب الهين ، أو التخلى عن الاتجاه العام ٠

ومع ذلك فان الحركة الوطنية العربية والمصرية بصفة خاصة لم تعدم أدباءها ولم تجد نفسها وحيدة من دونهم ، بل أن أكثر الأدباء تعرضا لهذه الألاعيب كان أكثرهم اثراء للحركة الوطنية أو الحركة الثقافية بصفة عامة وكانت كل المحاولات وقودا حيا لحركة النضال القومى والفكرى ، فكان للأدب دور رائد فى هذا النضال سواء من حيث الشكل — على المستوى العام أو المستوى الحزبى الخاص ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن على الرغم من ذلك بقيت هناك أسباب للصراعات الشخصية لعبت دورها في حياة الأدباء ، وفي حياة البيئة الأدبية بوجه عام فنسمع عمن كانوا يستغلون هذه الصراعات بين الأدباء ويتسربون الى حياتهم ، وفيما بينهم بالكيد والافساد ، حتى تأثرت العلاقات الشخصية بين رجال الادب ، وأصبح من السهل أن تضطرب وتسوء دون أسباب معروفة •

واذا كان رجال الفكر والأدب قد سلموا في معظمهم من التنكر للحركة الوطنية العامة ، فانهم لم يسلموا من الوقوع في النزاعات الشخصية حيث لم ينجحوا في التغلب عليها ، فبقيت الاتهامات حتى بين الاصدقاء تظهر من وقت لآخر •

وقد تأخذ الخلافات أحيانا شكل المعارك الأدبية أو اللغوية أو شكل الخلافات على الأخذ بالقديم والجديد ، وهذه لا يمكن أن ننظر اليها من جانب التأثر بالدوافع الشخصية ، مهما كان الصراع عليها أحيانا قاسيا وعنيفا ، فلننظر اليها مهما بلغت حدتها كمظهر للتفاعل بين الآراء المختلفة ، ولنحسن الظن بها ، ونتعامل معها على أساس انها جزء من الحركة الأدبية ، بل انها على ما يبدو ما زالت تحتاج الى دراسة جديدة ، لكي تصفى نهائيا من النزعات الشخصية ، ويمكث بيننا منها ما ينفع الحركة الأدبية في مسارها الطويل •

على أن الذي يعتبر حشوا في حياتنا الأدبية هو هذا الصراع الشخصي الأناني الذي جذب اليه كثيرا من الاقلام ، وملأ الساحة في تلك الفترة باتهامات بعضها صحيح وبعضها باطل وادعاء • بعضه مبني على أساس وان كان واهيا ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعضه لا أساس له الا الاوهام وقد نجد فى موقف المازنى من حافظ ما يمكن أن نعتبره نقدا موضوعيا ، وما يمكن فى نفس الوقت أن نأخذه على انه صدى لمثل هذه الظروف الشخصية التى تؤثر على الكاتب وتكون أفكاره ، وتطغى على نظرته نحو الآخرين لا فرق فى ذلك بين أن يتعامل معهم أو يتعامل مع انتاجهم ٠

ولعل الدسائس والفتن كان لها دور فى احداث الفجوة بين الكاتب والشاعر ، ولعلها نجحت فى أن تحجب عن الكاتب ما يتمتع به الشاعر من صدق النفس وسلامة الطبع وبراءة الساحة ، حتى أن نقده له اتسم بطابع شخصى أثر على الجانب الموضوعى ٠

لهذا فان نقد المازنى لم يكن كله تعبيرا عن نظرة موضوعية مجردة ، مع أنه أحد الرواد فى حركة النقد الأدبى الحديث ٠

لذلك فاننا نرى سخريته فى بعض الاحيان لم تخلف لنا ما يمكن أن يفيد منه النقد الأدبى ، مع ان السخرية فى طبيعتها نوع من النقد ، أو ذات منزع نقدى ٠

ولو أن هذه الروح الساخرة قد سلمت فى آرائها النقدية من النوازع الشخصية السلبية ولم تكن موجهة نحو رد الاهانة أو دفع الكيد ، أو منبعثة عن الرغبة فى الانتقام، لكان كسبنا منها للحركة الادبية كبيرا ، ولما أخذنا نتلمس البواعث الشخصية التى تقف وراء نقد الأديب ، والتى يكشف عن وجودها تراجعه بعد ذلك عما سبق ان وجهه الى بعض الشخصيات من نقد ، أو ما يمكن أن يسمى حملة نقدية أحيانا ، كما حدث للمازنى حين ندم على موقفه

المتشدد مع حافظ حتى أنه وصف آراءه السابقة فيه «بالهراء القديم» (٢٢٠) ٠

٧ ـ مع المنفلوطى

ولكن نقد المازنى للمنفلوطى يضع أيدينا على مواطن للنقد تمس الجانبين الفنى والعملى على السواء ، ونحس معها أن الناقد جاد فى مناقشته لانتاج الأديب وأسلوبه ، ومن هذا النقد نستطيع أن نستشف عنايته بالاسلوب والظواهر البارزة فيه ، والتى لا يكون لها دور تؤديه ، مثل استعمال المنفلوطى للمفعول المطلق بداع وبدونه ، وكان تعليقه ساخرا وسخريته معبرة جدا عن مدى اهتمام المنفلوطى بالمفعول المطلق ، حتى أنه فى رأى المازنى وبعد احصاءات قام بها قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعا (٢٢١) ونفس الشىء لاستعمال النعوت والاحوال والمترادفات عموما ٠

فكأن المازنى ينبه الى الدقة فى استعمال المكملات فى الجملة ، بحيث لا توضع هكذا جزافا ، ولا يكون الباعث عليها الانسياق مع تركيبات لفظية ، ورنين معين لأواخر الجمل ، على النحو الذى نجده عند كثير من الكتاب دون تقدير لمدى الحاجة الى هذه المكملات ومرادفاتها ، فى الوقت الذى لا يمثل فيه ايراد المرادفات دراية حقيقية بالألفاظ لأن اللغة فى الواقع لا تكرر نفسها بالالفاظ دون قصد ، فلكل لفظ معناه الخاص به ، وله ايحاءاته التى يضفيها على الموقف ويكمل بها المعنى ٠

فالدقة فى استخدام اللغة ، ووضع اللفظ فى موضعه المطلوب ، مع تقدير الحاجة اليه عنصر مهم ، وشكل اللفظ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يقل أهمية فى صلته بالمعنى والجو العام ، فالموقف الذى يتطلب نعتا قد لا يناسبه الحال ولا يقنع به والعكس ٠

كما أن الكاتب الذى يكثر من استعمال مشتقات بعينها يضع نفسه فى اطار من الرتابة والتحجر لا تنجح موسيقى اللفظ أحيانا ـ وهى التى قد تكون حجته فى الالتزام بهذه المشتقات وقد تكون أمرا مرتبطا بالعادة فقط ـ لا تنجح هذه الموسيقى فى تخفيف ضغطه على الأسلوب وعلى القراء ٠

ومن ناحية أخرى فان المازنى لم يقر المنفلوطى على تعريض أبطال قصصه للموت وهم فى سن الشباب ، والاسراف فى البكاء عليهم ، ورأى أن هذا لا يتفق مع رسالة الأدب التى تدعو للقوة والحياة ٠

ورغم أن موت الابطال يعتبر شيئا عاديا ، وقد لا يكون ضد رسالة الأدب أحيانا ،الا أن تناول المازنى له على هذه الصورة يشير الى أنه بمثابة دعوة منه الى أن يكون الأدب بناء وباعثا للقوة والأمل ٠

هل من رسالة الأدب أن يبكى مع الباكين فيعبر عن النفوس الحزينة ويواسيها ويشكو معها ويردد شكواها ؟ أم أن رسالته أن ينتقل من دور المواساة الى أن يعمل شيئا ، شيئا يعلو على الأحزان بالأمل ، ويقوى النفوس فلا تعصف بها المحن ؟

ان للأدب رسالة عظمى ليست فى التعبير فقط عن الناس وآلامهم ، ولكنها الترقى بحياتهم ، ومنحها القوة الدائمة المتجددة لتتغلب على ما يحاول وقف خطاها نحو التقدم ونحو الاحتفاظ بالحياة ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هكذا نرى سخرية المازنى ـ مع اعتبارنا لها عملا تلقائيا لا تمثل مذهبا معينا بقدر ما تمثل أسلوب أديب فنان ، ينفعل وينقد ٠

ان سخرية المازنى مع طابعها الشخصى ، شأن كل ظاهرة من هذا النوع ، قد تركت انطباعا بارزا على أدبنا الحديث ، ليست فقط فى كونها ميزت له كاتبا معينا يعتز به ويرى فيه رائدا من رواده ، وليس فقط فى انها أضافت للأدب الحديث ظاهرة أسلوبية فريدة تجمع بين الأناقة والبساطة والجاذبية ، ولكن لأنها أيضا أسهمت فى الحركة النقدية التى سيطرت على جو الأدب فى فترة انطلاقه نحو الآفاق العالمية الواسعة فى النصف الأول من هذا القرن ٠

ولا أريد أن يفهم القارىء من هذا أن سخرية المازنى قد جمعت كل نقده ، فاننى لم أتناولها بهذا المعنى ، ولم أقصد من دراستى لها من هذه الزاوية أن أتخذها وسيلة للتقنين للمازنى من حيث كونه ناقدا ، فان لهذه الدراسة منهجها الخاص بها ، ولا تعنى الاحكام النقدية التى تعرضنا لها هنا عن ضرورة البحث فى انتاج المازنى مرة أخرى ، لمن أراد أن يستزيد فى مجال التعرف الكامل على الحركة النقدية التى قام بها المازنى فى أدبنا الحديث أو على دوره البارز فى حركة النقد العام ٠

لقد أوضحت الدراسة التى أقدمها الآن للمازنى من خلال أسلوبه الساخر بعض الملاحظات النقدية التى تثبت أن سخريته لم تكن عبثا أو فى فراغ ، وانما كانت على تلقائيتها عملا ايجابيا له تأثيره فى حركة النقد الأدبى ، على الرغم من أنها فى هذا الجانب النقدى لم تلتزم بالموضوعية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلمية التزامها بالتعبير عن الطابع الشخصى للكاتب .

وهذا ما يجعلنا نتصور أن الأحكام النقدية التى عالجها المازنى لم تكن بدافع النقد بادىء ذى بـدء ، ولكنها كانت نوعا من التناول الفنى للآثار الأدبية ، وتسجيلا لما تتركه عليه من انطباعات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعليقات وهوامش

(١) يقال ان فن الكاريكاتير نشأ على يد الفنان الايطالى « انيبال كراكشى » (١٥٦٠ ـ ١٦٠٩) الذى عرف عنه أنه أول من رسم فى التاريخ الحديث صورا باعثة على الضحك ، ومن أوائل من أدخله الى مصر فى العصر الحاضر يعقوب صنوع فى مجلة « أبو نضارة » وأحمد حافظ عوض فى مجلة « خيال الظل »

(٢) أنظر « الفكاهة فى الأدب ، أصولها وأنواعها للدكتور أحمد الحوفى ١/٧٢ ·

(٣) كالنادرة التى تروى عن فقيه القرية يسأله أحدهم عن الحكم فى جدار بال عليه كلب ضال ، فيجيب بأن الكلب نجس العين ولا سبيل الى تطهير الجدار الا بهدمه وعندما يقول له السائل انها حائط الشيخ نفسه يجيب بأن أقل الماء يطهرها ·

(٤) الفكاهه فى الأدب ١/٣٨

(٥) نفس المصدر ١/١٠٣

(٦) حصاد الهشيم لابراهيم عبد القادر المازنى ١٢٣

(٧) نفس المصدر

(٨) نفس المصدر

(٩) احدى شخصيات مأساة « ريتشارد الثانى » لشكسبير

ولمزيد من الايضاح أنظر كتاب « البحث عن شكسبير » للدكتور لويس عوض ، كتاب الهلال فبراير سنة ١٩٦٥ (٨٦ ـ ٨٨)

(١٠) حصاد الهشيم ١٢٥

(١١) الفكاهة فى الأدب ٢/٢

(١٢) محاضرات الأدباء ١/٢٠٢

(١٣) المستطرف فى كل فن مستظرف ١/٥٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١٤) الفكاهة فى الأدب ١/٥٠

(١٥) نفس المصدر ٢\٣٣

(١٦) أنظر البيان والتبيين للجاحظ ٤/٦

(١٧) الفكاهة فى الأدب ٢/٣٩

(١٨) نفس المصدر ٢/٤٠

(١٩) وفيات الوفيات ٢\٣٢٠

(٢٠) عيون الأخبار ١/٣١٨

(٢١) سوره سبأ آيه ٢٤

(٢٢) نقد الدرس النظرى للدكتور جمال الدين الرمادى ٢٨٠

(٢٣) نفس المصدر ٣٢٧

(١٤) سوره النساء آيه ١٣٨

(٢٥) سوره ال عمران أيه ٢١

(٢٦) سوره الدخان آيه ٤٩

(٢٧) سوره الرعد أيه ١١

(٢٨) نفس المصدر

(٢٩) سوره البقرة آية ٩٣

(٣٠) ديوان ابن الرومى ١٤٦

(٣١) انظر الفكاهه فى الأدب ١/٥٥

(٣٢) العقد الفريد ٣/٣٢٩

(٣٣) ديوان ابن الرومى ٧١

(٣٤) ديوان البهاء زهير ٩٧

(٣٥) الفكاهه فى الأدب ١/٧٠

(٣٦) الامتاع والمؤانسه ٢/٥٨

(٣٧) ديوان البهاء زهير ٣٨

(٣٨) ديوان الجاحظ ٥/١٠٧

(٣٩) الأغانى ١٥/١٦

(٤٠) سوره الاسراء آيه ٢٩

(٤١) عيون الأخبار ١/٢٦٣

(٤٢) الفكاهة فى الأدب

(٤٣) عيون الأخبار ١/٣١٦

(٤٤) محاضرات الأدباء ١/١٢٧

(٤٥) الفكاهه فى الأدب ١/١٢٧

(٤٦) نهاية الأرب ٤/٢٤

(٤٧) الفكاهه فى الأدب ١/١٠٦

(٤٨) العقد الفريد ١/٣٠٢

(٤٩) الفكاهه فى الأدب ١/١٠٧

(٥٠) العقد الفريد ٢/٣٣١

(٥١) نفس المصدر ٣/٢٤٤ وانظر الفكاهه فى الأدب ١/١٠٨

(٥٢) وفيات الأعيان ٢/٤٣٧ وانظر الفكاهه فى الأدب ٢/٥٦

(٥٣) الفكاهه فى الأدب ٢/٥٧

(٥٤) نفس المصدر

(٥٥) نفس المصدر ٢/٦٨

(٥٦) أعد هذا البحث قبل أن ينتصر جيشنا العظيم فى معركة العبور الكبرى • فيلتقى هذا النصر ليحدى تلك الامانى التى تملأ النفس ، ولقد شعرت بعد هذه المعارك البطولية الناجحة التى خاضها جيشنا الباسل فى السادس من أكتوبر وحقق بها جزءا من آمال الأمه فى التحرير الكامل واستعاده الأرض العزيزه ، شعرت أن ما أدعو اليه من بناء القوه الدائمه لا يسرى فى فراغ ، ولم يكن حلما بعيد المنال فها نحن نثبت اننا نملك القدرة على تحقيق النصر ، واعتقد أن مسئولية الجيش ليست فى أن يحقق النصر فقط ، ولكن فى أن ينتج المستوى الذى يمكنه من الاحتفاظ بالنصر واستمراره وتوسيع خطاه حتى تكون الأمة كلها منيعه والى الأبد •

(٥٧) كان الزواج من الاخت عند المصريين عاده ملكية فقط للمحافظة على نقاوة الجنس . وكان الشعب يؤيد ذلك لأنه يرضى حاجه مهمة عند ملوكه ، حتى أن أحد الملوك تزوج ابنته لعدم وجود أخت له ، ولم يكن الشعب يقبل هذا العمل من غير الملوك ، ولذلك اعتبره من البطالسه تشبها بملوكهم وهم ليسوا أهلا لمثله •

(٥٨) مصر القديمة لسليم حسن ٢/٤٢٥

(٥٩) الأدب المصرى القديم . أحمد عبد الحميد يوسف دار الكرنك ٧٩

(٦٠) الفكاهة فى الأدب ٢/١٠٤

(٦١) نفس المصدر

(٦٢) نفس المصر ٢/١٠٤

(٦٣) انظر الفكاهة فى مصر للدكتور شوقى ضيف

(٦٤) المماليك البحريه بدأ من عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى تولى على مصر فى الفترة (سنة ٦٣١/١٢٣٩ م) حيث اشترى ألف مملوك وأسكنهم الروضة وأسماهم المماليك البحريه ، ثم أكثر من شراء الترك وأعتقهم وأسند اليهم الوظائف وولاهم الامارة •

(٦٥) فى الأدب ٢/١٠٣

(٦٦) نفس المصدر

(٦٧) خيال الظل د. عبد الحميد يونس ٤٠

(٦٨) نفس المصدر ٥٩

(٦٩) نفس المصدر ٧٣

(٧٠) شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعى الموصلى (٦٧٤ — ٦٠٠) هـ (١٢٥٠ — ١٣١٠) طبيب عيون وشاعر ساخر ومؤلف تمثيلى بارع فى فن خيال الظل . هاجر الى القاهرة ٦٦٥ هـ واستقر بها وأكمل فيهـــا طب العيون وتتلمذ على أدبائها وشعرائها .

(٧١) خيال الظل ٤٧

(٧٢) نفس المصدر ٩٤

(٧٣) الفكاهة فى الادب ٢/١٠٦

(٧٤) نفس المصدر ٢/٩٢

(٧٥) نفس المصدر ٧٥

(٧٦) نفس المصدر ٢\١٠٨

(٧٦) نفس المصدر ٢/١٠٨

(٧٧) نفس المصدر ٢/١٠٩

(٧٩) مجلة أبو نظارة « التى أصدرها سنة ١٨٧٦ الصحفى اليهودى الســاخر « يعقوب روفائيل صنوع » والتى ذاعت شــهرتها فى مصر وفى البلاد العربية ، وتركيا وايران ، وكانت لاذعة فى نقدها ، سخرت من الخديو ومن كبار رجال السياســة ، مما عرضها للاغلاق أكثر من مرة ، والصــدور بأكثر من اســم وعرض صاحبها — للنفى والتشريد .

(٨٠) التنكيت والتبكيت » مجلة ســاخرة ، أصدرها الأديب الوطنى المعروف « عبد الله النديم سنة ١٨٨١ ، ولها من اســمها ما يكشف عن طبيعتها ووظيفتها . وقد تعرضت هى الأخرى للمطاردة ، فأنشأ النديم بدلا منها مجلته الثانية « الأستاذ » لتتابع ما بدأته أختها فى أسلوب أدبى وسخرية بناءة وهادفة .

(٨١) الفكاهة فى الأدب ٢/١١٣

(٨٢) نفس المصدر ٢/١٢٤

(٨٣) « حمارة منيتى » مجلة فكاهية ساخرة أصدرها « محمد توفيق » سنة ١٩٠٠

(٨٤) الفكاهة فى الأدب ٢/١٦٩

(٨٥) « خيال الظل » أصدرها أحمد حافظ عوض ، سنة ١٩٠٧ ، وهى مجلة نافذة استخدمت فن الكاريكاتير باتقان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٨٦) أصدرها حسن علي • واحمد عباس • وكانت بارعة فيما يمكن أن يسمى فن الغمسات في ميادين السياسة والحكم والمسائل الاجتماعية •

(٨٧) تنشر الكعكوكة استمرارا لمجلات السيف والمسامير والأرعول ، وحظيت باعجاب الجمهور ونالت شهرة كبيرة في المدينة والقرية لولا أنها كانت تملق القصر •

(٨٨) « الكشكول » من أشهر المجلات الفكاهية ، اصدرها ١٩٢١ « سليمان فوزي » اتسمت بالفكاهة الساخرة

(٨٩) صدرت مجلة الفكاهة في ديسمبر ١٩٢٦ عن دار الهلال ، ورأس تحريرها • الشاعر الفكه « حسين شفيق المصري » واشترك في التحرير نخبة من الأدباء والرسامين ؛ ونالت اعجابا كبيرا لمدة ثماني سنوات حتى تحولت الى مجلة الانس التي جمعت بين الجد والفكاهة • وكان حسين شفيق المصري بارعا في معارضة القصائد المشهورة بأسلوب هزلي يتناول العيوب الاجتماعية في نقد لاذع وسخرية مريرة ، وكان كثيرا ما يستعمل اللغة العامية •

(٩٠) عبد العزيز المصري للدكتور جمال الدين الرمادي سلسلة أعلام العرب ٢٥٤

(٩١) نفس المصدر ٥٤

(٩٢) ديوان حافظ ١٨٩

(٩٣) الشوقيات ٤/١٩٠

(٩٤) نفس المصدر ٤\١٩٥

(٩٥) نفس المصدر ٢٠٩/١ ، وواضح أن الشاعر يسخر أيضا من قاضي دنشواي احمد فتحي زغلول

(٩٦) وقال في كتابه « الساق على الساق » ص ٢٠٥ « ان البرنيطة في مصر تحمي وتعظم وتعمي ، فاذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها سوبة »

(٩٧) كان أبو الحسن يحيى في بداية حياته جزارا ، ثم أنس من نفسه قدرة على الشعر فأتجه اليه واحترفه ، وخاصة المديح ، ولكنه لم يجد منه ما كان يأمل ، فتركه وعاد الى الجزارة ، وأصبح يفضلها على قول الشعر ، ومما قال في ذلك •

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت وأهجر الآدابا

وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

(٩٩) كان حافظ ابراهيم من اكثر الشعراء تندرا بالعيوب الاجتماعية المتفشية في مصر ومنها على سبيل المثال الاهتمام بالأمور الشخصية للغير ، وترك الأمور العامة والتهافت على الأضرحة يظهرون فيها بالكرم الأبله الكاذب بينما هم بخلاء على المحتاجين ، والاقبال على المظاهر ، والتنافس على الألقاب •

(١٠٠) ديوان الرافعي ٥٢/٣

(١٠١) حصاد الهشيم ١٩٢٤ ، وقبض الريح ١٩٢٧ كتابان للمازني •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١٠٢) أدب المازني للدكتوره نعمات فؤاد ٣١

(١٠٣) نفس المصدر ١٤

(١٠٤) نفس المصدر

(١٠٥) نفس المصدر ٤٠

(١٠٦) حيوط العنكبوت للمازني ١٢٠

(١٠٧) نفس المصدر ، وانظر كتاب في سبيل الحياه للمازني أيضا

(١٠٨) انظر أدب المازني ٤٤

(١٠٩) نفس المصدر

(١١٠) نفس المصدر ٤٦

(١١١) مجلة الثقافة ١٩٣٩/٤/١١

(١١٢) يقال ان ابن الرومي كان أيضا شديد الحساسيه ، متقلبا ، ضيق الصدر ، وكان ضئيلا قبيحا ، وله مواقف مع بعض أصدقائه شبيهة بمواقف المازني ، وكان له نوعان من الهجاء ، الخفيف المعتدل ، وهو ما كان يتناول به بعض العيوب النفسية أو الجسدية وهو سخريه مفكهه وان كان لاذعا أحيانا ، والنوع الثاني مقذع شديد عنيف ، وكان غالبا ما يطلقه الى مهاجميه والحاقدين عليه .

(١١٣) هو شرف الدين بن حفص عمر بن علي بن مرشد الحموي ، شاعر صوفي (١١٨١ ــ ١٢٣٥) لقب بسلطان العاشقين ، ولد ونشأ وتوفي في مصر.

(١١٤) يذهب الى ذلك أيضا الأستاذ العقاد في مقاله بمجله المجمع ١٩٥٣ ، واعترف المازني في مقالة له بمجلة الهلال أنه تأثر بقصه « سانين أو ابن الطبيعة » كما ترجمها هو لمؤلفها الكاتب الروسي « هاتريباشيف » وبلغ من هذا التأثر أن أزاح عنه يأسه الذي ملأ حياته بعد وفاة زوجته .

(١١٥) أنظر أدب المازني ٨٥ ، واقرأ المقدمة لكتاب « قبض الريح »

(١١٦) قبض الريح ١١٨

(١١٧) نفس المصدر ٢٩

(١١٨) نفس المصدر ٤١

(١١٩) نفس المصدر ٥٥ ، ٥٦

(١٢٠) نفس المصدر ٧٠

(١٢١) نفس المصدر ٧٦

(١٢٢) نفس المصدر ١١٩

(١٢٣) نفس المصدر ١٢٠

(١٢٤) نفس المصدر ١٢١ ، ١٢٢

(١٢٥) حصاد الهشيم

(١١٦) نفس المصدر ، المقدمة الطبعة الأولى سنة ١٩٢٤
(١٢٧) قبض الريح ٤٦
(١٢٨) حصاد الهشيم
(١٢٩) نفس المصدر ٢٣٦
(١٣٠) نفس المصدر
(١٣١) ابراهيم الثاني للمازني
(١٣٢) قبض الريح ١٤٧
(١٢٣) قبض الريح ١٦٠ ، ١٦١
(١٣٤) نفس المصدر ١٦٢
(١٣٥) حصاد الهشيم ١٩٣)
(١٣٦) نفس المصدر ١٩٢
(١٣٧) نفس المصدر ١٩٢
(١٣٨) قبض الريح ١٥٩
(١٣٩) صندوق الدنيا
(١٤٠) ابراهيم الثاني
(١٤١) خيوط العنكبوت للمازني مقال « حر الشكل »
(١٤١) حصاد الهشيم ١٨ ، ١٩
(١٤٣) قبض الريح المقدمة ٣
(١٤٤) نفس المصدر ٤
(١٤٥) حصاد الهشيم ٥
(١٤٦) نفس المصدر ١٩٠
(١٤٧) نفس المصدر
(١٤٨) نفس المصدر
(١٤٩) نفس المصدر ١٩١
(١٥٠) مجلة الشبيبة العدد رقم ١٠٤
(١٥١) حصاد الهشيم ١٩١
(١٥٢) نفس المصدر ١٩٣
(١٥٣) في الطريق للمازني ١٨٧
(١٥٤) حصاد الهشيم ٩
(١٥٥) سبل الحياة للمازني المقدمة ، بقلم « عباس محمود العقاد »
(١٥٦) قبض الريح ١١٩

(١٥٧) نفس المصدر ٦

(١٥٨) كانت أم المازنى من أصل حجازى ، يقول عن ذلك : ان جدتى لأمى مكية ، زوجوها وهى بنت عشرين سنه رجلا فحلا من أهل المدينه ، فشزت ، فطلقوها منه ، ثم احتملوها الى مصر بعد وفاة أبيها وخراب بيته وتجارته ، فتزوجت جدى (رحلة الحجاز للمازنى من مطبوعات الجديد ص ٧٨)

(١٥٩) رحلة الحجاز ٨١

(١٦٠) نفس المصدر ٩٩

(١٦١) رحلة الى الشام للمازنى وهى مخطوطة كتبها سنه ١٩٤٥ ، ونشرتها مجلة الجديد فى عددها رقم ٥٠ الصادر فى أول فبراير ١٩٧٤ ، والأعداد التاليه ٠

(١٦٢) قبض الريح ١٤ - ٢٠

(١٦٣) نفس المصدر

(١٦٤) نفس المصدر

(١٦٥) صندوق الدنيا

(١٦٦) حصاد الهشيم ٢٦١

(١٦٧) البحث عن شكسبير للدكتور لويس عوض ١٢٠

(١٦٨) نفس المصدر ١٤٥

(١٦٩) نفس المصدر ١٠٩

(١٧٠) أنظر كتاب « الأدب الانجليزى » للدكتور لويس عوض

(١٧١) حصاد الهشيم ٢٦١

(١٧٢) نفس المصدر ٢٦٦

(١٧٣) نفس المصدر ٢٣٢

(١٧٤) نفس المصدر

(١٧٥) هو الشيخ محمد شريف سليم الذى طبع من ديوان ابن الرومى الى تعرف البناء ، وبلغ ما طبعه سبعمائة بيت ٠

(١٧٦) حصاد الهشيم

(١٧٧) نفس المصدر ٣٤١

(١٧٨) نفس المصدر ٣٤٣

(١٧٩) فلسفه أبى العلاء مستقاة من شعره ، بقلم حامد عبد القادر ٢٨

(١٨٠) نفس المصدر ١٩١

(١٨١) أبو العلاء المعرى للدكتوره عائشة عبد الرحمن ١٦٨

(١٨٢) نفس المصدر

(١٨٣) اللزوميات للمعرى ١/١٠٩٥

(١٨٤) الديوان فى الأدب والنقد ، المقدمة « الطبع والتقليد فى الشعر العصرى » للأستاذ عباس محمود العقاد ٢١

(١٨٥) ديوان المازنى ، قصيده « الاخوان » ٣٢

(١٨٦) نفس المصدر ، استعمال صديق » ٨٣

(١٨٧) نفس المصدر الى عاتب ٩٢

(١٨٨) نفس المصدر السلو ٤٧

(١٨٩) نفس المصدر الى صديق قديم ٦١

(١٩٠) نفس المصدر الى صديق ٨٩

(١٩١) نفس المصدر المناجاه ٣٥

(١٩٢) نفس المصدر القصيعه ١٤٣

(١٩٣) نفس المصدر الربح والخساره ١٤٦

(١٩٤) نفس المصدر الليل والهم ٢٠٥

(١٩٥) نفس المصدر يا أم ٢١٣

(١٩٦) نفس المصدر حلم اليقظة ٩٣

(١٩٧) نفس المصدر الدار المهجورة ٣٠

(١٩٨) نفس المصدر الدار المهجورة

(١٩٩) نفس المصدر الجمال اذا هوى ٣١

(٢٠٠) نفس المصدر أحلام الموتى ٣٩

(٢٠١) نفس المصدر السحر والظلام ١٣٢

(٢٠٢) نفس المصدر بعد الموت ٥٢

(٢٠٣) نفس المصدر بعد الموت

(٢٠٤) نفس المصدر وصية ٩١

(٢٠٥) نفس المصدر مناجاة الهاجر ١٠٨/٩٧

(٢٠٦) نفس المصدر مناجاة الهاجر

(٢٠٧) نفس المصدر فى المناجاه ١٣٤

(٢٠٨) نفس المصدر قبر الشعر ٧١

(٢٠٩) نفس المصدر محمد رعزوز ٢١٢

(٢١٠) بلابل من الشرق لصالح جودت ، سلسله اقرأ رقم ٣٥٥ ص ١٤٧

(٢١١) نفس الربيع ١٠

(٢١٢) نفس المصدر ٢١٦

(٢١٣) نفس المصدر ٢١٨

(٢١٤) نفس المصدر ٢١٠

(٢١٥) نفس المصدر ٥٣

(٢١٦) حصاد الهشيم ٣٦٢

(٢١٧) كان المازني معجبا كذلك بالشريف الرضي وأبي العلاء المعري ، ولكن اعجابه بابن الرومي أشد .

(٢١٨) حصاد الهشيم ٣٨٨

(٢١٩) انظر « شعر حافظ » للمازني

(٢٢٠) حصاد الهشيم ٤٣١

(٢٢١) ديوان العقاد ٢/٢٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهم المراجع

١ ـ ابن الرومى — محمد عبد الغنى حسن

٢ ـ ابن الرومى ، حياته وشعره — روفوت جبس ، ترجمه د . حسين نصار

٣ ـ ابراهيم الكاتب وهموم العصر
ادوارد الخراط ، محلة مجمع اللغة العربية ـ سبتمبر ١٩٦٩

٤ ـ ابراهيم عبد القادر المازنى — د . محمد مندور

٥ ـ أبو العـلاء المعرى — د . عائشة عبد الرحمن

٦ ـ أدب المـازنى — د . نعمات فؤاد

٧ ـ الأدب الانجليزى — د . لويس عوض

٨ ـ الأدب المصرى القديم — أحمـد يوسـف

٩ ـ الأدب المصرى القديم — سـليم حسن

١٠ ـ أحمـد رامى — صـالح جودت

١١ ـ الأغانى — الأصـفهانى

١٢ ـ الامتاع والمؤانسة — أبو حيان التوحيدى

١٣ ـ البحث عن شكسبير — د . لويس عوض

١٤ ـ بلابل من الشرق	صـــالح جودت
١٥ ـ البيان والتبيين	الجـــاحظ
١٦ ـ تطور الرواية المصرية	د · عبد المجيد طه بدر
١٧ ـ خيال الظل	د · عبد الحميد يونس
١٨ ـ دراسات ادبية	عمر الدسوقى
١٩ ـ درس المــازنى	د · شكرى عياد ، مقالات بمجلة الأدب سبتمبر ١٩٥٨
٢٠ ـ رمز الطفل ، دراسة فى أدب المازنى	د · مصطفى ناصف
٢١ ـ ديوان ابن الرومى	الشيخ محمد شريف سليم
٢٢ ـ ديوان البهاء زهير	
٢٣ ـ ديــوان الجــارم	
٢٤ ـ ديــوان حافظ	
٢٥ ـ ديــوان الرافعى	
٢٦ ـ الساق على الساق	أحمد فارس الشدياق
٢٧ ـ ســـــقراط	
٢٨ ـ شعاع من طه حسين	ثروت أباظة
٢٩ ـ الشــــوقيات	
٣٠ ـ عبد العزيز البشرى	د · جمال الدين الرمادى
٣١ ـ العقــد الفريد	ابن عبد ربه
٣٢ ـ على هامش التاريخ القديم	عبد القادر حمزة
٣٣ ـ عيــون الأخبار	ابن قتيبة
٣٤ ـ الفكاهة في مصر	د · شوقي ضيف

٣٥ ـ **الفكاهة فى الأدب العربى ،**
أصولها وأنواعها — د . أحمد الحوفى

٣٦ ـ **فلسفة أبى العلاء مستقاه من شعره** — د . حامد عبد القادر

٣٧ ـ **فلسفة الضحك** — برحسون

٣٨ ـ **فنــون الأدب** — شارلسون ، ترجمة د . زكى نجيب محمود

٣٩ ـ **فوات الوفيات** — الكتبى محمد بن شاكر

٤ ـ **القصة القصيرة فى مصر** — جامعة الدول العربية

٤١ ـ **كتابات وفصول** — عباس محمود العقاد

٤٢ ـ **اللزوميــات** — المعرى

٤٣ ـ **معجم الأدباء**

٤٤ ـ **المستطرف فى كل فن مستظرف** — الأبشيهى

٤٥ ـ **مصر القــديمة** — سـليم حسن

٤٦ ـ **نهــاية الأرب** — النـويرى

٤٧ ـ **وحى الرســالة** — أحمد حسن الزيات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من مؤلفات المازنى

كتب المقـــالة

١ ـ بشـــار بن برد
٢ ـ حصـــاد الهشيم
٣ ـ خيوط العنكبوت
٤ ـ ديوان النقد ، بالاشتراك مع العقاد
٥ ـ رحلة الحجاز
٦ ـ رحلة الى الشام
٧ ـ شـــعر حافظ
٨ ـ الشعر غاياته ووسائله
٩ ـ صـــندوق الدنيـــا
١٠ ـ فى سبيل الحياة
١١ ـ قبض الريح

القصص

١٢ ـ ابراهيم الكاتب
١٣ ـ ابراهيم الثـــانى
١٤ ـ أقاصيص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشـــعر

فهرس


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٥٨ / ١٩٨٣

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٣٩ - ٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

. هذا الكتاب

عبد القادر المازنى علم شامخ من أعلام الأدب المصرى . فهو جزء من الحركة الثقافية الهادرة التى قادها مع أبناء جيله طه حسين . والعقاد وشكرى وهيكل

والكتاب يقدم دراسة ممتعة وشاملة فى أدب المازنى الذى اتسم بالسخرية الحادة التى تنضح أحيانا بالمرارة وأحيانا بالفكاهة . ويضعه فى مكانه المتميز والمتفرد إلى جانب قادة الفكر والثقافة فى مطلع القرن العشرين . كما يضعه فى موقعه من الأدب العالمى إلى جانب برناردشو . وفولتير وغيرهما

وفى كل الأحوال فهو يعبر عن الروح الأصيلة للشعب المصرى .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٦٠ قرشـــا